الذات الخالدة

لتكون أنت

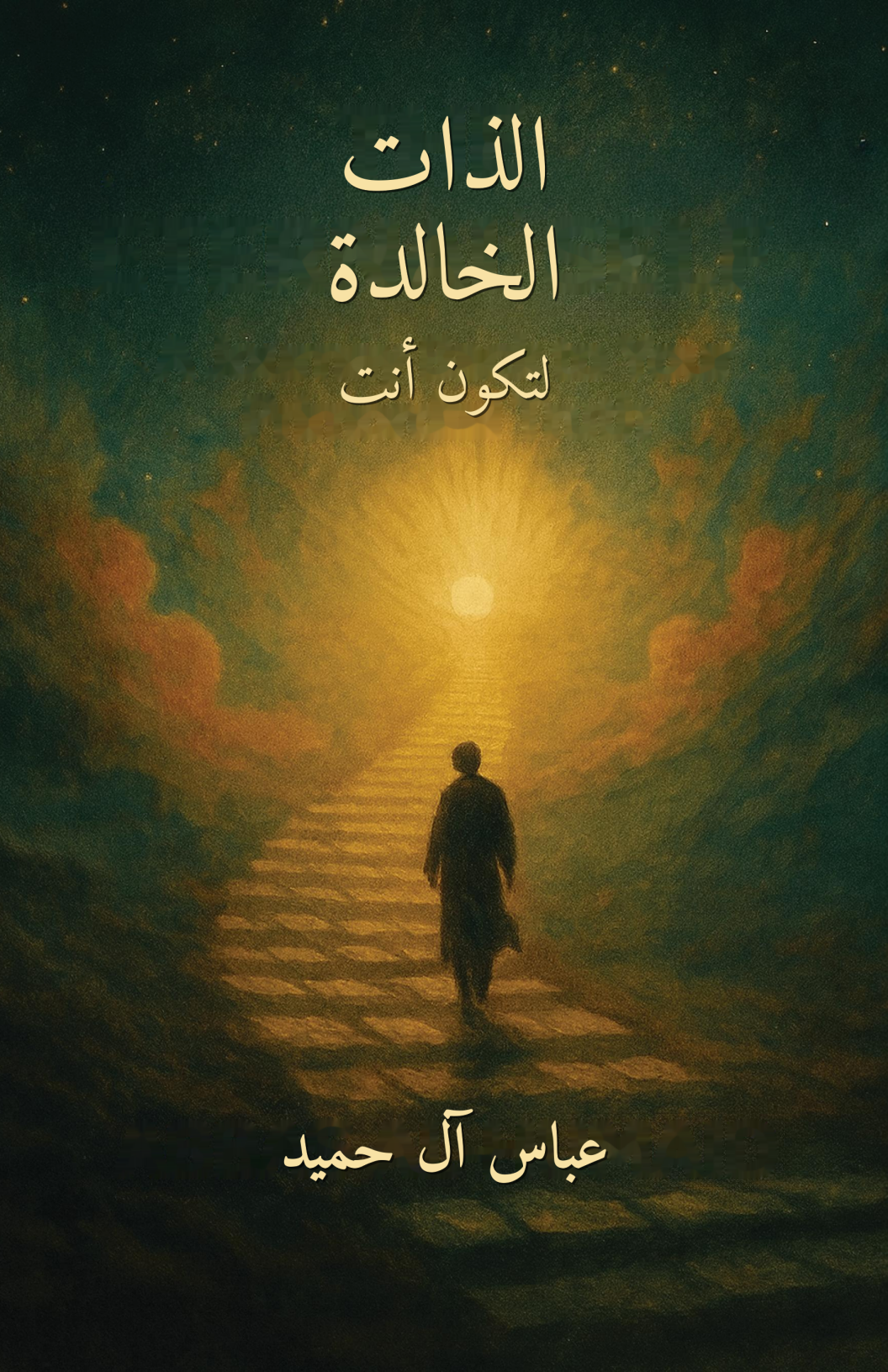

عباس آل حميد

الذات الخالدة

الذات الخالدة

لتكون أنت

تأليف

عباس آل حميد

الذات الخالدة

لتكون أنت

عباس آل حميد

© 2026 عباس آل حميد. جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز إعادة إنتاج أيّ جزء من هذا الكتاب، أو تخزينه في نظام استرجاع، أو نقله بأيّ شكل أو وسيلة — إلكترونية أو ميكانيكية أو تصويرية أو تسجيلية أو غير ذلك — دون إذنٍ خطّيّ مسبق من المؤلف، باستثناء الاقتباسات القصيرة لأغراض المراجعة أو البحث.

الطبعة الأولى، 2026

ردمك: 978-9-155-2-99992

المحتويات

المقدمة — استعادة المقام..... 3
الفصل الأول — أنت في الرحم الثاني..... 8
الفصل الثاني — الفريضة المغيبة..... 19
الفصل الثالث — أبعادك الأربعة..... 36
الفصل الرابع — سنن الوجود..... 50
الفصل الخامس — سنن الاحتكاك..... 72
الفصل السادس — صناعة الإرادة..... 102
الفصل السابع — حركة الجوهر..... 118
الفصل الثامن — المدد الإلهي..... 137
الخاتمة — العيش في الحضرة..... 150

المقدمة — استعادة المقام

✦

حين نتأمل — بتصديق كامل — إخبار رب العالمين بأنه جعل الإنسان خليفة له في الأرض دون الملائكة والجن وسائر المخلوقات، ندرك أننا أمام حقيقة أكبر بكثير مما اعتدنا أن نراه في أنفسنا:﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾.

ثم نستحضر دهشة الملائكة من هذا الاختيار العظيم، وتساؤلهم الذي يكشف ثقل المقام الذي منح للإنسان: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾.فهم — مع طهارتهم وقربهم — رأوا في هذا الكائن الجديد قابلية للفساد وسفك الدماء، ومع ذلك اختاره الله للخلافة. وكأن في الإنسان سرا أعظم مما يظهر، واستعدادا خفيا لم يكشف للوجود بعد.

ثم نقف عند اللحظة التي أمر الله فيها الملائكة جميعا بالسجود لآدم عليه السلام، بعد أن سواه ونفخ فيه من روحه:﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾.وهنا تبدأ صورة الإنسان في القرآن بالتشكل على نحو مهيب؛ فالإنسان ليس مجرد جسد من طين، بل كائن يحمل نفخة من روح الله، ويحمل معها قابلية للمعرفة،

والوعي، والإرادة، والتجاوز، والصعود. ثم يـأتي التكـريم بعـد ذلك في صورة أخرى: تسخير السماوات والأرض وما فيهمـا لخدمة هذا الإنسان:﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾.

لكن المشهد لا يكتمل إلا حين نستشعر ثقل الأمانة الـتي حملها الإنسان؛ الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال، وأبت حملها، بينما حملها الإنسان بكل مـا فيهـا من تبعات ومسؤولية:﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَـةَ عَلَى السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَـا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ**﴾.ثم تـأتي الغايـة النهائيـة لهـذا الطريـق كله، الغاية التي يكشفها الله في قوله:﴿**فِي مَقْعَـدِ صِـدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾.

حينها ندرك تماما أننا لسنا مخلوقات عادية، ولسنا مجرد كائنات تمتلك عقلا متطورا أكثر من غيرهـا، بـل نحن الكـائن الذي اختير للخلافة، وحمل الأمانة، وسخرت له المخلوقـات، وفتح لـه بـاب القـرب من اللـه. نحن نحمـل في داخلنـا من الإمكانات والمعـاني مـا لا نكـاد نـدرك منـه إلا القليـل. وقـد تجلى شــيء من ذلــك حين علم اللــه آدم مــا لم تعلمــه الملائكة، فوقفوا معترفين بحدود علمهم أمام ما أودعه اللــه في الإنسـان:﴿**سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَـا إِلَّا مَـا عَلَّمْتَنَـا إِنَّـكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾.

هذا — باختصار — هو الإنسان كما يقدمه القرآن.هذا هو أنت في كتاب الله.

الآن ضع الكتاب جانبا للحظة، واستحضر يومك بـالأمس. استيقظت متأخرا قليلا، فاحتسـيت قهوتـك على عجـل وأنت تتصفح البريد والرسائل. قدت سيارتك وسط زحـام الصـباح، بينما كان ذهنك يفتش في أجنـدة اليـوم قبـل أن يبـدأ اليـوم أصـلا. دخلت اجتمـاع التاسـعة وأنت لم تسـتفق بعـد تمامـا، وتنقلت بين الرسائل وبنـود الأعمـال والمكالمـات السـريعة، حتى صار يومك سلسلة متصـلة من الاسـتجابات المتلاحقـة. تناولت غداءك أمام شاشة، وحضرت اجتمـاعين آخـرين بعـد الظهر، ثم خرجت منهكا دون أن تعرف على وجه الدقـة أين ذهب كل ذلك الوقت. عدت إلى بيتك، وجلست سـاعة أمـام التلفاز أو الهاتف، قبل أن تنام استعدادا لتكرار اليـوم نفسـه غدا.

أين الخليفــة في كــل ذلــك؟ أين حامــل الأمانــة الــتي أشــفقت منهــا الجبــال؟ أين الإنســان الــذي ســخرت لــه السـماوات والأرض؟ وكيـف تحـول الكـائن الـذي خلـق لهـذا المقــام العظيم إلى شــخص يســتهلك أيامــه بين المهــام المتراكمة، والإشعارات، والجداول، والقلق الصامت الــذي لا ينتهي؟

هذه الفجوة — بين ما أعلنه الله لـك، ومـا تعيشـه فعليـا في يومك — هي الموضـوع الحقيقي لهـذا الكتـاب. وهي لم

تتسع صدفة، ولم تتشكل تلقائيا، بل وراءها هندسة خفية بدأت منذ اللحظة الأولى. منذ ذلك الوعد القديم الذي أطلقه إبليس قبل أن يهبط من الجنة: ﴿**لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾. ووفاء بهذا الوعد، لم يكن التزيين دائما في صورة المعصية المباشرة، بل كثيرا ما جاء في صورة "الحياة الطبيعية" نفسها؛ في صورة الجري الدائم، والانشغال المستمر، واللهاث الذي لا ينتهي. يوهمك أن الطمأنينة على بعد إنجاز آخر، أو ترقية أخرى، أو رقم أكبر، أو اعتراف أكثر. فإذا وصلت إلى ما كنت تظنه غاية، دفعك إلى ما بعدها، ثم إلى ما وراءها، حتى تتحول الحياة كلها إلى مطاردة مؤجلة لا تصل أبدا إلى نقطة الاكتفاء. ﴿**وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا**﴾.

ولم يعمل وحده. لقد وجدت هذه الغواية في عصرنا أرضا خصبة داخل منظومة اقتصادية وثقافية هائلة، بنيت على مركزية الإنتاج والربح والكفاءة[1]، حتى اختزل الإنسان تدريجيا إلى "منتج" و"مستهلك". ومع تضخم هذه المنظومة، لم يعد ينظر إلى الإنسان بوصفه روحا تحمل معنى، بل بوصفه وحدة أداء داخل ماكينة أكبر. ولهذا نبه البروفيسور إي. ف. شوماخر، في كتابه Small is Beautiful، إلى أن أزمة الحضارة الحديثة ليست أزمة اقتصادية في جوهرها، بل أزمة روحية؛ أزمة إنسان فقد

[1] هذا هو الأساس الذي قام عليه الاقتصاد الحديث منذ كتاب آدم سميث «ثروة الأمم» (1776).

علاقته بالمعنى، وصار يتعامل مع الطبيعة والحياة وكأنهما مادة للسيطرة والاستهلاك، لا نظاما إلهيا هو جزء منه.

وأنت — في الغالب — لم تختر هذه الخرائط الذهنية بنفسك، لكنها ألبست لك بهدوء حتى أصبحت تراها بديهية. ترتديها كل صباح دون أن تشعر، وتقيس بها نفسك ومن حولك: من الأكثر إنجازا؟ من الأكثر حضورا؟ من الأكثر نجاحا؟ ثم تبدأ — من حيث لا تدري — في تقييم ذاتك بالقيمة التي تمنحها لك المنظومة، لا بالقيمة التي أعلنها الله لك منذ البداية. وهذا، بالضبط، ما يحول بينك وبين استشعار المقام الذي خلقت له.

هذا الكتاب محاولة لصناعة خريطة مضادة. لن أعدك فيه برفع إنتاجيتك عشرين بالمئة، ولا بقائمة عادات تجعلك أكثر كفاءة، ولا بقوانين جذب تمنحك كل ما تشتهي. فهذه الطروحات — على اختلافها — تعالج السطح غالبا، بينما المشكلة الأعمق عند الإنسان المعاصر ليست مشكلة أداء، بل مشكلة رؤية؛ ليست مشكلة تنظيم وقت، بل مشكلة معنى؛ ليست أزمة أدوات، بل أزمة بوصلة.

ما أطرحه هنا هو رؤية استراتيجية للحياة نفسها. وكما أن المؤسسات الكبرى لا تبدأ بالتفاصيل التشغيلية قبل أن تحدد رؤيتها واتجاهها، فإن الإنسان أيضا يحتاج إلى بوصلة يعيد بها ترتيب أهدافه، لكن لا على ضوء معايير السوق وحدها، بل على ضوء أصله الأخروي ومقامه الحقيقي. يحتاج

إلى إطار متكامل يفهم بـه نفسـه، ويعيـد من خلالـه تعريـف النجاح، والأولوية، والسعي، والعلاقات، والعمل، حتى يتحرك في حياتـه اليوميـة وهـو يعـرف إلى أين يتجـه، ولمـاذا يتجـه أصلا.

ولعل من قرأ لي كتـاب «لا حـدود» يلتقي هنـا ببعض مـا عرفه هناك ـ الأبعـاد الأربعـة، والصـدق الـذاتي، والسـير إلى الله. غير أن الكتابين يختلفان في وجهتهمـا اختلاف الأسـاس عن البناء. كان «لا حدود» دليلا عمليـا للتطـبيق، يأخـذ بيـدك خطوة خطوة بالتمارين والممارسات. أما «الـذات الخالـدة» فيمضي إلى الجذور التي تقوم عليها تلـك الممارسـة: لمـاذا أنت كما أنت، وما حقيقة هذه الأبعاد، وكيف تبنى الصفة في كيانك حتى تصير ذاتـا خالـدة. هـذا الكتـاب يؤسـس الرؤيـة، وذاك يترجمها إلى سلوك. فإن وجـدت هنـا مفهومـا تعرفـه، فلن تجده مكررا، بل ستراه من عمق جديـد ـ كمن عـاد إلى بيت يعرفه فدخله هذه المرة من بابه الأصلي.

وقبل أن نبدأ الرحلة، دعـني أوضـح مـا أتعهـد بـه ومـا لا أتعهد به. لن أعدك بأن يتغير واقعك الخارجي بعد قراءة هذا الكتاب؛ فقد تتغير ظروفك، وقد تبقى كمـا هي، فـذلك ليس بيدك ولا بيدي وحـدنا. لكنـني أعـدك بشـيء آخـر أعمـق من الظروف: أعدك بأن تتغير زاويـة نظـرك، وأن تتسـع رؤيتـك، وأن تجد إجابات لأسئلة ربما حملتها داخلـك سـنوات دون أن تملك لها صـياغة واضـحة. أعـدك أنـك حين تطـوي الصـفحة

الأخيرة ستعرف نفسك أكثر، وستعرف ربك أكثر، وستفهم لماذا تشعر أحيانا بكل هذا التيه رغم أن حياتك تبدو "طبيعية". أعدك بنفس أكثر طمأنينة، لا لأن الحياة ستكف عن اختبارك، بل لأنك ستفهم لماذا تواجهك، وكيف تثبت حين تهتز الأشياء من حولك.

تنتظم الرحلة في هذا الكتاب في ثمانية فصول مترابطة، يتلو بعضها بعضا كحلقات في سلسلة واحدة. في الفصل الأول نعيد ضبط البوصلة على الأصل الأخروي للإنسان، فنطرح السؤالين الأكثر جوهرية: من أين جئت؟ وإلى أين أنت ذاهب؟ وفي الثاني نتناول تطوير الذات بوصفه فريضة مغيبة، لا ترفا اختياريا. ثم ندخل في الثالث إلى أبعاد الإنسان الأربعة ـ الروح، والقلب، والعقل، والجسد ـ لنفهم متى يستقيم الإنسان داخليا، ومتى ينقسم على نفسه. ثم ننتقل إلى سنن الوجود في الفصل الرابع، فنسأل: لماذا كان القدر والعلية ونظام الأضداد جزءا من تصميم الحياة لا خللا فيها؟ وفي الخامس نتأمل سنن الاحتكاك، ونرى كيف يكون الألم والابتلاء إزميل نحت لا عقوبة. ثم نصل في السادس إلى صناعة الإرادة، حيث يختار الإنسان من يكون بإرادته وصدقه. وفي السابع نتناول حركة الجوهر، فنرى كيف تتحول المعرفة إلى كيان يصدر عنه الخير طبعا. وأخيرا، نصل في الثامن إلى المدد الإلهي: الخريطة التي أنزلها الله في الوحي، والمعية التي يرافق بها السائرين إليه.

والكتـاب يقـرأ على مهـل، يرافقـك أسـابيع لا أيامـا. خـذ الفصل الواحد على دفعات، وقف عنـد وقفـات التأمـل الـتي تختم الفصول، واصدق نفسك في الإجابـة عن أسـئلتها قبـل أن تنتقل، وأعد لنفسك دفترا تسجل فيـه مـا يسـتوقفك من الأفكار وما تنوي العمل بـه في يومـك. حين تصـادفك فقـرة تخاطبك بشكل خاص، عد إليها مرتين أو ثلاثا. ولـو وفقت أن تقرأه مع شخص تثق به — أخ أو زوج أو صديق — يفتح لـك الحوار آفاقا قد تفلت منك وحدك.

بقي سؤال أخير قبـل أن نبـدأ: إن كنت بهـذا المقـام في كتـاب اللـه، فلمـاذا تشـعر بهـذه الضـآلة في يومـك؟ بهـذا السؤال نفتتح الفصل الأول.

* * *

الفصل الأول — أنت في الرحم الثاني

✦

قــرأت في المقدمــة من أنت في كتــاب اللــه: خليفــة سخرت له السماوات، وحامل أمانة رفضتها الجبال، وموعود بمقعد صدق عند مليك مقتدر. ثم نظرت إلى يومك بالأمس، فلم تر من هذا المقام شيئا؛ قهـوة على عجـل، واجتماعـات متلاحقة، ومساء يذوب أمام شاشـة أو تلفـاز. فتسـاءلت في داخلك: أين اختفى كل ذلك المعنى؟ وأين الخلل؟

الخلل ليس فيك، بل في تصورك للموضع الذي أنت فيه. فالدنيا الـتي تظنهـا وطنـك النهـائي، ليسـت في حقيقتهـا إلا ورشة تكوين. والسبب الذي يجعلك تشعر فيها بهذا الضــيق، رغم كل ما فيها من سعة ومتع وفرص، أن روحـك لم تخلـق لتستقر هنا، بـل لتعـبر من هنـا. إنهـا أوسـع من هـذا العـالم، ولذلك تبقى، مهما اتسعت لك الدنيا، تشعر في أعماقك بـأن شيئا ما لم يكتمل بعد.

ولأن الفكرة، حين تقال بهذه الصورة المجردة، قـد تبـدو بعيدة عن الإدراك المباشر، فإننا نحتاج إلى صورة أقرب إلى الفطـرة الإنسـانية؛ صـورة يفهمهـا كـل إنسـان دون عنـاء: استعارة الجنين في رحم أمه.

استعارة الجنين: الرحم الأول والرحم الثاني

تأمل الجنين وهـو في رحم أمـه: كـائن صـغير يعيش في مساحة لا تتجـاوز بضـعة سـنتيمترات، في ظلام تـام، يتنفس عبر الحبل السري، ويتغذى ممـا يصـله من جسـد أمـه. تلـك هي دنيـاه الكاملـة. ولـو افترضـنا أنـه قـادر على التفكـير، لاستنتج بثقة مطلقة أن الرحم هو كل شيء، وأن الجدار هـو حد الكون، وأن الظلام طبيعة الوجود، وأن هـذا السـائل هـو الشكل الوحيد الممكن للحياة. ولو حـاول أحـد أن يخـبره أن خارج هذا الرحم عالما آخـر؛ فيـه شـمس تضـيء، وألـوان لا تحصى، وأصوات، وأنفاس، ووجوه، ودفء يد تحتضـنه، لظن أنه يحدثه عن شيء مستحيل.

لكن الحقيقة أن كل مـا ينمـو في الجـنين داخـل الـرحم، إنما ينمو استعدادا لعالم خارجه. فعيناه اللتان لا تريـان شـيئا الآن، خلقتا لنور الشمس. ورئتاه اللتان لا تستنشـقان هـواء، خلقتا للهواء. ويداه اللتان لا تمسكان شـيئا، خلقتـا لتمسـكا. الرحم، في حقيقته، ليس بيتا، بـل محطـة تكـوين. والجـنين، في كل لحظة يقضيها هناك، يجهز لعالم يجهلـه تمامـا، لكنـه قادم إليه لا محالة.

وهذا، حرفيا، حالك أنت.

أنت الآن في رحم ثان. الـرحم الأول صـنع جسـدك، أمـا هذا الرحم فيصنع نفسك. وقد يخادعك ظاهر الدنيا فتحسـبها

وطنا نهائيا يتسع لما فيك، لكنها أضيق من ذلك بكثير. تأمل في حجمها الحقيقي للحظة: هذه الأرض التي تدور حولها حياتك كلها، ليست سوى كوكب صغير يدور حول نجم متوسط الحجم، في ذراع من أذرع مجرة درب التبانة. وهذه المجرة وحدها تضم ما يقارب مئتي مليار نجم، كثير منها أكبر من شمسنا بمراحل. ثم إن العلماء يقدرون عدد المجرات في الكون المرئي بأكثر من تريليونين. ومع ذلك، فالكون المرئي نفسه لا يمثل، في تقدير علماء الكونيات، إلا جزءا ضئيلا مما هو موجود. أنت الآن، بكل ما تحمله من هموم وأحلام وحياة كاملة، في زاوية من غرفة، في طابق من قصر لا حدود له.

ثم اقرأ قول الله عن جنة واحدة من جنات الآخرة: ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٣]

تأمل التعبير جيدا: عرضها السماوات والأرض. أي إن هذا الكون كله، بمجراته التريليونية ونجومه التي لا تحصى، ليس إلا جزءا من جنة واحدة، لا كلها. فإذا كان هذا عرضها، فكيف بطولها؟ وكيف بما وراءها من جنات أخرى؟ عندها تدرك أن الأرض ومن عليها ليست إلا بيئة إعداد وتكوين، وأن الروح التي فيك، تلك النفخة الإلهية، لم تخلق لتستقر هنا، بل لتنضج هنا، ثم تعبر إلى موطنها الحقيقي: ﴿**وَمَا هَذِهِ**

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْـوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ الـدَّارَ الْآخِـرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]

توقـف عنـد كلمـة «الحيـوان» في الآيـة؛ فهي صـيغة المبالغة من الحياة. وكأن القرآن يقول لك: لا تخدعك حركـة هذه الحياة وصخبها؛ فالحياة الحقيقية لم تبدأ بعـد. أمـا هـذه التي تعدها حياة، فليست إلا مرحلة مؤقتـة، أقـرب إلى لعب عابر داخل رحم كبير.

وقـد عـبر أمـير المؤمـنين علي بن أبي طـالب (عليـه السلام) عن هذا المعـنى نفسـه بكلمـة جامعـة، حين وصـف الدنيا فقال: «الدنيا دارُ مَمَرٍّ، لا دارُ مَقَرّ»[2]. فهي معبر تصـاغ فيـه النفس، لا مسـتقر تطلب فيـه الإقامـة. ومن رآهـا على حقيقتها هذه، لم يطلب منها مـا ليس فيهـا، ولم يحـزن على عابر لم يكن له أن يدوم.

ولأن الجـنين لا يعلم بالعـالم الخـارجي، فهـو لا يفهم لم تتشكل أعضاؤه أصلا. أما أنت، فقد أخبرت. أخبرت أنـك في طور التكوين، وأن ثمـة مـنزلا تهيـأ لـه، وأريت بعض صـفات أهله، وبعض شروط الدخول إليه. وهنـا يفـترق مسـارك عن مسار الجنين: هو يتكـون دون أن يـدري، وأنت تتكـون وأنت تدري. هو لا اختيار له فيما سيكون، أما أنت فلك دور مباشر في تشـكيل مـا سـتكون عليـه: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَـا سَـوَّاهَا** ۝

[2] نهج البلاغـة، من قصـار الحكم (الحكمـة ١٣٣ في تـرتيب الشـريف الرضي). يضبط رقمها ونصها من طبعة معتمدة عند الإخراج النهائي.

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾. [الشمس: ٧-١٠]

أعضاؤك الجسدية اكتملت في الرحم الأول دون أي جهد منك، أما أعضاؤك الروحية فلا تكتمل في هذا الرحم إلا بسعيك أنت. الصبر، والصدق، والكرم، والحياء، والشكر، والرضا، والإحسان، والقرب من الله... هذه هي أعضاؤك الحقيقية التي تبنى هنا. وستخرج بها ـ أو بضعفها، أو بغيابها ـ إلى الحياة الحقيقية. والوقت في هذه الورشة محدود، ولحظة الولادة قادمة لا محالة، سواء أكنت مستعدا لها أم لم تكن.

لماذا لا يكفيك هذا العالم؟

لم، حين تبلغ ما كنت تظنه غاية، ينطفئ فيك الحماس سريعا ويعود الفراغ؟ لم لا يشبعك المال بعد بلوغه، ولا المنصب بعد التمكن منه، ولا الإنجاز بعد تحققه؟ لم تبدو أجمل لحظاتك ناقصة على نحو غامض، كأنها تتوقف قبل أن تكتمل؟ ولم يعود إليك، مهما امتلأت يدك، ذلك الإحساس الخفي بأن في داخلك مساحة لا يصل إليها شيء مما تملك؟[3]

[3] تعرف هذه الظاهرة في علم اقتصاد السعادة بـ«مفارقة الدخل والسعادة» التي طرحها ريتشارد إيسترلين سنة ١٩٧٤، ومفادها أن الأكثر دخلا داخل المجتمع أكثر رضا في لحظة بعينها، لكن المجتمعات حين يرتفع دخلها على المدى الطويل لا يرتفع مستوى رضاها معه بالقدر نفسه. وهي محل نقاش بين الباحثين، تذكر هنا للتشخيص لا للاستدلال.

الجواب، في أبسط صوره، أن ما في داخلك أوسع مما حولك.

أوسع، لا لأنك أعظم من العالم، بل لأنك خلقت لما هو أعظم من هذا العالم. فالروح التي فيك، أعني تلك النفخة الإلهية، صادرة عن معنى لا نهائي، ولذلك لا يمكن لها أن تكتفي بعالم محدود. كيف لروح يحمل جوهرها أثر الأبدية أن ترضى بزمن قصير؟ وكيف لوجود خلق على معنى البقاء أن يجد اكتماله في عالم يفنى فيه كل شيء؟ ليست المشكلة أن الدنيا ناقصة أو معيبة؛ فالدنيا تؤدي وظيفتها على أحسن وجه: تسعد الجسد، وتحرك العاطفة، وتشغل العقل، وتفتح للإنسان أبواب التجربة والسعي والاكتشاف. لكنها، مع ذلك، لا تملك أن تعطي روحك ما تطلبه، لأن ما تطلبه روحك ليس من جنسها أصلا.

تخيل أنك وضعت سمكة في كأس من الماء بدل المحيط. الكأس صالح للحياة، والماء موجود، والسمكة قادرة على التنفس، والحرارة مناسبة. ومع ذلك، تبقى هناك حقيقة لا تختفي: هذا ليس موطنها. ليس لأن الكأس معيب، بل لأن السمكة أوسع من سعته. وهذا، تحديدا، ما يفعله العالم بروحك. إنه يمنحك ما تحتاجه للبقاء، لكنه لا يملك أن يمنحك ما تحتاجه للاكتمال.

انظر: R. A. Easterlin et al., “The Happiness–Income Paradox Revisited,” PNAS, 2010.

ولذلك لن تجد في الدنيا فرحا مكتملا، كما لن تجـد فيهـا حزنا مكتملا. الفرح يتسرب مهما اشتد، والحزن يخـف مهمـا أثقـل، والجـرح يلـتئم مهمـا ظننت أنـه لن يلـتئم. ليس لأنـك قوي دائما، بل لأن الدنيا مصممة ألا تمنح الكمال في شـيء. فلو منحتك السـعادة الكاملـة، لاسـتقررت فيهـا ونسـيت مـا بعدها، ولو منحتك الألم الكامـل، لانكسـرت قبـل أن تتكـون. وهذا أيضا جزء من الحكمة؛ دليـل آخـر على أن السـمكة لم تخلق للكأس.

ومن هنا تفهم شيئا مهما في حركة الناس داخل الحيـاة: حين تـراهم يطـاردون المـال، أو المنصـب، أو الشـهرة، أو المتعة، فهم في حقيقتهم لا يبحثون عن هذه الأشـياء لـذاتها، بل يبحثون عما يظنون أنها سـتحمله لهم: السـكينة. يظنـون أن الطمأنينة تسـكن هنـاك. ثم يصـلون، فيكتشـفون أنهـا لم تكن هناك أصلا. فيظنون أن المشكلة في الكم، فيضاعفون. ثم يظنون أن المشـكلة في النـوع، فيغـيرون. ثم يظنـون أن المشـكلة في الشـريك، أو المدينـة، أو الوظيفـة، أو نمـط الحيـاة، فيبـدلون من جديـد. وقليلا مـا يخطـر لأحـدهم أن المشكلة ليست في التفاصيل، بل في الموضع كلـه: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**﴾ [طه: ١٢٤]

تأمـل الآيـة جيـدا. لم يقـل اللـه: "فـإن لـه فقـرا"، ولا "مرضـا"، ولا "فشـلا". قـال: ﴿**مَعِيشَـةً ضَـنْكًا**﴾. والضـنك ليس نقص الأسباب، بل ضيق النفس رغم وفرتها؛ أن تملـك

كل شيء في ظاهر حياتك، ثم تشعر في داخلك بالاختناق. وهذا، بالضبط، ما يعانيه كثير من الناجحين في عرف الدنيا: لا ينقصهم شيء في أيديهم، لكنهم يشعرون أن كل شيء ينقصهم في صدورهم.

وفي المقابل، يقول الله عن المتصل به: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٨]

لاحظ الحصر القاطع في الآية: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ**﴾. وكأن القرآن يقطع الطريق على كل بديل محتمل، ويقول للإنسان بوضوح: لن تجد ما تبحث عنه في غير هذا الطريق. والذكر هنا ليس مجرد ألفاظ تقال باللسان، بل حالة اتصال؛ اتصال بالمصدر الذي جاءت منه روحك أصلا، بالسعة المطلقة التي وحدها تروي روحا خلقت من سعة.

أنت لست هنا لتجد الراحة الكاملة، بل لتكتشف الطريق إليها. ولست هنا لتملأ الفراغ بأي شيء، بل لتفهم من أين يأتي الامتلاء الحقيقي. كما أنك لم تخلق لتعيش حياة مكتملة في هذا العالم، بل لتدرك أنك خلقت لحياة أخرى يكتمل فيها معنى وجودك. وكلما أطلت البحث عن اكتمالك في الدنيا، طال شعورك بالتيه فيها؛ لأن الروح لا تشبع بالمتاع وحده، بل بالمعنى. ولا تمتلئ بالامتلاك وحده، بل بالاتصال. ولا تستريح بالأشياء وحدها، بل باليقين: ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [الحديد: ٢٠]

وتأمل كلمة ﴿**الْغُرُورِ**﴾ في الآيـة. فـالغرور ليس الكـذب المباشر؛ الكذب أن يقال لك مـا ليس صـحيحا. أمـا الغـرور، فهو أن يعرض عليك شيء صـحيح في ذاتـه، لكن يصـور لـك على أنه أكثر مما هو عليـه. الـدنيا متـاع، وهـذا صـحيح. لكن الوهم يبدأ حين تظن أنها متاع يكفيك، أو متاع يدوم، أو متاع هو الغاية لا الوسيلة. ليست المشكلة في أن تستمتع بالدنيا، بل في أن تصدق أن متعتها هي موطنك الأخير.

ولذلك، فكل ما تشعر به من نقص ليس نقصا فيـك، بـل في الإطار الذي تعيش فيه. وكل ما تشعر به من ضيق ليس ضـعفا في طاقتـك، بـل ضـيقا في عـالم لم يخلـق ليكـون موطنك النهائي. وما تبحث عنه هنا ولم تجـده ليس مفقـودا، بل مؤجل إلى العالم الذي خلقت من أجله.

إذن، ما الذي تفعله هنا؟

سؤال منطقي يفرض نفسـه: إذا لم تكن الـدنيا موطنـك الحقيقي، فلماذا أنت فيها أصلا؟ لمـاذا هـذا المـرور الطويـل بعالم مؤقت، مليء بالتجارب المتقلبـة، والتحـديات الثقيلـة، والخسارات التي لا تفهم وجه الحكمـة فيهـا؟ ولمـاذا لا يولـد الإنسان مباشرة في ذلك العالم الأوسع الذي ينتمي إليه؟

الجواب ليس في شكل الدنيا، بل في شكلك أنت.

أنت لم تكتمل بعـد. وكمـا أن الجـنين لا يسـتطيع الحيـاة خارج رحمه قبل اكتمـال أعضـائه، لا تسـتطيع الـروح دخـول

العـالم الآخـر قبـل اكتمـال «أعضـائها». لكن الأعضـاء الـتي تنقصك هنا ليست أعضاء جسدية، بل معان داخليـة: الصـبر، والبصيرة، والصدق، والثبـات، والإخلاص، والرحمـة، والقـرب من الله. وهذه الأشياء لا تبنى بالتمني، ولا تمنح جاهزة دفعة واحدة، بـل تسـتخرج من أعماقـك عـبر الاحتكـاك، والخيـار، والمجاهدة، ومغالبة النفس، والقدرة على الوقوف كـل مـرة بعد السقوط. ولهذا كـان لا بـد من ميـدان. والـدنيا هي ذلـك الميدان: ﴿**الَّـذِي خَلَـقَ الْمَـوْتَ وَالْحَيَـاةَ لِيَبْلُـوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ [الملك: ٢]

تأمـل كيـف تجمـع الآيـة بين المـوت والحيـاة، وكأنهمـا قطبـان في نظـام واحـد من الأضـداد الـتي قـام عليهـا هـذا الكون: النور والظلمة، النقص والكمال، الفرح والألم، القـوة والضعف، العطاء والحرمان. وهـذه الأضـداد ليسـت خللا في تصميم العالم، بـل جـزء من وظيفتـه. فالضـد يـدفع نقيضـه، ومن احتكاكهما يتولد الزخم والحركة. وهذا الزخم هـو الـذي يستحث كدح الإنسان، ويخرجه ممـا هـو عليـه إلى مـا يمكن أن يكونه. ولو خلت الحياة من الأضداد، لركدت. ولو ركـدت، لتوقف فيك التكوين.

وتأمل فعل ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ**﴾. فـالبلاء، في أصـل اللغـة، ليس اختبارا عبثيا، بل كشف لما هو موجود أصلا. تبلو الشيء، أي تكشـف جـوهره حين يوضـع تحت الضـغط. واللـه لا يبلـوك ليعلم؛ فهو العليم قبل كل شيء. لكنـه يبلـوك لتعلم أنت مـا

الذي يسكنك حقا. ماذا فعل احتكاكك بالحياة في داخلك؟ ما الذي صمد؟ وما الذي تهاوى؟ ما الذي كان حقيقة فيك، ومـا الذي كان مجرد وهم عن نفسك؟

وهذا ما عاشه الصحابة رضوان اللـه عليهم حين وضـعوا تحت أقسـى الضـغط. جـاء خبـاب بن الأرت ومن معـه من المستضعفين إلى النبي (صلى الله عليه وآلـه) وهـو متوسـد بردة لـه في ظـل الكعبـة، يشـكون مـا يلقـون من العـذاب، فقالوا: ألا تستنصر لنا؟ فحدثهم عمن قبلهم ممن كان يحفـر له في الأرض فيجعل فيهـا، ثم يـؤتى بالمنشـار فيوضـع على رأسه فيشق نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمـه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه[4]. لم يكن العـذاب في ذلـك كله عبثا يراد به إهلاكهم، بل ضغطا أظهر معدن النفس التي بنيت في الخفاء، فثبتت حين تهاوى سواها.

ثم تأمـل آخـر الآيـة: ﴿**أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾، لا «أكـثر عملا». فالمعيار في ميزان الله ليس الكم وحده، بل الجودة: صـدق النية، ونقاء الدافع، وثبـات القلب، واختيـار مـا يليـق بروحـك حين تقف بين خيارين. وفي هذا، تكـاد الآيـة تختصـر تصـميم الدنيا كله: عالم من الأضداد يستحث الكدح، والكدح يكشـف حقيقة الإنسان، وحقيقة الإنسان هي ما سيخرج به من هـذه الورشة.

---

[4] رواه البخـاري في صـحيحه، كتـاب المنـاقب، حـديث رقم ٦٩٤٣. يضبط رقمه ولفظه من طبعة معتمدة عند الإخراج النهائي.

﴿يَـا أَيُّهَـا الْإِنسَـانُ إِنَّـكَ كَـادِحٌ إِلَىٰ رَبِّـكَ كَـدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] توقف عند كلمة: ﴿كَادِحٌ﴾. كلمة ثقيلة، لأن الكدح ليس مجرد سعي عابر، بل سعي مجهد يترك أثره على صاحبه. والقرآن لا يقول إنك «مارٌّ» إلى ربك، بل يقول إنك «كادحٌ» إليه. كل خطوة تدفعها بمشقة، وكل مقاومة تقدمها لهواك، وكل صبر تتحمله، وكل اختيار تجبر نفسك عليه، ينحت فيك شيئا. لا حركة بلا أثر. إما أن تبني في نفسك معنى، أو تهدم فيها معنى.

ولهذا، فمهمتك الحقيقية في هذا العالم ليست كما تظن. ليست جمع المال، ولا تحصيل المكانة، ولا مراكمة الإنجازات التي تصفق لها الجماهير. هذه الأشياء قد تحدث في طريقك، لكنها ليست الطريق نفسه. الطريق أعمق من ذلك كله: أن تتكون. أن تخرج من هذه الورشة وأنت إنسان غير الذي دخلها؛ أزكى نفسا، وأوسع صدرا، وأصدق قلبا، وأقرب إلى الله. هذه هي «الذات الخالدة». لا تورث، ولا تشترى، ولا تمنح جاهزة لأحد. إنها تصنع. وأنت، في النهاية، صانعها.

تأمل يومك بالأمس مرة أخرى. الاجتماع الذي خرجت منه مهموما، هل كشف فيك صبرا أم عجزا؟ الكلمة التي قيلت لك أمام الناس، هل وجدت في نفسك حلما أم هشاشة؟ المكالمة القصيرة مع والديك، هل بنيت فيها برا أم أجلته إلى وقت آخر؟ هذه الأحداث التي تبدو، في ظاهرها،

تفاصيل عابرة، ليست عابرة في الحقيقة. كل واحدة منها كانت سؤالا موجها إليك: ماذا أضافت إلى النفس التي ستخرج بها من هذه الدنيا؟ وماذا انتزعت منها؟

فالنفس التي ستقف بها بين يدي الله ليست النفس التي ولدت بها. لقد ولدت بفطرة، لكنك ستلقى الله بنفس صنعتها أنت من تلك الفطرة. ومن هنا تفهم أن الدنيا ليست عقوبة ألقيت فيها، ولا عقبة وضعت في طريقك إلى الجنة، بل هي المكان الوحيد الذي تصنع فيه النفس التي ستدخل الجنة... أو تحرم منها. وكل من دخل الجنة، إنما دخلها بما بناه في نفسه هنا، لا بما اشتهى أن يكونه يوما.

ولهذا، فإن الأسئلة الجوهرية في حياة الإنسان لا تختلف كثيرا من شخص إلى آخر: ما الصفات التي ينبغي أن أبنيها؟ ما الوعي الذي علي أن أكتسبه؟ ما المعاني التي أريد أن أعيش لها؟ ومن هو «الأنا» الذي سيحمل وجهي يوم ألقى الله؟ هذه ليست تأملات عابرة لساعات الفراغ، بل الأسئلة الاستراتيجية الكبرى لمشروع حياتك كله. من يعيش دونها يدير أيامه بلا وجهة، أما من يعيش بها، فإنه يدير عمره كله على بصيرة.

الزمن: مادتك الخام

إذا كانت الدنيا ورشة تكوينك، فإن الزمن هو مادتها الخام. ليس مجرد ثوان تتساقط من عمرك، بل لحظات

يتشكل فيها ما ستكون عليه. فالزمن في الـرحم الأول صـنع جسدك، والزمن في هذا الـرحم الثـاني يصـنع نفسـك. وكـل يـوم يمضـي عليـك، خفيفـا كـان أو ثقيلا، ليس حـدثا عـابرا يختفي بانتهائه، بل خطوة أخرى في بناء النفس التي ستقف بها يوما بين يدي الله.

لكن الإنسان، حين ينسى موطنه الحقيقي، يقـع في وهم عميـق يحكم علاقتـه بـالزمن كلهـا: يظن أن الـزمن يعمـل ضده. يرى السنوات وهي تمضي، فيشـعر أنهـا تسـلبه شـيئا منه، وأن التقدم في السـن خسـارة صـامتة، وأن مـا يمـر لا يعود أبدا. ينظر إلى المرآة كل عام بشيء من الخوف، وإلى التقويم بشيء من التوجس، وكأن الزمن خصـم يطـارده، أو سباق يخشى أن يخسره. وهذا، في حقيقته، وهم.

فالزمن لا يعمل ضدك، بل يعمل من خلالك. ليس عـدوا، بل أداة. وليس خصما، بل مدرسة. كل لحظة تمنحك فرصـة جديدة لتشكيل ذاتك، وكل تجربة توسـع رؤيتـك، وكـل جـرح يفتح في داخلـك بابـا إلى عمـق مـا كنت لتعرفـه لـولا الألم، وكل نعمة تكشف لـك بعـدا جديـدا من نفسـك. ومـا يمضـي منك لا يضيع، بل يترسـب في وعيـك، ويتحـول إلى جـزء من نضجك. ومـا تتجـاوزه لا يختفي، بـل يبقى داخلـك على هيئـة خبرة، أو بصيرة، أو قوة أكثر هدوءا وعمقا.

ولهذا أقسم الله بالعصر، أي بالزمن نفسه: ﴿**وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَـانَ لَفِي خُسْـرٍ ۝ إِلَّا الَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا**

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]

ثلاث آيات قصيرة، لكنها تكاد تختصر فلسفة الزمن كلها. اللـه يقسـم بالعصـر أن الإنسـان في خسـر دائم؛ خسـر لا استثناء فيـه من حيث الأصـل. لمـاذا؟ لأن الـزمن، بطبيعتـه، يستنفد. كل لحظة تمضي تخصم من رصيدك المحـدود. هـذا هو القانون الأول للحياة الدنيا. أما الاستثناء الوحيد من هـذه الخسارة الحتمية، فهـو أن تحـول هـذا الاسـتنزاف إلى بنـاء: بالإيمـان، والعمـل الصـالح، والتواصـي بـالحق، والتواصـي بالصبر. من قضـى زمنـه في هـذه المعـاني، حـول خسـارته الزمنية إلى ربح أبدي. أما من استهلك عمره في غيرها، فإن الزمن يأخذ منه باستمرار دون أن يضيف إليه شيئا حقيقيا.

وإذا أردت ميزانا أكثر دقة لقيمة الزمن، فضع عمرك كله بجوار الأبد. الرياضيات نفسـها تخـبرك بحقيقـة صـادمة: كـل عدد محدود، مهما بـدا كبـيرا، يـؤول إلى الصـفر حين يقـاس باللانهايـة. خمسـون عامـا، أو ثمـانون، أو حـتى ألـف عـام... النتيجة واحدة. وهذا المعنى نفسه صوره القرآن على لسـان أهل الآخرة: ﴿**قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِـنِينَ ۝ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ۝ قَـالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [المؤمنـون: ١١٢-١١٤]

سـنوات عمـرك الـتي تبـدو لـك الآن طويلـة وممتـدة، ستنكمش بعـد المـوت إلى «يـوم أو بعض يـوم». لا لأنهـا لم تكن موجودة، بل لأنهـا قصـيرة فعلا حين تقـاس بالأبـد. لقـد بـدت طويلـة فقـط لأنـك كنت داخلهـا. أمـا حين تخـرج منهـا وتنظر إليها من الخـارج، فسـتراها كمـا هي: مرحلـة عـابرة. ولهـذا كـان مـيزان سـورة العصـر ميزانـا حاسـما لا مجازيـا؛ فالوقت الذي تضيعه، أنت لا تضـيعه من رصـيد لا ينتهي، بـل من رصيد قصير أصلا.

ولهـذا، تأمــل يومــك جيــدا. كم ســاعة أنفقتهــا في مــا يســتنزفك دون أن يبنيــك: التشــتت، وتصــفح الشاشــات بلا وعي، واجـترار الهم، والجـدل العقيم، والقلـق الـذي لا ينتج شيئا؟ وكم ساعة أنفقتها في ما يضيف إليـك حقـا؟ السـؤال قاس، لكنـه سـؤال قـرآني، لأن القـرآن يتعامـل مـع الـزمن بوصفه أثمن مادة بين يديك.

لكن الكــدح، في فهم القــرآن، لا ينحصــر في عبــادة مفروضة أو ذكر في خلوة. كل حركة إيجابية في حياتــك، إذا وضعت في موضـعها الصـحيح من خارطتـك الوجوديـة، فهي كـدح إلى اللـه. عملـك المهـني، وقراءتـك، وتعلمـك، وكلمـة تخفـف بهـا هم إنسـان، وصـلة رحم، وتأمـل في خلـق اللـه، واكتساب مهارة جديدة، بل حتى نومك وراحتك إن اسـتعدت بهما طاقتك للعودة إلى الميدان... كل ذلك يمكن أن يتحـول

إلى كـدح: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَـا آتَـاكَ اللَّـهُ الـدَّارَ الْآخِـرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ [القصص: ٧٧]

تأمــل تــوازن الآيــة: فهي لا تفصــل بين الــدار الآخــرة ونصـيبك من الـدنيا، بـل تجمعهمـا داخـل حركـة واحـدة. ثم تتبعهما مباشرة بقوله تعالى: ﴿**وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَـنَ اللَّـهُ إِلَيْكَ**﴾. وكـأن القـرآن يعيـد تـرتيب الصـورة كلهـا: الآخـرة، والدنيا، والإحسان، ليسـت ثلاثـة طـرق متعارضـة، بـل أبعـاد مختلفة لحركة واحدة إذا استقام اتجاهها.

ولهذا، فالمعيار الحقيقي ليس نوع النشاط الـذي تفعلـه، بل موضعه داخل خريطتك. من جعل لقـاء اللـه غايتـه، صـار سـعيه إلى الـرزق عبـادة، وعلمـه قربـة، وراحتـه اسـتعدادا، وعلاقاته بابا للنضج والإحسان. أما من جعل الدنيا غايته، فقد يتحول حتى ذكره إلى عادة، وصـلاته إلى روتين، وزكاتـه إلى حساب بارد. فالقلب هو الذي يحـدد اتجـاه الحركـة، والعمـل يتبع القلب.

ولهذا، فإن السؤال الحقيقي في نهاية يومك ليس فقط: «كم ذكرت الله؟»، بل أيضـا: «كم لحظـة في يـومي كـانت في الخريطة الصحيحة؟». فقد تكون ساعة في عملـك بنيـة الإحسان أثقل في الميزان من ساعة عبادة شارد فيها قلبك. وقد تكون جلسة هادئة مع أهلك، تستعيد بهـا روحـك وتـرمم بها إنسانيتك، خيرا من خلوة يستهلك فيها الإنسان نفسه في اجترار همومه.

فالزمن، في النهاية، هـو مادتـك الخـام. وأنت تنحت بـه، كل يوم، شكل النفس التي ستصبحها.

في الختام

بدأنا هذا الفصل بسؤال تركته المقدمة مفتوحا: إذا كانت لك في كتاب الله تلك المكانة العظيمة الـتي رأيتهـا، فلمـاذا تشعر في يومك بهذا القدر من الضآلة والتشـتت والاختنـاق؟ والآن، بعد أن قطعنا هذا الطريق معا، تتضح الإجابة بهدوء.

أنت لست في وطنك النهائي.

أنت في رحم ثـان؛ أوسـع من الأول بمـا لا يقـاس، لكنـه مؤقت مثلـه. وكمـا لم يكن الـرحم الأول بيتـا دائمـا للجـنين، فالدنيا ليست بيتا دائما لـك. وحين تشـعر فيهـا بالضـيق رغم سعتها، فليس لأن شيئا فيك معيب، بل لأن روحك أوسـع من الإطار الذي تعيش فيه. وحين ترهقك السنوات، وتخـاف من المرآة، وتشعر أن الزمن يسرقك، فلأنك ظننته خصما، بينمـا هو، في حقيقته، مادتـك الخـام الـتي تنحت بهـا النفس الـتي ستلقى الله.

هذا، في أبسط صورة، ما حاولنا أن نفهمه: الدنيا ورشة، والزمن أداة، وأنت صانع النفس الـتي سـتخرج بهـا من هـذه الورشة. لم تخلق لهذا العالم بوصـفه غايـة نهائيـة، بـل جئت إليه لتتكون فيه. لا أحد يستطيع أن يبني عنك ذاتـك، ولا أحـد

يحمل عنك مسؤولية تشكيلها، كما أن اللحظة التي تمضي لا تعود مرة أخرى.

وحين يستقر هذا الفهم في داخلك، يتغير كل شيء من حولك. لا تعود تنظر إلى نفسك بالطريقة نفسها، ولا إلى عملك، ولا إلى علاقاتك، ولا حتى إلى وقتك. تبدأ برؤية الأشياء كلها على حقيقتها: مواد بين يديك، وأنت داخل ورشة تشكيل كبرى، وأمامك مهمة واحدة لا مهرب منها: أن تتكون.

وهذه المهمة ليست خيارا ثانويا يأخذه الإنسان أو يتركه متى شاء، بل هي الفريضة العميقة التي خلقت من أجلها. ولهذا سننتقل، في الفصل القادم، إلى الحديث عن تطوير الذات بوصفه هذا الواجب الغائب؛ لماذا سماه القرآن جهادا، ولماذا أهمل المسلمون، في كثير من مراحل تاريخهم المتأخر، واحدا من أعظم التكاليف التي أنيطت بهم.

أنت في رحم ثان. هذه حقيقة. لكنك، خلافا للجنين، تعرف أنك فيه. ولأنك تعرف، صار الخيار بيدك. الجنين ينتظر الولادة دون وعي، أما أنت فتهيئ نفسك لها. الجنين لا يختار شكل الأعضاء التي يخرج بها، أما أنت فتشارك، كل يوم، في تشكيل النفس التي ستخرج بها من هذه الحياة. الجنين لا يعلم أن خارج رحمه نورا، أما أنت فقد أخبرت.

والإخبار مسؤولية: ﴿**فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [المدثر: ٥٥-٥٦] الله يدعوك، والمشيئة شأنك.. فابدأ.

وقفة تأمل

قبل أن تكمل، تمهل عند فكرة هذا الفصل الأولى: أنك في رحم ثان، تصاغ فيه نفس ستخرج بها إلى ما بعده. والجنين لا يملك أن يسأل عما يصير إليه، أما أنت فتملك. فإن لم تكن النفس التي تلقى بها ربك نفسا تكشف يوم تولد، بل نفسا تبنى في كل يوم تحياه، فما الذي بنيته فيها بالأمس، وما الذي هدمته وأنت لا تكاد تنتبه؟

* * *

ملاحظة للقارئ: هذا الفصل فصل تأسيسي، بني على ثلاث أفكار مركزية سيقوم عليها ما بعده: فكرة «الرحم الثاني»، وفكرة «الأضداد بوصفها نظام التكوين»، وفكرة «الزمن بوصفه مادتك الخام». لذلك قد تشعر أحيانا أنه يحمل كثافة أعلى من بقية الفصول. لا بأس أن تقرأه على دفعتين أو ثلاث، أو أن تعود إليه بعد أيام مرة أخرى. فالكثير مما سيأتي لاحقا، سيبني جذوره على ما فهم هنا أولا.

الفصل الثاني — الفريضة المغيبة

✦

بعد أن يتسع وعيك بحقائق المكان والزمان، ويخفت ضجيج العالم أمام امتداد الخلود، ينهض في داخلك سؤال لا يشبه ما عرفته من أسئلة. سؤال لا يبحث عن: «أين أنا؟»، ولا «كم سأعيش؟»، ولا «ما الذي ينتظرني؟». بل يبحث عن شيء واحد: ماذا ينبغي أن أفعل الآن بهذه المعرفة؟

لأن إدراكك أن هذا العالم مقدمة، وأن عمرك لحظة، وأن مشاعرك مؤقتة، لا يكتمل معناه ما لم يتحول إلى فعل. فالمعرفة التي لا تغير اتجاه الحياة، تبقى فكرة عابرة مهما بدت عميقة. وهنا تحديدا تبدأ الفريضة المغيبة.

فما إن تنكشف لك حقيقة الخلود، حتى تجد نفسك أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن تستمر في حركة العالم القديمة؛ حركة عشوائية تبدد العمر بين المظاهر، والانشغالات، والسعي خلف ما يتغير ويزول. وإما أن تعيد النظر في كل شيء: في دوافعك، ورغباتك، وأهدافك، وفي الأسئلة التي تقودك من الداخل.

فالوعي وحده لا يغير الإنسان، بل ما يصنعه الإنسان بهذا الوعي. لحظة الإدراك ليست النهاية، بل البداية. أما اللحظة

التي تقرر فيها ماذا ستفعل بما عرفت، فهي أول مواضع الاختيار الحقيقي في حياتك.

وقبل أن نسأل لماذا غيبت هذه الفريضة عن وعي المسلم المعاصر، ينبغي أن نسأل أولا: كيف يسميها القرآن أصلا؟ لأن اللغة التي يستخدمها القرآن في وصف هذه الفريضة، لا تعطيك اسمها فحسب، بل تكشف لك طبيعتها، ووزنها، والمكان الذي تقع فيه من مشروع الإنسان كله.

كدحك إلى ربك: فريضة لا وصف

افتح القرآن على قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**﴾ [الانشقاق: ٦]. تقرؤها للوهلة الأولى فتظنها مجرد وصف لحالك: «الإنسان يكدح في حياته». لكن الآية أعمق من الوصف بكثير؛ إنها إعلان عن موقعك في هذا الوجود. لم يقل الله إنك ماش إلى ربك، ولا ساع، ولا عامل، بل قال: ﴿**كَادِحٌ**﴾. والكدح، في لسان العرب، ليس أي سعي، بل السعي المجهد الذي يترك أثره على صاحبه؛ السعي الذي تخرج منه وعلى روحك غبار المعركة.

وكأن الآية تقول لك: لقد وضعت في تصميم يفرض عليك الجهد فرضا، شئت أم أبيت. والسؤال ليس: هل ستكدح؟ بل: في أي اتجاه سيكون كدحك؟

ولأن السؤال خطير، جاء القرآن ليضيق احتمالات الإجابة، ويكشف أن النفس لا تعرف الحياد أصلا: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس: ٧-١٠].

تأمل الصياغة جيدا. لم يقل الله: «قد أفلح من زكاها، ولم يفعل الآخرون شيئا»، بل وضع أمامك حركتين متقابلتين: تزكية أو تدسية. ارتفاع أو دفن. صعود أو هبوط. لا توجد منطقة محايدة تبقى فيها النفس كما هي. فالإنسان الذي لا يرفع نفسه بالتزكية، يدفعها ـ ولو بصمت ـ نحو التآكل والانطفاء.

ولهذا، فالسؤال الحقيقي ليس: «هل أزكي نفسي؟»، بل: «في أي اتجاه تتحرك نفسي الآن؟». لأن النفس لا تقف. إما أن تقترب، أو تبتعد.

ثم تأتي آية ثالثة، تكمل الصورة من زاوية أخرى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ [الملك: ٢]. لاحظ أن الآية لم تقل: «أكثر عملا»، بل: ﴿**أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾. فالميزان هنا ليس الكثرة، بل الجودة؛ ليس حجم الحركة، بل حقيقتها الداخلية. قد تفوق ركعة واحدة شهدها قلبك ألف ركعة أداها الجسد وحده. وقد يكون عمل صغير خالص لله أثقل عنده من إنجازات ضخمة حركها الزهو أو حب الظهور.

وحين تجمع هذه الآيات الثلاث معا، تكتشف أن القرآن لا يتحدث عن ثلاث فرائض منفصلة، بل عن حقيقة واحدة ترى من ثلاث زوايا: الكدح، والتزكية، وإحسان العمل. الكـدح هـو الحركـة، والتزكيـة هي اتجـاه هـذه الحركـة داخـل النفس، وإحسان العمل هو الجودة التي تخرج بهـا هـذه الحركـة إلى العالم.

ومن هنا يتضح لماذا وصف النبي ﷺ هذه المعركـة بأنهـا «الجهاد الأكبر». فقد روي عنه أنه قال لأصحابه بعد عـودتهم من الغزو: «رَجَعنـا من الجهـاد الأصـغر إلى الجهـاد الأكـبر». قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: «جهاد النفس».

والمفارقة هنا عميقـة. فـالحرب الظـاهرة تحتـاج تـدريبا، وسلاحا، وشجاعة في مواجهة الموت، ومع ذلك سماها النبي ﷺ «الأصغر». أما حرب النفس، فعدوها يسكن داخلك، وميدانها يرافقك في كل لحظة، ولا تنتهي إلا بانتهـاء عمـرك. أنت لا تواجه فيها خصما خارجك، بل تواجه خوفك، وغرورك، وشهوتك، وكسلك، ووهمك عن نفسك. ولهـذا كـانت أطـول، وأشق، وأعمق أثرا.

ولأن هذه المعركة لا تعـرف التوقـف، اختـار القـرآن لهـا لغـة حاسـمة. لم يقـل لـك: «إن شـئت كـدحت»، بـل قـال: ﴿**إِنَّكَ كَادِحٌ**﴾. تبـدو جملـة خبريـة، لكنهـا تحمـل في داخلهـا معنى التكليف؛ كأنها أمر كوني لا يعفيك الله منه. أنت داخل هذا الكدح منذ أول نفخة فيك، وسـتبقى فيـه حـتى تلقـاه. لا

توجـد مسـاحة خـارج الطريـق. كـل لحظـة تمـر عليـك، أنت تتحـرك فيهـا في اتجـاه مـا، وتبـني ـ أو تضـعف ـ شـيئا في نفسك.

ولهذا اختـار القـرآن للفـائز في هـذه الرحلـة لفظـا بـالغ الدقة. لم يقل: «قد نجح من زكاها»، بل قال: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ**﴾. والفلاح أعمق من النجاح. فالنجاح مفهوم يتغير بتغير النـاس والأزمنة؛ ما يراه مجتمع نجاحا قد يـراه آخـر فشـلا، ومعـايير السوق تتبدل كل عقد أو جيل. أما الفلاح، فهو إصـابة الغايـة التي خلقت لها أصلا، لا الغاية التي صنعها لك العالم.

ولهـذا قـد ينجح الإنسـان في أعين النـاس، وهـو يخسـر نفسه ببطء. وقد يبدو عاديا في أعين العـالم، بينمـا هـو عنـد اللــه من أهــل الفلاح. فالنجــاح يعجب النــاس. أمــا الفلاح، فيرضي الله. والمسافة بينهما، أحيانا، عمر كامل.

كيف غيبت عنك؟

إذا كانت التزكيـة بهـذه المنزلـة؛ إعلانـا عن موقعـك في الكـون، وفاصـلا بين الفلاح والخيبـة، فكيـف غـابت عن وعي المسلم المعاصر؟ لماذا تسمع عشرات الخطب عن تفاصيل العبادة وفروعها، لكنك نادرا مـا تسـمع خطابـا يضـع التزكيـة في مركز الدين؟ ولماذا يخرج كثـير من النـاس من مواسـم العبادة وقد تعب الجسد، لكن النفس بقيت كما هي؟

الجـواب أن بين الإنسـان وبين هـذه الفريضـة حجـابين: حجابا داخليا يصنع الوهم داخل النفس، وحجابا خارجيا يجعـل الإنسـان يـؤدي الـدين دون أن يـدخل إلى معنـاه. وسـنبدأ بالأول، لأن كل انحراف في الخـارج يبـدأ غالبـا من خلـل في الرؤية من الداخل.

الحاجب الأول: حين يزين لك السوء

الإنسان لا يسير نحو الضـلال لأنـه يحب الضـلال بوصـفه ضلالا، ولا يطارد الزيف لأنه يعرف أنه زيف. بـل ينحـرف لأن الأشياء تعرض عليه بغـير حقيقتهـا؛ فـيرى الـوهم في صـورة الحقيقة، ويرى الظل نورا، ويرى ما يضعفه كأنه ما سيكمله. والخطر الحقيقي ليس أن تخـدع مـرة، بـل أن تعيش داخـل الخدعة حتى تفقد القدرة على رؤيتها أصلا.

وقـد لخص القـرآن هـذه الحقيقـة في آيـة واحـدة تكـاد تختصر جانبـا كبـيرا من علم النفس الإنسـاني: ﴿**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطَانُ أَعْمَـالَهُمْ فَصَـدَّهُمْ عَنِ السَّـبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ**﴾ [النمـل: ٢٤]. تأمـل كلمـة: ﴿**زَيَّنَ**﴾. فالمسـألة لا تبدأ بالكذب الصريح، بل بالتزيين؛ أن تقدم لـك الأشـياء على غير حجمها الحقيقي، فتبدو أجمل مما هي، وأقرب إلى قلبك مما تستحق، وأحق بالاتباع مما ينبغي.

ولكي تـدرك خطـورة هـذا الحـاجب، تأمـل طفلا يغضـب ويبكي لأنه خسر لعبة على شاشة، وكأن مصيره كلـه معلـق

بنتيجتها. تبتسم لأنك ترى المشهد من الخارج. لكن هل تنتبه، في اللحظة نفسها، إلى أن كثيرا منا يفعل الشيء ذاته حين يطارد المال، أو المظاهر، أو العلامات التجارية، أو المكانة الاجتماعية، وكأنها المعنى النهائي للحياة؟

نحن نستصغر لعبة الطفل لأننا خارجها، ونعظم لعبتنا لأننا نعيش داخلها. وكلما كنت داخل اللعبة، صار أصعب عليك أن ترى أنها لعبة أصلا. ولهذا وصف القرآن الدنيا بهذه الصراحة المدهشة: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ**﴾ [الحديد: ٢٠].

ويبلغ الوهم ذروته حين لا يكتفي بإبعاد الإنسان عن الطريق، بل يقنعه أنه على الطريق أصلا: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾ [الكهف: ١٠٣–١٠٤].

تأمل ثقل العبارة: لم تكن المشكلة أنهم ضلوا فحسب، بل أنهم كانوا يحسبون أنهم يحسنون. وهذه هي أخطر مراحل الحاجب: أن يتحول الانحراف في وعي الإنسان إلى صورة من الصواب، وأن يبدو له الهروب شجاعة، والتشوه نضجا، والانشغال تقدما.

وهذا الوهم لا يخص فئة دون أخرى. فقد يقع فيه متدين يظن أن كثرة الحركة الدينية تكفي وحدها لصناعة النفس،

كما قد يقع فيه إنسان ناجح في معايير الدنيا، يحسب أن ما يجمعه في يده هو ما سيحمله إلى الله.

ولأن الوهم يعمل من الداخل، كانت للنفس فيه يد كبرى. فالنفس الأمارة لا تحب الحقيقة بقدر ما تحب الصورة. تريدك أن تبدو أقوى مما أنت، وأغنى مما أنت، وأكثر قبولا وإعجابا مما أنت. ولهذا فهي تضخم كل ما يغذي صورتها، وتخفي كل ما يكشف ضعفها: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي**﴾ [يوسف: ٥٣].

ومن خارجك، هناك دائما من يسقي هذا الوهم ويعيد إنتاجه. فالشيطان لا يملك أن يجبرك، لكنه يملك أن يزين. يزين الشهوة حتى تبدو ضرورة، ويزين الثروة حتى تبدو معيار القيمة، ويزين المظاهر حتى تتحول إلى مقياس للوجود نفسه. ومع كل تنازل صغير، يتراكم على القلب شيء من الغبار لا يكاد صاحبه يشعر به: ﴿**كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [المطففين: ١٤].

والرين لا ينشأ من خطيئة واحدة، بل من تراكم التفاصيل التي لم تطهر: غفلة بعد غفلة، وتنازل بعد تنازل، حتى يبهت وعي الإنسان ببطء دون أن ينتبه.

ولهذا، فإن الخطوة الأولى في التزكية ليست كثرة العمل، بل إزالة الغبار عن مرآة الوعي. أن تقف مع نفسك بصدق، وتسأل: هل ما أسعى إليه يرفعني حقا، أم يكتفي

بتزييني؟ هل هو معنى، أم مجرد علامة؟ هل هو قيمة حقيقية، أم صورة تحتاج إلى جمهور يصدقها؟ لأن الصورة تسقط بزوال الضوء، أما المعنى فيبقى... حتى بعد أن تغادر الدنيا كلها.

الحاجب الثاني: حين تؤدى العبادة دون أن تعاش

حين تذكر التزكية، يتبادر إلى ذهن كثير من الناس معنى مباشر: الصلاة، والصيام، والذكر، والصدقة، والحج، وقراءة القرآن. وكأن التزكية تعني زيادة الأفعال، أو مضاعفة الجهد الديني، أو تحسين «الأداء التعبدي». لكن الفهم الأعمق يكشف أن العبادات لم تشرع لتكون غايات قائمة بذاتها، بل وسائل تعاد بها هندسة النفس من الداخل. فالعبادة، في جوهرها، ليست حركة جسد، بل إعادة تشكيل للوعي.

تأمل الصلاة مثلا. لم تفرض لتكون تكرارا حركيا تؤديه الأعضاء عدة مرات في اليوم، بل لتكون حالة اتصال تعيد قلبك إلى مركزه الحقيقي. ولهذا قال الله تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه: ١٤].

لم يقل: «لأنها فريضة» فحسب، بل: ﴿**لِذِكْرِي**﴾. أي لتحضر في وعيك، لا لتتحرك جوارحك وحدها. ومن هنا جاء قوله تعالى أيضا: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فالصلاة التي تصل إلى القلب تترك أثرا في السلوك، أما التي تبقى عند حدود الجسد، فقد تؤدى دون أن تغير شيئا في صاحبها. ليست فاسدة بالضرورة، لكنها لم تبلغ بعد وظيفتها الوجودية الكاملة.

وكذلك الصيام. يقول الله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٨٣]. لم يقل: «لعلكم تجوعون»، بل: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾. فالصيام ليس تدريبا على الحرمان بقدر ما هو تدريب على الوعي؛ على أن ترى رغباتك من الخارج، وأن تكتشف أنك لست مضطرا لأن تستجيب لكل ما تشتهيه نفسك. الصيام الذي لا يكشف لك طبيعة شهواتك، ولا يعيد ترتيب علاقتك بها، يبقى جوعا بلا تحول. أما الصيام الذي يعيد تشكيل علاقتك بنفسك، فهو الذي يصنعك حقا.

والزكاة أيضا ليست مجرد نقل للمال من يد إلى أخرى، بل عملية تحرير داخلي. قال الله تعالى:﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾ [التوبة: ١٠٣].

تأمل التعبير: ﴿**تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم**﴾. فالمقصود ليس سد حاجة الفقير فقط، مع عظمة هذا المقصد، بل تطهير المعطي نفسه أيضا؛ تطهيرها من التعلق، ومن وهم الامتلاك، ومن خوف الفقد. فالزكاة لا تخرج المال وحده، بل تخرج شيئا من عبودية القلب للمال. وكل تعلق يسقط، ينفتح في القلب موضع جديد للنور.

أما الذكر، فلم يشرع ليكون ترددا لفظيا فحسب، بل تغييرا في حالة الحضور الداخلي. قال الله تعالى: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٨]. والطمأنينة هنا لا تنبع من الكلمات وحدها، بل من التذكر؛ تذكر الأصل، والغاية، والاتجاه. الذكر الحقيقي هو أن يعود القلب من التشتت إلى المركز، ومن الدنيا إلى الله. اللسان قد يفتح الباب، لكن القلب هو الذي ينبغي أن يدخل.

ومن هنا تفهم أن العبادات كلها ـ صلاة، وصياما، وزكاة، وذكرا، وحجا ـ ليست غايات نهائية، بل جسورا. ليست قوالب جامدة، بل أدوات بناء تعاد بها صياغة النفس. فالإنسان لا يبنى بمجرد الصلاة، بل بالنور الذي تدخله الصلاة إلى قلبه. ولا يبنى بالصيام وحده، بل بالحرية الداخلية التي يمنحها له الصيام. ولا يبنى بالعطاء وحده، بل بالتحرر الذي يحدث داخله أثناء العطاء. وحتى الحج، في جوهره، ليس انتقالا جغرافيا، بل تجربة تعيد للإنسان وعيه بأنه ضيف عابر، وأن الدنيا ليست وطنه النهائي.

ولهذا جاء القرآن بحسم واضح في هذا الباب، حين تحدث عن الهدي، وهو من أعظم شعائر الحج ظاهرا:

﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ**﴾ [الحج: ٣٧]. تأمل الحصر في الآية: ليست اللحوم، ولا الدماء، ولا الصورة الظاهرة للنسك هي ما يصعد إلى الله، بل التقوى التي ولدت داخل القلب أثناء العبادة.

وإذا كان هذا في واحدة من أعظم العبادات كلفة ومشقة، فالأمر نفسه ينسحب على بقية العبادات كلها. الحكم واحد، وإن اختلفت الصور.

ومن هنا تأتي المأساة الخفية التي يقع فيها كثير من الناس: أن يؤدوا الطقس دون أن يدخلوا المعنى. يصلون دون أن يتهذبوا، ويصومون دون أن يتغيروا، ويعطون دون أن يتحرروا. لا لأن العبادات عاجزة، بل لأن الباب الداخلي لم يفتح بعد. أدوا الحركة، لكنهم لم يعيشوا التحول الذي خلقت الحركة لأجله.

وهذا بالضبط ما يفصل بين ما يبقى وما يذهب: ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ**﴾ [الرعد: ١٧]. فالزبد كثير على سطح الماء، لكنه يختفي سريعا. أما ما ينفع، فيبقى. وكذلك العبادة التي تبقى عند حدود الشكل؛ قد تكون كثيرة وصاخبة، لكنها تذهب سريعا دون أثر عميق. أما العبادة التي تنفذ إلى القلب، فتبقى، حتى وإن كانت قليلة.

فالتزكية هي الروح التي تحيي العبادة، والعبادة هي الوعاء الذي يحمل التزكية. لا تزكية بلا عبادة، ولا عبادة حية بلا تزكية. العبادة جسد، والتزكية روح.

ولم لم تملأ الفجوة مكتبة تطوير الذات؟

إذا غابت فريضة التزكية عن كثير من الخطاب الديني التقليدي، فإنها عادت للظهور ـ بصورة مختلفة ـ في ركن آخر من حياة الإنسان المعاصر: مكتبة تطوير الذات. تدخل إلى مكتبة، فتجد رفوفا كاملة تتحدث عن بناء الشخصية، وتحقيق الإمكانات، وصناعة النسخة الأفضل من نفسك. وتفتح هاتفك، فتنهال عليك مقاطع لمدربين وملهمين يعدونك بالنجاح، والسلام الداخلي، والقوة الكامنة، والتحول الكبير.

وهنا يبرز سؤال طبيعي: أليست هذه، في جوهرها، محاولة لملء الفراغ الذي تركه غياب التزكية؟ أليست دعوة إلى تطوير النفس والارتقاء بها؟

الجواب، بصدق: نعم... ولا.

نعم، لأن في هذه المكتبة أشياء نافعة فعلا: مهارات إدارة الوقت، وفنون التواصل، وتقنيات بناء العادات، وأساليب الانضباط، والقدرة على التعامل مع المشاعر والأهداف. وكثير من هذه الأدوات يمكن أن يكون مفيدا داخل مشروع التزكية إذا وضع في خريطته الصحيحة.

لكن «لا» تبقى أكبر. لأن الفجوة التي تركها غياب التزكية لم تكن فجوة مهارات، بل فجوة وجهة. والوجهة هي ما تفتقده هذه المكتبة في معظم أطروحاتها.

تأمل أشهر العبارات التي تتكرر في هذا الخطاب: «أنت تملك قوة لا حدود لها»، «الكون يستجيب لما تؤمن به»، «اكتشف عظمتك الداخلية»، «أنت مركز واقعك». انتبه إلى موقع الذات في كل هذه العبارات: الذات هي البطل، والمركز، والغاية. الكون يدور حولها، والوجود يستجيب لها، والرحلة كلها تنتهي عند تحقيقها هي. وهنا يظهر الفرق الجوهري بين التزكية القرآنية، وتطوير الذات في صورته الغربية السائدة.

فتطوير الذات، في أغلب نماذجه، ينتهي عند الذات. أما التزكية، فتنطلق من الذات... لتتجاوزها إلى الله. تطوير الذات يطلب من الإنسان أن يعظم نفسه، وأن يبحث عن قوته الكامنة، وأن يجعل ذاته مركز مشروعه. أما التزكية، فتذكره أنه عبد كادح إلى ربه، وأن قيمته الحقيقية لا تأتي من تضخيم ذاته، بل من معرفة موقعه الصحيح من خالقه.

ولأن نقطة البداية مختلفة، يختلف الطريق كله، وتختلف الثمرة في النهاية.

ولأن بين الإطارين تشابها ظاهريا ـ فكلاهما يتحدث عن «أن تصبح أفضل» ـ يختلط الأمر على كثير من القراء. فيأخذ الإنسان التقنيات، ويظن أنه أخذ الفريضة نفسها. يحفظ خطوات بناء العادات، أو قوانين الانضباط، أو أساليب النجاح، ويتصور أن هذا هو الكدح الذي يتحدث عنه القرآن.

لكن السعي إلى «الأفضل» داخل خريطة تنتهي عند الذات، ينتهي غالبا إلى مزيد من تضخيم الذات. أما السعي إلى الأفضل داخل خريطة تنتهي عند الله، فينتهي إلى مزيد من إخلاص النفس له، وتحريرها مما سواه.

ولهذا يخرج كثير من الناس من هذه المكتبة وهم يحملون إنجازات أكثر... لكنهم لا يشعرون بالامتلاء. ينجح أحدهم في عمله، ثم يكتشف فراغا لا يفهمه. يحقق هدفا انتظره سنوات، ثم تذوب نشوته سريعا. يبني صورة ناجحة عن نفسه، ثم ينهار داخليا حين تهتز هذه الصورة.[5]

وليس هذا عجزا في التقنيات نفسها، بل إشارة إلى أن النفس خلقت لما هو أعمق من مجرد تطوير ذاتها. وكما رأيت في الفصل الأول، فأنت في رحم ثان، والرحم لا يكتمل فيه الجنين بتضخيم نفسه داخله، بل بالخروج منه إلى العالم الذي خلق له.

---

[5] يعرف هذا النمط في علم النفس بـ«دوارة المتعة» (hedonic treadmill): ميل الإنسان إلى العودة إلى مستوى رضاه السابق بعد فترة من أي مكسب أو خسارة. وفي دراسة كلاسيكية قارن بريكمان وزملاؤه (1978) بين فائزين كبار باليانصيب ومصابين بالشلل، فوجدوا أن سعادة الفريقين عادت مع الوقت إلى ما يقرب من خط الأساس. تذكر هنا للتشخيص لا للاستدلال، وهي محل مراجعة وتفصيل في الأبحاث اللاحقة. انظر: P. Brickman, D. Coates & R. Janoff-Bulman, “Lottery Winners and Accident Victims: Is Happiness Relative?” Journal of Personality and Social Psychology, 1978.

ولهذا يقول الله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾ [الجاثية: ٢٣]. واتخاذ الهوى إلها لا يعني بالضرورة أن يترك الإنسان الدين كله، بل قد يعني أن يجعل ذاته المرجع الأخير لكل ما يفعل، وأن يجعل تطويرها وتعظيمها الغاية العليا لحياته. وقد يكون صاحب هذا النمط على «علم» فعلا؛ يقرأ، ويتعلم، ويمتلك أدوات ومهارات وتقنيات. لكن المشكلة ليست دائما في نقص المعرفة، بل في الخريطة التي تضع الذات في موضع لا ينبغي أن يكون إلا لله. ولهذا كان الضلال هنا أخطر؛ لأنه ضلال يلبس ثوب الوعي، لا ضلال جهل ساذج.

وفي النهاية، يجد الإنسان نفسه متأرجحا بين ضفتين كلتاهما ناقصة: ضفة تقدم له طقسا بلا روح، فيفقد المعنى الداخلي للعبادة. وضفة تقدم له تطويرا بلا وجهة، فيفقد المعنى النهائي لوجوده. الأولى تعلمه أن يفعل دون أن يفهم لماذا، والثانية تعلمه أن يتقدم دون أن يعرف إلى أين.

أما الفريضة المغيبة، فهي ما يجمع بين الأمرين: حركة واعية بمعناها، ووجهة واضحة تعرف إلى أين تقود صاحبها.

أين أنت من نفسك؟

الكدح يحتاج إلى وجهة، والتزكية بلا خريطة للنفس قد تبقى مجرد نداء عام؛ يسمعه الإنسان، ويتأثر به، ثم يخرج منه دون أن يعرف أين يقف الآن، ولا إلى أين ينبغي أن

يتحرك بعد ذلك. ولهذا كان السؤال الضروري: أين أنت من نفسك فعلا؟ وفي أي اتجاه تسير؟

القرآن لا يعرض النفس بوصفها مفهوما نظريا جامدا، بل بوصفها حالات وجودية يمر بها الإنسان في رحلته إلى الله. وهذه الحالات ـ في صورتها الكبرى ـ أربع: النفس الأمارة، ثم اللوامة، ثم الملهمة، ثم المطمئنة. ليست تصنيفات أكاديمية، بل محطات حية يتقلب الإنسان بينها وهو يتكون.

النفس الأمارة: نقطة بداية، لا نقطة إدانة

هذه هي النفس الخام في بداياتها؛ النفس التي تتحرك بدافع الرغبة العاجلة، وحب التملك، والخوف من الفقد، والبحث عما يخفف الألم بسرعة. ليست شريرة بطبيعتها، لكنها غير مهذبة بعد. تشبه مادة أولية لم تمسها يد التشكيل؛ فيها قابلية الصعود، لكنها ما تزال أسيرة الغريزة والصورة والانفعال.

ولهذا ترى العالم من زاوية ضيقة: «أنا الآن». لا ترى المستقبل بوضوح لأنها أسيرة اللحظة، ولا ترى الحقائق العميقة لأنها مشغولة بما يظهر على السطح. ولهذا قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ [يوسف: ٥٣].

تأمـل التعبـير: لم يقـل إن النفس «تميـل» إلى السـوء أحيانا، بل قال إنها «تأمر» به. لأن وعيها، في هذه المرحلـة، محـدود بمـا يشـبع الرغبـة أو يـدفع الألم، ولـو على حسـاب المعنى الأعمق للحياة.

ومع ذلك، فهذه النفس ليست لعنة، ولا حكما نهائيـا على الإنسان. إنهـا نقطـة البدايـة الطبيعيـة لكـل أحـد. منهـا يبـدأ الصعود، لا عندها ينتهي الطريق.

النفس اللوامة: بداية اليقظة

هنا تبدأ الروح بالاستيقاظ. يبدأ الإنسـان برؤيـة التنـاقض بين مـا يفعلـه ومـا يعـرف أنـه ينبغي أن يكونـه. يخطئ، ثم يشعر بشيء في داخله يرفض الخطأ، لا خوفـا من الصـورة، بل لأن الحقيقة بدأت تدخل إلى وعيه. وهذا اللوم ليس جلدا للذات، بل أول علامات الحياة فيها.

ولهذا أقسم اللـه بهـذه النفس: ﴿**وَلَا أُقْسِمُ بِـالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ [القيامـة: ٢]. وكـأن القـرآن يشـير إلى أن لحظـة اللـوم الصـادق هي واحـدة من أشـرف لحظـات الإنسـان؛ اللحظة التي يكتشف فيهـا أنـه ليس مضـطرا لأن يبقى كمـا هو، وأن داخله إمكانية أخرى تنتظر أن تولد.

النفس اللوامة تعـرف الاتجـاه، لكنهـا لم تثبت فيـه بعـد. تشبه إنسانا خرج من الظلام إلى أول الفجـر؛ يـرى الطريـق أخيرا، لكنه ما يزال يتعـثر أثنـاء السـير. وهي، لهـذا السـبب،

مرحلة مؤلمة وجميلة في الوقت نفسه: مؤلمة لأنها تكشف العيوب، وجميلة لأنها أول نافذة يدخل منها النور. ومن دونها، تبقى النفس الأمارة غرفة مغلقة بلا نوافذ.

النفس الملهمة: اتساع البصيرة

في هذه المرحلة، تبدأ النفس بالاقتراب من حقيقتها الأعمق. يتسع الوعي، وتصبح البصيرة أوضح، ويبدأ الإنسان بالشعور ـ بصورة تلقائية ـ بما يليق به وما لا يليق، دون الحاجة إلى عناء طويل في كل مرة.

قال الله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ [الشمس: ٧–٨]. الإلهام هنا ليس معرفة نظرية فقط، بل حساسية داخلية تجاه الطريقين؛ طريق يطفئ نور النفس، وطريق يزيدها إشراقا. ولهذا قد تخطئ النفس الملهمة، لكنها لا تغرق بسهولة. وقد تضعف، لكنها تعرف كيف تعود. تبدأ بالنفور من القبيح ولو اعتادته، وبالاشتياق إلى الجميل ولو كان مكلفا.

وهنا تصبح القرارات أوضح، والرؤية أهدأ، ويبدأ الإنسان بالشعور أن داخله مركزا أكثر ثباتا من تقلبات اللحظة. إنها مرحلة صفاء متقطع، لكنها تمهد لشيء أعمق: الطمأنينة.

النفس المطمئنة: الهوية التي تسلم إلى الله

هذه هي الذروة التي تتجه إليها الرحلة كلها. نفس لم تعد تديرها الفوضى الداخلية، ولا تسقطها تقلبات العالم. يأتيها الألم، فلا يقتلعها من جذورها. وتأتيها النعم، فلا تنسيها وجهتها. لقد وجدت موطنها الحقيقي، وعرفت إلى أين تتجه، واستقر فيها معنى وجودها.

ولهذا خاطبها الله بخطاب لا يشبه أي خطاب آخر في القرآن: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً**﴾ [الفجر: ٢٧–٢٨]. تأمل التعبير: ﴿**ارْجِعِي**﴾. كأن الرحلة كلها كانت عودة إلى الأصل.

فالنفس المطمئنة لا تنتظر من الدنيا أن تكملها، لأنها وجدت اكتفاءها بالله. لا ترعبها فكرة الموت، لأنها لم تعد تراه جدارا، بل بابا. ولا تركض خلف ما يفنى، لأن بصرها صار معلقا بما يبقى.

وأبلغ من جسد هذا الاكتفاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام). كتب إلى عامله على البصرة عثمان بن حنيف، يذكره أن الإمام قدوة في زهده قبل ولايته: «أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ. أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ

وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ»[6]. تأمل كيف لم يطلب منهم أن يماثلوه في خشونة العيش، بل أن يعينوه بما هو أعمق: ورع يكف، واجتهاد يدفع، وعفة تصون، وسداد يقوم. فالاكتفاء الحقيقي ليس حرمان الجسد، بل غنى النفس التي وجدت في الله ما لا تجده في الدنيا.

وليست الطمأنينة هنا مجرد شعور عابر من السكينة، بل هوية كاملة يحملها الإنسان معه إلى العالم الآخر.

لكن هذه المحطات الأربع ليست جزرا منفصلة، ولا درجات يصعدها الإنسان مرة واحدة ثم يستقر فيها إلى الأبد. إنها موجات متداخلة يمر بها في يومه الواحد. قد يبدأ يومه بالنفس الأمارة، ثم تستيقظ فيه اللوامة بعد موقف صادق، ثم يلمس شيئا من الإلهام في قرار صعب، ثم يذوق طمأنينة عابرة في سجدة حاضرة.

ومع الزمن، إذا صدق في كدحه، تطول لحظات الصفاء، وتقصر لحظات الغفلة، ويقوى مركزه الداخلي شيئا فشيئا. وهنا يتضح المعنى الحقيقي لفريضة التزكية: ليست إلغاء للطبيعة البشرية، بل ترقية لها. ليست حربا على النفس، بل أخذا بيدها نحو اكتمالها الممكن.

---

[6] نهج البلاغة، من كتاب له (عليه السلام) إلى عثمان بن حنيف، عامله على البصرة (الكتاب ٤٥ في ترتيب الشريف الرضي). يضبط رقمه ولفظه من طبعة معتمدة عند الإخراج النهائي.

مشروعك الأول... وما عداه فرع عنه

يبقى بعد هـذا كلـه سـؤال عملي لا مفـر منـه: إذا كـانت التزكية هي جوهر رحلتك، فأين تقـع داخـل يومـك المـزدحم أصلا؟ كيف تمارسها وسـط العمـل، والأسـرة، والالتزامـات، والمواعيـد، والتعب، والمسـؤوليات الـتي لا تكـاد تـترك في يومك فراغا؟ وهنا يقع الخطأ الشائع.

فكثـير من النـاس يتعـاملون مـع التزكيـة وكأنهـا مهمـة إضافية ينبغي أن تزاحم بقية المهـام داخـل الجـدول؛ سـاعة جديدة تضاف إلى يـوم مرهـق أصـلا. لكن التزكيـة لم تـنزل لتحشر في جدولك، بل لتعيد ترتيب الجدول كله.

اقـرأ يومـك بهـدوء. أنت تعمـل من أجـل رزقـك، وتبـني أسرتك، وتفكر في مستقبلك، وترعى صـحتك، وتصـل أهلـك وأصدقاءك، وتحاول أن تدير حياتك بأفضل ما تستطيع. هــذه هي مشـاريع حياتـك اليوميـة، وكـل واحـد منهـا يطلب وقتـا وجهدا، وكل واحد منها له مكانه الطبيعي في حياتك.

لكن مشروعا واحدا يبقى ـ عند أكثر الناس ـ غائبا وسـط هذا الازدحام: تكوين النفس التي ستلقى الله بها.

تأمل السؤال بصدق: أين يقع هذا المشـروع في وعيـك؟ هل تضعه في زاوية العبادات فقط؟ في دقائق معدودة قبـل النـوم؟ في خـاطر يمـر عليـك بين حين وآخـر؟ هـذه كلهـا لمسات جميلة، لكنها لا تكفي لصناعة إنسان.

فتكوين النفس ليس نشاطا تمارسه ساعة ثم تغلقه، بل إطار يمنح المعنى لبقية الساعات كلها. وحين يتغير هذا الفهم، يتغير السؤال نفسه. لا يعود السؤال: «متى أزكي نفسي؟»، بل: «كيف أجعل ما أفعله أصلا جزءا من تزكيتي؟».

وهنا يأتي الجواب القرآني بدقة مدهشة: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ [القصص: ٧٧]. تأمل كلمة: ﴿**فِيمَا**﴾.

لم يقل الله: اترك ما آتاك واطلب الآخرة في مكان آخر. ولم يقل: خذ الدنيا واترك الآخرة لأهل العبادة. بل قال: ابتغ الآخرة فيما آتاك. أي من داخل رزقك، ومن داخل عملك، ومن داخل أسرتك، ومن داخل صحتك، ومن داخل تفاصيل حياتك نفسها.

المطلوب ليس حياة ثانية تضاف إلى حياتك، بل نية جديدة تعيد توجيه الحياة التي تعيشها أصلا. ولأن الفرق هنا دقيق، تأمل هذا المشهد البسيط: رجلان يعملان في المكتب نفسه، أمام الشاشات نفسها، ويؤديان المهام نفسها، ويتقاضيان الراتب نفسه. الأول يرى في عمله وظيفة يحفظ بها مكانته وراتبه ومستقبله. والثاني يرى في العمل نفسه ميدانا يكدح فيه إلى الله. كل ساعة يقضيها أمام شاشته، إن كانت نيته مستقيمة، خطوة في طريقه إلى ربه، حتى لو لم يلح منه في يومه ذكر ولا صدقة. والإتقان والصدق

والإحسان وكف الأذى وحفظ الأمانة، كلها ثمرات تنبت من هذه النية المستقيمة، لا شروط تسبقها.

العمل الخارجي واحد، لكن الخريطتين مختلفتان تماما. الأول تمضي ساعاته في جمع رصيد للدنيا وحدها. والثاني تمضي ساعاته في جمع الرصيدين معا. ولهذا يقول الله تعالى: ﴿**مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ [النساء: ١٣٤]

تأمل دقة الآية. ثواب الدنيا موجود عند الله، يعطيه لمن أراده. لكن الله يملك أيضا أن يجمع للإنسان بين الدنيا والآخرة معا. والفارق الحقيقي ليس في حجم السعي، بل في ما يطلبه الإنسان من هذا السعي، وفي الوجهة التي يضع فيها قلبه.

ولهذا ختمت الآية بـ: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ تذكيرا بأن النية لا تضيع، وإن خفيت عن الناس، بل أحيانا عن صاحبها نفسه.

ومن هنا يتضح ترتيب الحياة الحقيقي. فمركز حياتك ليس مهنتك، ولا أسرتك، ولا صحتك، ولا حتى العبادة بوصفها طقوسا منفصلة عن بقية يومك. المركز الحقيقي هو نفسك التي ستلقى الله بها: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩–١٠]

وحين يستقر هذا المركـز في وعيـك، تبـدأ بقيـة الأشـياء بالدوران حولـه في أماكنهـا الصـحيحة. تصـبح مهنتـك ميـدانا للكدح، لا مجرد وسيلة للراتب. وتصبح الأسرة موضـعا تتعلم فيه الرحمة والصبر والمودة والمسؤولية. ويتحول المـال من غاية تطاردها إلى أمانـة تـدار بـوعي. وحـتى الراحـة والنـوم يكتسـبان معـنى جديـدا؛ لا بوصـفهما هروبـا من الحيـاة، بـل استعدادا للعودة إلى الميدان.

وعندها، لا تعود التزكية شـيئا تفعلـه في أوقـات محـددة، بل طريقة تعيش بها حياتك كلها. لا تعود تبحث لهـا عن وقت إضافي، لأن وقتك كله صار قابلا لأن يدخل في معناها. وهـذا هــو الفــارق الحقيقي بين إنســان يعيش في الــدنيا فقــط، وإنسان يعيش في الدنيا... وعينه على الله.

ماذا يحدث في داخلك حين تسلك؟

قد يبدو لك، بعد كل ما مر في هذا الفصـل، أن الطريـق طويــل وثقيــل. تحــدثنا عن الكــدح، والتزكيــة، والحــواجز، والوجهة، وخريطة النفس، وإعادة ترتيب الحياة من الـداخل. وقد يخطر لك، وأنت تقرأ: ما الـذي يجنيـه الإنسـان من كـل هذا السعي؟ ماذا يحدث فعلا حين يبدأ في هذا الطريق؟

والجواب أن أول ما يتغـير لا يكـون في الخـارج، بـل في الداخل. لا يحـدث انقلاب مفـاجئ في العـالم من حولـك، ولا تنشــق الحيــاة فجــأة عن واقــع مثــالي. النــاس هم النــاس،

والعمــل هــو العمــل، والضــغوط لا تختفي، والخســارات لا تنعدم. لكن شيئا آخر يبدأ بالتشكل بهدوء في أعماقك. شيء يتراكم بصمت، حـتى يصـبح مـع الـوقت طريقـة جديـدة في رؤية الحياة كلها.

تأمل ما يحدث حين تفهم أن عملـك ليس مجـرد وسـيلة للرزق، بل ميـدان كـدح إلى اللـه. في الظـاهر، قـد لا يتغـير شيء: المكتب نفسـه، والـزملاء أنفسـهم، والمهـام نفسـها، والـراتب نفسـه. لكن شـيئا في صـدرك يتغـير. تصـبح أقـل استنزافا أمام ما لا يرضيك، وأهدأ تجاه ما يتأخر، وأقدر على احتمال ما كان يربكك من قبل.

لا لأنك صرت إنسانا خارقا، بل لأن مركزك الـداخلي بـدأ يتحرك من الدنيا إلى الله. لم يعد تعلقـك بالنتـائج يسـتهلكك كما كان، لأنـك بـدأت تـرى أنـك تعمـل، لكن اللـه هـو الـذي يجري الأمور.

وحين تفهم أن أسرتك ليسـت مجـرد مسـاحة للراحـة أو المسـؤولية، بـل ميـدان من ميـادين تزكيتـك، يحـدث تحـول مشـابه. الكلمـة الـتي كـانت تسـتفزك تصـبح فرصـة للحلم. والخطأ الـذي كـان يسـتنزف أعصـابك يصـبح موضـعا للعفـو والصبر. وحتى الوقت الذي كنت تحسبه عبئا أو تكرارا يوميا، يبدأ بالتحول إلى غرس هادئ في نفوس ائتمنك الله عليها.

وكذلك المال. حين تفهم أنه أمانة لا هوية، يخـف خوفـك منه وعليـه. لا لأنـك كـرهت المـال أو تخليت عن قيمتـه، بـل

لأنك أعدته إلى مكانه الصحيح. لم يعد سيدا يدير قلقك، بل أداة في يدك تحسن استخدامها ثم تتركها عند الله.

وكل هذه التحولات الصغيرة يجمعها شيء واحد: الاستقرار. استقرار داخلي لا يعني غياب الألم، ولا اختفاء الخسائر، ولا حياة بلا اضطراب، بل يعني أن مركزك لم يعد معلقا بما يتغير بسرعة. صار في مكان أعمق من تقلبات السوق، وأهدأ من تقلبات الناس، وأثبت من تقلبات الظروف.

وهذا هو المعنى الذي يشير إليه القرآن حين يقول: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٨].

تأمل: القرآن لا يعدك هنا بانتصار دائم، ولا بنجاح مستمر، ولا بحياة خالية من الألم. إنما يعدك بالطمأنينة.

ولهذا قد تتألم... وأنت مطمئن. وقد تخسر... وأنت مطمئن. وقد تتعثر... وأنت مطمئن. لأن ما يحكم قلبك لم يعد ما يحدث لك، بل من يملك ما يحدث لك.

لكن هذه ليست نهاية الرحلة، بل عتبتها الأولى. بداية تحول أطول، سنقترب من أدواته وأبعاده في الفصول القادمة. وما ينبغي أن يستقر في وعيك الآن، قبل أن تغادر هذا الفصل، أن التزكية ليست فكرة مثالية تقال، بل طريق ينتج أثره فعلا. كل خطوة فيه تترك شيئا في داخلك، وكل

حركة صادقة تعيد تشكيل النفس ببطء، حتى قبل أن تصل إلى ثمرتها الكبرى في الآخرة.

في الختام

بدأنا هذا الفصل بسؤال تركه الفصل الأول مفتوحا: إذا عرفت الحقيقة... فبماذا تبدأ؟

والآن، بعد هذا الطريق، تتضح الإجابة. فالتزكية ليست بندا إضافيا في قائمة حياتك، بل الإطار الذي يعيد ترتيب القائمة كلها. وما يسميه القرآن «تزكية» ليس حركة تضاف إلى حياتك، بل حركة تعيد توجيه حياتك من الداخل.

ورأينا كيف غابت هذه الفريضة خلف حاجبين: حاجب داخلي يصنع الوهم داخل النفس، وحاجب خارجي يجعل الإنسان يؤدي العبادة دون أن يدخل معناها. ورأينا أيضا لماذا لم تستطع مكتبة تطوير الذات أن تسد هذه الفجوة، رغم ما فيها من أدوات نافعة؛ لأن خريطتها، في الغالب، تنتهي عند الذات، بينما خريطة التزكية تنطلق من الذات... لتصل إلى الله.

ثم رسم لنا القرآن خريطة النفس في رحلتها: من الأمارة، إلى اللوامة، إلى الملهمة، حتى المطمئنة. وأخبرنا أن مركز الحياة الحقيقي ليس المهنة، ولا الأسرة، ولا الإنجاز، ولا حتى العبادة حين تؤدى بوصفها طقسا منفصلا، بل النفس التي ستلقى الله بها.

وحين يستقر هذا المركز في وعي الإنسان، يبدأ كل شيء آخر بالانتظام حوله. يأخذ العمل معناه، والعلاقات معناها، والمال مكانه، والزمن قيمته. وتبدأ ثمرة الطريق بالظهور في الدنيا قبل الآخرة: طمأنينة تنبت في الصدر بهدوء، وتعطي للحياة شكلا جديدا، حتى قبل أن تتغير ظروفها. وهكذا نكون قد أعدنا هذه الفريضة إلى مكانها الطبيعي في خريطتك.

ويبقى السؤال الذي يفتح الباب لما بعده: إذا كانت نفسك هي مشروعك الأول، فما الذي تتكون منه هذه النفس أصلا؟ وما الأبعاد التي تعمل فيها التزكية؟ ومن أين يبدأ النحت الحقيقي للإنسان؟ هذه هي بوابة الفصل القادم: أبعادك الأربعة.

وقفة تأمل

قبل أن تطوي هذا الفصل، قف عند سؤاله الأخطر: إن كانت نفسك هي مشروعك الأول، وكل ما عداها فرع عنه، فأين يقع هذا المشروع في ترتيب يومك الفعلي ـ لا في ترتيبك المثالي له؟ وأي مشاريعك التي تنفق فيها ساعاتك يخدم النفس التي ستلقى بها ربك، وأيها يجري بمعزل عنها كأنك لن تسأل عنه؟

ملاحظة للقارئ:الفصلان الأول والثاني يشكلان معا الأساس الذي سيقوم عليه بقية الكتاب. ففي الفصل الأول

أقمنا ثلاث أفكار كبرى: «الرحم الثاني»، و«نظام الأضداد»، و«الزمن بوصفه مادتك الخام». وفي هذا الفصل أقمنا ثلاثا أخرى: «التزكية بوصفها فريضة»، و«خريطة النفس»، و«نفسك مشروعك الأول».

وما سيأتي لاحقا سيبنى على هذه الأفكار الست مجتمعة. لذلك، إذا شعرت أن إحدى هذه الأفكار لم تستقر بعد في وعيك، فامنحها وقتا أطول، وعد إليها مرة أخرى قبل أن تكمل الطريق. لأن ما بني هنا، سيبني عليه ما بعده.

الفصل الثالث — أبعادك الأربعة

✦

ختمنا الفصل السابق على اكتشاف بسيط في لفظه، كبير في أثره: نفسك مشروعك الأول، وكل ما عداه يستمد معناه منه. لكن من أخذ هذا الاكتشاف على محمل الجد، لا يلبث أن يقف أمام سؤال آخر: مم تتركب هذه النفس؟ هل هي بعد واحد، أم أبعاد؟ وإن كانت أبعادا، فأيها يقود، وأيها يتبع؟ ومن أين يبدأ النحت؟

لأنك، حين تنظر إلى نفسك بصدق، لا تجد كائنا منسجما واحدا. تجد ازدحاما. صوت يدفعك نحو راحتك، وصوت يؤنبك على راحتك. صوت يحسب الربح والخسارة، وصوت يهمس أن الحق في غير ما تحسب. صوت يطلب راحة الآن، وصوت يطلب جهدا للغد. لو كنت كيانا واحدا، ما عرفت هذا الازدحام.

والحقيقة أن هذا التعدد ليس خللا. إنه أثر التقاء أبعاد مختلفة تجتمع فيك، وتعمل معا، وتتأثر بعضها ببعض. ما تراه تنازعا في داخلك، قد يكون تعددا لم تتعرف عليه بعد.

أنت أربعة، لا واحد. أربعة أبعاد متميزة، تجتمع فيك في منظومة واحدة: بعد يهدي، وبعد يستقبل، وبعد يترجم، وبعد

ينفذ. وحين تنسجم هذه الأبعاد، تخرج حياتك في اتجاه واحد. وحين تختل، تخرج ممزقا؛ تعرف بعقلك ما يريده قلبك، وتريد بقلبك ما لا تستطيعه روحك، وتدفع جسدك إلى ما لا يطلبه أي منهم.

هذا الفصل يفتح خريطة هذه الأبعاد الأربعة. لا يفصل كل بعد بكامله ـ فلكل بعد فصل مستقل يأتي لاحقا ـ إنما يجمعها أمامك في مشهد واحد، ويكشف علاقتها بعضها ببعض، وكيف تتشكل منها حركتك في هذا العالم.

وحين تخرج من هذا الفصل، ستكون قد عرفت ما يتكون منه الكيان الذي يسير بك. وهذا، وحده، خطوة كبيرة. بل لعله أول خطوة في معرفة نفسك على حقيقتها.

الروح: ما لا يدرك بأدواتك

ابدأ من العمق. هناك فيك شيء لا يشبه بقيتك. لا يلمسه مشرط، ولا يرصده مجهر، ولا يحده علم، لأنه ليس من جنس ما يرى ويلمس ويقاس. شيء كان حاضرا قبل أن يكتمل جسدك، وسيبقى بعد أن يعود هذا الجسد إلى التراب. شيء لا يشيخ، ولا يمرض، ولا يتعب من الحنين إلى أصله، لأنه يحمل في داخله ذكرى أقدم من هذا العالم كله. هذا الشيء هو الروح.

فالجسد مركبة تعبر بها هذا العالم، والعقل أداة فهم وتحليل، والقلب نافذة للشعور والتلقي، أما الروح فهي

الجـوهر الـذي بـه تحيـا هـذه الأبعـاد كلهـا وتنتظم في اتجـاه واحد. ولو اجتمـع لـك ذكـاء العقـل، وقـوة الجسـد، وتجـارب العمر، وعلاقات الناس، وبـنيت منهـا هويـة كاملـة، لبقي في داخلـك شـيء لا يفسـره كـل ذلـك. شـيء يبحث عن معـنى أعمق من النجاح، وعن سكينة أوسع من اللذة، وعن بقـاء لا يهزمه الزمن.

ولأن الروح من جنس مختلف، فهي لا تدرك بأدوات هـذا العالم. ولذلك خصها القرآن بإشارة تستوقفك:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾

[الإسراء: ٨٥]

تأمل التعبـير: لم يقـل «من خلـق ربي»، بـل ﴿**مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾. والفرق دقيـق وعميـق. فـالخلق يجـري في الـزمن، ويخضع لقوانين المادة، وينمو ويتغير ويفنى، أما الأمر فيـأتي من عالم أعلى، يتحقق بكلمة إلهيـة لا يحـدها مـا نعرفـه من قوانين هذا الوجود. ولهـذا لم توصـف الـروح بمـا وصـف بـه الجسد، بل قيل فيها:

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾

[الحجر: ٢٩]

وتوقف عند هذه الإضافة: ﴿**مِن رُّوحِي**﴾. هي إضافة تشريف وتكريم، لا اشتراك في الجوهر، لكنها ترفع الإنسان إلى مقام عجيب؛ كائن من طين، يحمل في داخله نفخة جاءت من عالم أعلى. وليس الشرف هنا شرف الذات من ذاتها، بل شرف ما أودعه الله فيها تفضلا ورحمة. فلو سلبت هذه النفخة، لما بقي من الجسد إلا مادة تعود إلى الأرض التي جاءت منها.

ولأن الروح جاءت من عالم أعلى، فهي لا تستقر تماما في هذا العالم الأدنى. مهما أعطيت من الدنيا، يبقى فيها حنين لا يهدأ. تنجذب إلى الجمال، وإلى الحق، وإلى السكينة، وإلى المعنى. لا لأنها ناقصة، بل لأنها تتذكر. تتذكر موطنا لم تره عينك في هذه الحياة، لكنها شهدته قبلها، وتحمل في أعماقها صدى ذلك اللقاء الأول.

وهذا الذي تتذكره الروح يسميه القرآن: الفطرة. قال تعالى:

﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾

[الروم: ٣٠]

والفطرة ليست ميلا أخلاقيا عابرا، ولا غريزة دينية مكتسبة، بل هي الهوية الأولى للروح، السابقة على التعليم والتجربة واللغة نفسها. الروح لا تتعلم التوحيد كما يتعلم العقل فكرة جديدة، بل تتذكره. ولا تتعلم الحق من الخارج،

بل تعرفه حين تراه. والإنسان حين يعود إلى الله لا يأتي بشيء من خارج نفسه، بل يستخرج شيئا كان مودعا فيها منذ البداية.

وهذا الاستيداع أقدم من ميلادك نفسه. أقدم من الجسد، ومن الذاكرة، ومن اللغة. شهد لحظة لا يذكرها وعيك، لكن روحك لا تزال تحمل صداها:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾

[الأعراف: ١٧٢]

«قالوا بلى» قبل أن يعرفوا الكلام، لأن الروح لم تكن تحتاج برهانا؛ كان الحق حاضرا أمامها بلا حجاب. ثم نزلت إلى الدنيا، واحتجب المشهد بضجيج الحياة، لكن صدى «بلى» لم يمت. ما زال يتحرك فيك حين تنفر فطرتك من الظلم قبل أن يبرره العقل، وحين تستجيب للحق قبل أن تحلله، وحين تهتز لآية تسمعها فجأة فتشعر أنها لا تخبرك بشيء جديد، بل تذكرك بشيء قديم.

ومع ذلك، فهذه الفطرة ـ رغم صفائها ـ يمكن أن تغطى. لا أن تمحى، لأن النفخة لا تمحى، لكن قد تتراكم عليها أتربة العادات، وضغط البيئة، وضجيج التوقعات، حتى يصير الإنسان كمن ينظر في مرآة مغبرة؛ يرى ظل نفسه، لا

نفسه. ولهذا جاءت التزكية، كما رأيت في الفصل السابق، لا لتخلق فطرة جديدة، بـل لتزيـل الغبـار عن الفطـرة الأولى، وتعيد للروح وضوحها الذي فقدته.

وكلما طهرت الروح، اقتربت من النور الذي جاءت منــه. وكلما اقـتربت من ذلـك النـور، اقـتربت من معرفـة نفسـها، ومن الحـنين الـذي يحملهـا إلى ربهـا. ولهـذا فـالروح ليسـت أدنى شيء فيك، بل أعلاه. وما يأتي بعدها ـ القلب، والعقـل، والجسد ـ ليس إلا الأدوات التي تنقل ما تعرفه إلى الحياة... أو تحجبه عنها.

القلب: مرآة الروح

إن كـانت الـروح هي النـور، فـالقلب هـو المـرآة. الـروح تعــرف، والقلب يســتقبل. الــروح من عــالم الأمــر، والقلب جسر ينقل ما تعرفه إلى وعيك وحياتك. ولـذلك لا يصـل إلى الإنسـان من نـور روحـه إلا بقـدر صـفاء قلبـه. مـرآة صـافية تعكس النــور كــاملا، ومــرآة مغــبرة تعكســه باهتــا، ومــرآة متشققة تخرجه مشوها. والمرآة، في ذاتها، لا تزيد النـور ولا تنقصه، إنما تظهره كما هو، أو تخفيه بما علق عليها.

والقلب الذي نتحدث عنه هنا ليس تلك العضلة التي تضخ الدم، بل تلك البقعة الخفيـة الـتي تضـخ الحيـاة نفسـها. وإذا أردت موضعه في تصور القرآن، فاقرأ قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾

[ق: ٣٧]

وتأمل التعبير: «لمن كان لـه قلب»، كـأن ثمـة بشـرا بلا قلـوب. لا بمعـنى أن المضـخة العضـلية مفقـودة فيهم، بـل بمعنى أن المرآة لم تعد تستقبل. تراكم عليها من الغبـار مـا حجب النور، حتى بقيت الصـورة ولم يبـق الإدراك. فـالقلب، في ميزان القرآن، ليس عضـوا تملكـه، بـل حالـة اسـتقبال. يحضر حين يصفو، ويغيب حين يعطل.

وموضع القلب بين الـروح والعقـل موضـع دقيـق. العقـل يعرف الأشـياء، لكن القلب يعيشـها. العقـل يحلـل الحقيقـة، لكن القلب يتذوقها. العقل قد يستدل على وجود الله بالأدلة والـبراهين، لكن القلب يعرفـه بالسـكينة. ولـذلك قـد يعـرف الإنسان ربه بعقله، ويحفظ صفاته وأسـماءه، ويجـادل عنهـا، ثم يبقى شيء في داخله لم يذق بعـد. أمـا إذا عرفـه بقلبـه، انحنى في سجدة لا يستطيع العقل أن يشرح سرها.

ومن هنـا كـان القلب موضـعا عجيبـا في الإنسـان؛ لأنـه المكان الوحيد الذي يلتقي فيه الزمن بالأبد، والدنيا بـالآخرة، والإنسان بالله. فيه يمر ما تعرفه الـروح، وفيـه ينعكس على وعيك، وفيه تبدأ الرحلة كلها. والتحولات الكبرى في الإنسان كثيرا ما تبدأ من القلب، ثم يدركها العقل ويصوغها بعد ذلـك. لا لأن العقل قليل الشأن، بـل لأن القلب هـو الموضـع الـذي تولد فيه المعاني قبل أن تتحول إلى أفكار.

ولأن القلب مرآة، فهو يتلون بما يمـر عليـه. كلمـة تقـال لك في الوقت الخطأ قد تغلق القلب أياما. وكلمة صادقة قد تفتح فيه بابا ظل مغلقا سنين. نظرة تزرع فيه أمانا، وأخـرى تترك فيه جرحا. والقلب يتأثر بكل ما يـدخل إليـه من أبـواب الحواس، وبكل ما ينشأ داخله من نية وفكرة ورغبـة. ولـذلك لا يبقى صفاؤه ثابتا، بـل يتغـير مـع الـزمن، لا بالانتظـار، بـل بالاستجابة.

ومن أعمق ما في القلب أنه أصدق ما فيـك. العقـل قـد يقنعك أنك بخير، والقلب يعلم أنـك لسـت بخـير. العقـل قـد يصف شيئا بأنه منطقي، والقلب يشعر أنه ليس حقا. العقـل قد يحدثك عن نجاحك، والقلب يعلم أن نجاحك لم يصـل إلى روحك بعـد. لأن القلب لا يتـأثر بـالكلام، بـل بالحقيقـة. وكـل رحلات الوعي تبدأ منه، وتعود إليه.

ولأنـه مـرآة، فهـو يتلـون بين النـور والظلام. والنـور هنـا ليس حالـة غيبيـة غامضـة، بـل حالـة اتسـاق بين مـا تعرفـه الروح، وما يقـرره العقـل، ومـا يعيشـه الجسـد. أمـا الظلام، فليس شـرا مطلقـا، بـل غيابـا للوضـوح. تـتراكم في القلب أشـياء لم تقـل، ولم تفهم، ولم تسـامح، ولم تصـلح، حـتى يختنـق. ومن علامـات النـور أن القلب يلين، ومن علامـات الظلام أنه يقسو. واللين ليس ضعفا، بل قدرة على استقبال الحقيقـة دون انكسـار. والقسـوة ليسـت قـوة، بـل فقـدان القدرة على الإحساس.

ولهذا جاء الحكم القرآني حاسما:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

[الحج: ٤٦]

فالعمى الحقيقي ليس عمى العين. العين ترى الصورة، أما القلب فيرى المعنى. من فقد بصره قد يفقد الصور، لكنه قد يحتفظ بقلب يرى ما لا يراه المبصرون. أما من فقد قلبه، فقد يرى كل شيء، لكنه لا يرى معنى واحدا. ولذلك كان الفقدان الحقيقي، في ميزان القرآن، فقدان المرآة لا فقدان العين.

وبهذا تكتمل صورة القلب. مرآة بين الروح والوعي، تستقبل النور من أعلاها وتنقله إلى ما دونها. وصفاؤها هو الشرط الأول لوصول النور إلى العقل والجسد. والعمل عليها ـ تنظيفها، وتلطيفها، وحفظها من غبار التعلقات ـ هو لب التزكية التي مرت في الفصل السابق. فالروح قد تحمل النور كاملا، لكن القلب هو الذي يقرر: هل سيصل ذلك النور إلى حياتك... أم يبقى محجوبا خلف المرآة؟

العقل: مترجم القلب

إن كانت الروح هي النور، والقلب هو المرآة، فالعقل هو المترجم. لا يخلق المعنى، بل ينقله إلى لغة تستطيع أن

تفهمها وتعيش بها. لا يعرف الطريق من تلقاء نفسه، بل يقرأ إشاراته ويحولها إلى فكر وقرار. وحركة الإنسان اليومية كلها ـ قراراته، وخططه، واختياراته، وتفسيره لما يحدث له ـ تجري في طبقة العقل، بعد أن تكون الروح قد عرفت، والقلب قد استقبل. ولذلك يبدو العقل من الخارج كأنه القائد، مع أنه ـ في كثير من الأحيان ـ آخر من يصل إليه القرار.

ولأن العقل يتكلم بصوت عال، يخدع صاحبه أحيانا. يحلل، ويرتب، ويبني الحجج، ويقنع نفسه أنه بلغ الحقيقة بقوته الذاتية. لكنك إذا تأملت لحظات الطمأنينة الكبرى في حياتك، وجدت أنها لا تولد فيه. لا أحد يستنبط السكينة استنباطا. السكينة تمر عبر القلب قبل أن يصوغها العقل، فيكتشفها العقل بعد أن استقرت، ويمنحها الكلمات. وما يفعله العقل، في كثير من الأحيان، ليس صناعة القرار، بل صياغته.

ولهذا يلفت القرآن النظر إلى أدوات المعرفة كلها، لا إلى العقل وحده:

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾

[الإسراء: ٣٦]

تأمل: السمع، والبصر، والفؤاد. لم يـأت العقـل مسـتقلا. ذكر الفـؤاد ـ أي القلب ـ بوصـفه مركـز الاسـتقبال، وذكـرت الحـواس بوصـفها البوابـات. أمـا العقـل فحضـر ضـمنا، لأنـه الخادم الذي يترجم ما يدخل. ولذلك فالمسؤولية لا تقع على المترجم وحده، بل على ما أدخل إليه أصلا.

ولأن العقل مترجم، فهو يتشكل بما يترك له ليترجمـه. لا يولد مكتملا، بل يبنى من الخارج إلى الداخل. كلمـة سـمعت في الطفولـة قـد تصـير قاعـدة للحكم على النفس والعـالم. تجربة ألم لم تفهم قد تتحول إلى نظام كامل لتجنب الحياة. مدح عابر قد يصبح معيارا للقيمة، وذم متكرر قد يتحول إلى خوف دائم. المجتمع يزرع افتراضاته، والإعلام يـزرع صـوره، والناس يزرعون توقعاتهم، والعقل يجمـع كـل ذلـك بصـمت، حتى تتكون داخله عدسة يرى العالم من خلالها.

وهنا تبدأ المشكلة. لأن العقل يحب الاتساق، يتمسك بما آمن بـه مبكـرا. إذا تبـنى فكـرة، بـدأ يبحث عمـا يؤكـدها، ويضـعف مـا يخالفهـا. يضـخم الإشـارات الموافقـة، ويصـغر المعارضة، حتى يعيش الإنسـان داخـل «نسـخة عقليـة» من الواقع، يظنها الحقيقة الكاملـة، بينمـا هي قـراءة واحـدة من قراءات كثيرة. وهذا ما يختصره القرآن بكلمة عميقة:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾

[الإسراء: ٨٤]

والشاكلة ليست خطأ أخلاقيا يلام عليه الإنسان، بل البنية الداخلية التي تكونت فيه؛ الطريقة التي تعلم بها أن يرى ويفهم ويفسر. هي عدسته الخاصة. لكنها، في الوقت نفسه، ليست قدرا مغلقا. ما بني يمكن أن يعاد بناؤه. كل فكرة صادقة، وكل تجربة صفاء، وكل قراءة عميقة، وكل لحظة وعي، تترك أثرا جديدا في الشاكلة، فتتغير العدسة تدريجيا. العقل ليس صخرة ثابتة، بل طين يعاد تشكيله بما يدخل إليه.

ومن هنا يأتي خطر العقل حين ينقطع عن الروح والقلب. لأنه يقع في فخ قديم: أن يظن أن ما يرى ويقاس هو الحقيقة كلها. وتأمل قوله تعالى:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾

[الروم: ٧]

لم يصفهم بالجهل؛ بل قال: ﴿**يَعْلَمُونَ**﴾. لكن علمهم اقتصر على الظاهر، على طبقة واحدة من المشهد. والعقل الذي يكتفي بالظاهر لا يكون ضعيفا، بل مختزلا. يرى الكون آلة، والحياة صدفة، والإنسان مادة، ثم يلون بهذه الرؤية كل تفاصيل يومه، حتى يظن أن الظاهر هو الكل.

ولهذا فالمشكلة ليست في العلم، بل في اختزاله. العلم يكشف الكيف، لا الغاية. يخبرك كيف تتحرك النجوم، لا

لماذا. يـدرس الجسـد، لا الـروح. يحلـل الـدماغ، لا الضـمير. والعقـل الـذي يجعـل أدوات العلم وحـدها عدسـته للوجـود، يخسر كل ما لا يلتقطه المجهر.

وحين يســتقبل العقــل من القلب الــذي يســتقبل من الروح، يكتمل دوره. لا يعود سيدا منفصلا، بل يصـير جسـرا. ينقل ما تعرفه الروح، وما يشـعر بـه القلب، إلى لغـة تحـرك الجسـد في الواقـع. وهنـا تعـود كـل طبقـة إلى موضـعها الطبيعي في المنظومة.

وأي خلل في هذه السلسـلة ينعكس على بقيتهـا. فعقـل يـترجم بلا قلب يسـتقبل، قـد يـترجم وهمـه إلى يقين. وقـد يظن صاحبه أنه يـرى بوضـوح، بينمـا هـو لا يـرى إلا العدسـة الـتي صـنعها لنفسـه. ولـذلك ليسـت مهمـة العقـل أن يقـود وحده، بل أن يبقى موصولا بالنور الذي جاء من فوقه.

الجسد: مركبتك إلى الله

إن كـانت الـروح من أمـر ربـك، والقلب مـرآة تسـتقبل، والعقل مترجما، فالجسد هو الذي يخرج كل هذا إلى الفعـل. ما تعرفه الروح، ومـا يسـتقبله القلب، ومـا يترجمـه العقـل، يبقى باطنا ما لم يتحـرك جسـد. ولـذلك فالجسـد ـ رغم أنـه آخر طبقات الإنسان ـ هـو البـاب الـذي تخـرج منـه معرفتـك كلها إلى العالم. فيه تتحول المعاني إلى كلمات، والنيات إلى أعمال، والمحبة إلى عطاء، والإيمان إلى سجود.

ومع ذلك، فالجسد ـ خلافا لما يظن كثـيرون ـ ليس أنت. هو مركبتك. تركبه لتعبر هذه الـدنيا، فينقلـك من موضـع إلى موضـع، ويأكـل وينـام ويتعب ويشـفى ثم يفـنى. أمـا أنت، فشيء أعمق من ذلك. هويتك ليست الجسـد الـذي تسـكنه، بل الـروح الـتي تسـكنه. ومن خلـط بين الـراكب والمركبـة، خسر الرحلة من أولها.

ولهذا تستوقفك الآية:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾

[السجدة: ٧]

تأمل كلمة «بدأ». الإنسان بدأ من طين، ولم ينته عنـده. الجسد بداية التكوين، لا غايته. وكل من استقر عنـد الجسـد، فقد استقر عند البداية، كمن ينزل في محطـة على الطريـق ويحسبها وجهته الأخيرة.

ولأن الجسد مركبة، فقد خلق ليخدم، لا ليقود. لكن كثيرا من الناس يقلبون المنظومة؛ يجعلونه السيد، ثم يدور يومهم حول راحته وشهواته ومطالبه. وحينها تنقلب السلسلة كلهـا: تتبع الروح القلب، ويتبع القلب العقل، ويسخر العقـل نفسـه لتـبرير مـا يشـتهيه الجسـد. فتصـير الرحلـة كلهـا في خدمـة مركبة لا تعرف الطريق.

ومع ذلك، فالجسد ـ على بساطته ـ صادق في طبيعته. لا يجيد التمثيل طويلا. ما يجري في الداخل يظهر عليه، شئت أم أبيت. خوف الروح يصير انكماشا في الصدر، وغضب القلب يصير توترا في الكتفين، وحيرة العقل تصير أرقا في الليل، والسكينة تتحول إلى اتساع في النفس، والفرح إلى خفة في الخطى. ولذلك فالجسد ليس غطاء يخفيك، بل مرآة تكشفك. وأدق طريق لمعرفة موضع الإنسان من نفسه ليست في ما يقوله عنها، بل في ما تفعله جوارحه.

ولهذا يلفت القرآن النظر إلى السلوك بوصفه مرآة للباطن، لا قرارا مستقلا:

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ﴾

[الإسراء: ١٠٠]

اليد هنا تمسك، لكن الإمساك ليس قرار اليد، بل خوف القلب. والقلب الواثق يعطي، والقلب الخائف يقبض. الجسد لا يستقل بالفعل، بل ينقل ما فيه. ومن أراد أن يصلح الثمرة دون أن يعمل على الشجرة، أتعب نفسه طويلا.

ويذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «أَلا وإنّ في الجسد مُضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب».[7] وهذه الجملة تكشف القانون

[7] متفق عليه؛ رواه البخاري في صحيحه (كتاب الإيمان) ومسلم (برقم ١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير. يضبط رقمه ولفظه من

كله. الجسد لا يتحرك وحده، بل يتحرك بما يمر إليه. صـلاحه ثمرة، وفسـاده ثمـرة، والعمـل عليـه يبـدأ من الـداخل قبـل الخارج.

لكن هذا لا يعني أن الجسد قليل الشأن. بل هو أمانة. لم يخلق ليستعبد، ولم يخلق ليهان. خلق ليخدم الرحلة. تطعمه ما يكفيه، وتريحه حين يتعب، وتحفظ قوته، وتمنحه حقه من النوم والغذاء والحركـة. ليس لأنـه الغايـة، بـل لأنـه المركبـة التي تحملك إلى غايتك. حق الجسد عليـك أن تحترمـه، لا أن تعبده.

وحين يعرف الإنسان موضع جسده على هذا النحو، يتغير شيء في حركته اليومية. كلماته تكتسـب وزنـا، لأنهـا تخـرج من صدر أهدأ. وخطواته تكتسب ثباتا، لأنها تنطلق من قــرار لا من اضطراب. وصلاته تكتسب حضورا، لأن الجسد فيهـا لا يعمل وحده. وحتى عمله اليومي يكتسب معنى جديـدا، لأنـه لم يعد حركة مجردة، بل ترجمة نية واتجاه.

وهنا يكتمل المشهد. ما كـان متفرقـا في الـداخل يخـرج في الخارج حياة واحدة.

الجسـد ليس حجابـا في الطريـق إلى اللـه، بـل الجسـر الذي تعبر به إليـه. ليس انقطاعـا عن الرحلـة، بـل مركبتهـا. وما تفعله به، ومن خلاله، هو ما يمنح مـا في داخلـك صـورة

طبعة معتمدة عند الإخراج النهائي.

ترى. فالجسد ـ بهذا الفهم ـ لا يعود عبئا على الروح، بل شريكا في سيرها، ومركبة تحملها إلى من خلقها.

الانسجام: حين تعمل الأبعاد كواحد

لم تكتمل صورة الإنسان حين فككناه إلى أبعاد، بل حين أعدنا تركيبه. فالتفكيك منهج للفهم، لا غاية. ولكي تعرف نفسك حقا، لا تنظر إلى الأبعاد الأربعة كأجزاء منفصلة، بل كطبقات متداخلة، كل طبقة تستقبل مما فوقها، وتمرر إلى ما دونها.

تخيل المنظومة تدفقا ينزل من الأعلى إلى الأسفل. الروح في الأعلى، متجهة إلى ربها، تحمل نور الفطرة وذكر الميثاق. القلب يليها، يستقبل ما تحمله إليه. العقل يلي القلب، يترجم ما وصل إليه إلى معنى مفهوم. والجسد في الأسفل، يخرج كل ذلك إلى الفعل. النور ينزل من عالم الأمر، يعبر الطبقات الأربع، ثم يظهر في صورة حياة. هذا هو الإنسان حين يعمل كما خلق ليعمل.

لكن المنظومة لا تبقى دائما في اتجاهها الطبيعي. حين يحدث الانسجام، تنتظم الطبقات في خط واحد، وينزل المعنى من الروح إلى الجسد دون أن يتشوه في الطريق. يستقبل القلب ما تعرفه الروح، ويفهم العقل ما يمر إليه، وينفذ الجسد ما استقام في الوعي. وفي هذه اللحظة، لا

تعود بينك وبين نفسك مسافة. تفعل ما تعـرف، وتعـرف مـا تفعل.

وحين يختل الانسجام، تنفلت الطبقات. تعرف بعقلك مـا يريده قلبك، ويطلب قلبـك مـا لا تسـتطيع روحـك أن تطمئن إليه، وتدفع جسدك إلى ما لا يطلبه أي منهم. كل بعـد يعمـل وحده، وكل في اتجاه. تخرج الحركـة، لكنهـا بلا مركـز. تنـام فتستيقظ متعبا. تحقق هدفا فلا تدوم نشوته. تجمـع فلا تجـد في داخلك من يستقبل ما جمعت. ذلـك لأن الجسـد تحـرك، لكن المعنى الـذي تحـرك لأجلـه لم يبلـغ الـروح. وحركـة بلا وصول، تعب بلا ثمرة.

وللاختلال صور كثيرة. أكثرهـا شـيوعا أن يسـتقل العقـل عما فوقه. يرفع صوته، ويرتب أدلته، ويقـرر، ويـدفع الجسـد إلى التنفيـذ، دون أن يـنزل إليـه شـيء من القلب أو الـروح. هذا عقل يترجم وهمه إلى يقين. يحسب صـاحبه أنـه يبصـر، وهو يسير في عتمة.

ومن صـور الاختلال أيضـا أن يسـتقل القلب عمـا فوقـه، فيستقبل من الدنيا مباشـرة، ويتلـون بألوانهـا، ثم يمـرر إلى العقل ما لونته، فيعيد العقل ترجمة الصـورة المشـوهة على أنها حقيقـة. وقـد يسـتقل الجسـد هـو الآخـر، فيعمـل بـدافع الشهوة المجردة، ويصير قائدا بعد أن خلق ليكون مركبة.

والقرآن يجمع هذا الانسجام كله في اسـم واحـد: القلب السليم.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

[الشعراء: ٨٨–٨٩]

السلامة هنا ليست خلوا من المرض، بل اتساقا في المنظومة. قلب يستقبل من الروح بلا حجاب، ويمرر إلى العقل بلا تشويش، ويسلم إلى الجسد بلا تناقض. وحين تأتي الله بقلب سليم، لا تأتيه بعقل ذكي وحده، ولا بجسد كد طويلا، ولا بمشاعر عاشت وحدها، بل تأتيه بإنسان اكتمل اتجاهه.

ولأن هذه السلامة لا تحدث صدفة، فهي مشروع. مشروع عمر تهذب فيه كل بعد، ثم تعيد وصله بما فوقه وما تحته. تزكية الروح تنير القلب. وصفاء القلب ينير العقل. وصلاح العقل يهدي الجسد. وكل طبقة تخدم ما دونها، وتستمد نورها مما فوقها.

وهذا هو الميزان الذي ينقل النفس نحو المقام الذي مر بك في الفصل السابق: النفس المطمئنة. فالطمأنينة ليست شعورا يدخل من الخارج، بل انسجاما ينبع من الداخل. وحين تعمل الأبعاد كواحد، يهدأ الضجيج، ويستقيم الاتجاه، وتجد نفسك أقرب إلى من خلقك.

* * *

ميزان السعي بحدود المعطى

لكن صورة الإنسان لا تكتمل بمعرفة أبعاده وحدها، لأن هذه الأبعاد نفسها لا تتوزع بين البشر على صورة واحدة. فمع أن الأصل واحد، إلا أن القابليات والطاقات والبدايات ليست سواء.

وقبل أن نغادر هذا الفصل، يبقى ميزان آخر يستحق أن يستقر في وعيك. فحين قلنا إن الإنسان منظومة من أبعاد أربعة، لم نقل إن هذه الأبعاد متساوية بين الناس. الروح، بوصفها النفخة الإلهية، أصل مشترك لا يختلف جوهره من إنسان إلى آخر. أما ما عداها، فليس كذلك.

الجسد يختلف قوة وضعفا، وصحة واعتلالا، وقدرة واحتمالا. والعقل يختلف في بنيته، وسرعة معالجته، وطريقة فهمه للعالم. والقلب يختلف في سعته الوجدانية، وفي ما حملته التجارب فيه من طمأنينة أو قلق، وقوة أو هشاشة، وقدرة على الاحتمال أو سرعة في الانكسار. وهذه الفروق لا يصنعها الإنسان ابتداء، بل يرث بعضها، ويتشكل بعضها الآخر من بيئته، وخبراته، وما أحاط به منذ بداياته الأولى.[8]

[8] تقدر دراسات التوائم والتبني أن ما بين ثلاثين وستين في المئة من الفروق بين الناس في سمات الشخصية والمزاج يرجع إلى عوامل وراثية، وأن بقيتها تتشكل بالبيئة والخبرة. وهذا يشخص اختلاف نقاط البداية، ولا ينفي المسؤولية عن السعي. انظر: R. A. Power & M. Pluess, “Heritability Estimates of the Big Five Personality Traits Based on Common Genetic Variants,” Translational Psychiatry, 2015.

وهذا يعني أيضا أن الناس لا يبدؤون الرحلة من النقطة نفسها. فمنهم من يبدأ وقلبه أهدأ، ومنهم من يبدأ وعقله أكثر اضطرابا، ومنهم من يدخل الحياة حاملا جراحا لم يخترها، أو ظروفا لم يصنعها، أو بيئة صاغت جزءا من شاكلته قبل أن يملك وعيه. ولهذا لا تقرأ رحلة إنسان بميزان رحلة إنسان آخر، ولا يصلح أن يوضع الساعي المثقل على الميزان نفسه الذي يوضع عليه من بدأ طريقه ميسرا.

ومن هنا يتضح وجه عميق من العدالة الإلهية. فالتفاضل الحقيقي بين البشر لا يقوم على حجم القدرات، ولا على صورة النتائج الظاهرة، بل على السعي داخل حدود ما أوتي الإنسان من قدرة وظرف وقابلية. فالقيمة، في ميزان الله، لا تنبع من صورة ما وصلت إليه، بل من صدق ما بذلت للوصول. وقد يبذل إنسان محدود القابليات جهدا وجوديا أعظم من جهد إنسان آخر أوتي قدرة أوسع وظروفا أيسر، وإن بدا أثره في العين أقل.

ولهذا لم يجعل القرآن الميزان في ما ملكت، بل في ما سعيت:

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾

[النجم: ٣٩–٤٠]

ويؤكد هذا الميزان في مشهد الحساب:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾

[طه: ١٥]

بهـذا الفهم، لا يعـود اختلاف النـاس في قـدراتهم مـدخلا للاستعلاء، ولا للمقارنات السـطحية، بـل مـدخلا لفهم أعمـق للمسـؤولية. السـؤال الـذي يفصـل بين النـاس ليس: مـاذا أعطيت؟ بل: ماذا فعلت بما أعطيت؟

وهنا يبرز دور الإرادة. لا بوصفها قوة نفسية مجـردة، بـل الموضع الذي يتحول فيه مـا أعطي الإنسـان إلى مـا يصـنعه بنفسه. فالإرادة هي الجسر بين القابليـة والسـعي، وبين مـا ولد به الإنسان وما اختاره. وستأتيك فصول لاحقـة تسـتوفي هذا المفهوم، لكنـه يسـتحق أن يسـتقر في وعيـك من الآن: فالقابليـــة بلا إرادة تبقى إمكانيـــة، والســـعي بلا إرادة يبقى حركة.

لكن اختلاف القابليات لا يلغي المسؤولية، كما أن تفاوت البـدايات لا يعفي من الاختيـار. ففي عـالم لا تتسـاوى فيـه الظـروف، يبقى السـعي هـو الموضـع الـذي يلتقي فيـه مـا أعطي الإنسان بما يصنعه بنفسه.

ومن هنا تتضح حقيقة أعمق. اختلاف القابليات، وتفـاوت البدايات، وتباين النتائج، ليس خللا في نظام الوجود، بل جزء من بنيتـه. فالحيـاة لم تبن على التماثـل، ولم تصـمم لتكـون ساحة تسـاو شـكلي. خلقت للحركـة، وللاحتكـاك، وللاختلاف الذي يكشف، وللأضداد التي تكون. والإنسان لا ينضـج خـارج هذا النظـام، بـل داخلـه. ولـذلك فهـو لا يطلب منـه أن يلغي الأضداد، بل أن يتعلم كيف يرتقي داخلها.

* * *

في الختام

بـدأنا هـذا الفصـل بسـؤال بسـيط: مم تـتركب نفسـك؟ والآن، بعد أن عبرنا الأبعاد الأربعة، تتضح الصورة. أنت لست كائنـا بسـيطا من طبقـة واحـدة، بـل منظومـة من أبعـاد متداخلة: روح من أمر ربك، تحمل فطرتك وذاكـرة ميثاقـك؛ وقلب يستقبل ما تنقله الـروح، ويتلـون بصـفائها أو بغبارهـا؛ وعقل يترجم ما يسـتقبله القلب إلى معـنى مفهـوم، ويعمـل وفق شاكلته التي بـنيت فيـه عـبر الـزمن؛ وجسـد يخـرج مـا اكتملت ترجمتـه إلى الفعـل، أمانـة تحملهـا في الطريـق، لا هوية تختصر حقيقتك.

وليست هذه الأبعاد أجزاء مفصـولة، بـل منظومـة تعمـل معا. النـور يـنزل من أعلى، يمـر بكـل طبقـة، ثم يخـرج في صـورة حركـة. حين تنسـجم، تفعـل مـا تعـرف، وتعـرف مـا

تفعل، ولا تجد بينك وبين نفسك مسافة. وحين تختـل، تنفلت الطبقـات، فتخـرج الحركـة بلا مركـز، والعمـل بلا معـنى، والتعب بلا ثمرة. والقرآن يسمي حـال هـذا الانسـجام القلب السليم، ويجعله ما ينفع يوم لا ينفع مال ولا بنون.

ولأن السلامة بين الأبعاد لا تحـدث صـدفة، فهي مشـروع عمر. وبهذا الـترتيب تـنزل النفس، شـيئا فشـيئا، نحـو مقـام النفس المطمئنة الذي مر بك في الفصل السابق؛ لا بوصف الطمأنينـة شـعورا عـابرا، بـل حالـة اتسـاق داخلي بين مـا تعرفه، وما تريده، وما تفكر فيه، وما تفعله.

وهكذا تعـود إلى مـا بدأتـه في الفصـل السـابق: نفسـك مشروعك الأول. لكنك تعرف الآن مم يتكون هذا المشـروع، وكيف تعمل طبقاته، ولماذا لا يكتمل إلا بانسجامها.

ومن هذه اللحظة، يتغـير السـؤال. لا تسـأل «من أنـا؟»، بل: «أي بعد غلب على بقيتي؟ وأي بعد أهملته حـتى ضـعف صوته؟».

ويبقى السـؤال الـذي يفتح البـاب لمـا بعـده: إذا عـرفت أبعادك الأربعة، فما القوى التي تعمل عليها من خارجهـا؟ مـا السنن الـتي تـدفعها إلى الحركـة، وتكشـف صـدقها، وتختـبر صلاحها؟ هذا ما يفتحه الفصل القادم: سنن الوجود.

* * *

وقفة تأمل

قبل أن تطوي هذا الفصل، انظر إلى أبعادك الأربعة كما هي فيك اليوم، لا كما تتمناها: أيها استبد ببقيته فصار يملي عليك؟ أعقل يحلل كل شيء حتى أطفأ قلبك، أم قلب تقوده الانفعالات بلا بصيرة، أم جسد صار سيدا بعد أن خلق مركبة، أم روح غطيت بالغبار حتى كاد صوتها يخفت؟ وأي بعد منها ينتظر منك أن تعيده إلى موضعه قبل أن تغلق هذه الصفحة؟

* * *

ملاحظة للقارئ: ما عرضناه هنا مدخل إلى الأبعاد الأربعة، لا تفصيلها. فكل بعد منها يستحق فصلا يستوفيه، وستأتيك هذه الفصول بعد فصل «سنن الوجود»، الذي ينير لك القوى التي تعمل عليك من خارجك قبل أن ندخل إلى تفصيل كل بعد في داخلك. ولهذا، إذا استوقفك في هذا الفصل سؤال عن بعد بعينه؛ الروح، أو القلب، أو العقل، أو الجسد، فلا تستعجل الجواب. الأسئلة التي تنبت الآن، تحضر التربة لما يأتي.

الفصل الرابع — سنن الوجود

✦

القسم الأول: تمهيد

ختمنا الفصل السابق على اكتشاف بسيط في صياغته، عميق في أثره: أبعادك الأربعة ـ روحك، وقلبك، وعقلك، وجسدك ـ تعمل كمنظومة واحدة تنزل من الأعلى إلى الأسفل. هذا هو ما يجري في داخلك.

لكنك لا تعيش داخلك وحدك. هناك عالم من حولك، يدفعك ويسحبك، ويلين لك أمورا ويصعب عليك أمورا أخرى، ويمنحك ما لم تطلب، ويمنعك ما طلبت. وأنت في وسط هذا كله تتساءل: هل ما يحدث لي صدفة؟ هل ثمة نظام يحكم هذا الكون أصلا، أم هي فوضى مدفوعة بقوى لا ترى؟

السؤال ليس فلسفيا فقط، بل عملي. فنظرتك إلى ما يحدث لك تحدد طريقة استجابتك له. من يرى الكون فوضى يعيش في قلق دائم، لأن كل شيء يمكن أن ينهار في أي لحظة. ومن يرى الكون نظاما يعمل بقوانين يفهم موضعه فيه، فيستكين، ويتحرك بوعي، ويختار معاركه.

الكون لا يعمل بمزاج، بل بسنن.

السنن ـ في لسان القرآن ـ هي القوانين الإلهية الثابتة التي يجري بها هذا الوجود. ليست مجرد قواعد فيزيائية، بل نظام متكامل يشمل حركة الكواكب، ونمو الخلايا، وتشكل الأجنة، وصعود الأمم وهبوطها، وحتى تجاربك أنت في يومك. سنن لا تحابي أحدا، ولا تتخلف لحظة واحدة، ولا تتبدل من شخص لآخر.

﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا**﴾ [فاطر: ٤٣]

تأمل التأكيدين: «لن تجد تبديلا»، «لن تجد تحويلا». هذا حسم في خبر، لا تلميح ولا احتمال. والقرآن يعيد هذه الفكرة في مواضع كثيرة، حتى تستقر في وعي الإنسان: الكون قائم على نظام، لا على مزاج، ولا على عواطف، ولا على محاباة.

ولأن النظام دقيق، فإن كل شيء فيه له مقداره وحكمته:

﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩]

لا شيء فيك زائد، ولا شيء ناقص. كل ذرة في وجودك، وكل حدث في يومك، وكل ظرف من ظروفك، يقع داخل هذا النظام. لو تأملت هذا حقا، لتغير شيء في طريقة استقبالك للحياة.

لكن الإنسان ـ في الغالب ـ لا يـرى السـنن. يـرى ظـاهر الأحداث ويحكم منه: نجاح هنـا، فشـل هنـاك، حـظ أصـابني، حـظ تجـاوزني. ثم يبـني على هـذا الظـاهر مشـاعر كاملـة: العتب، والشـكوى، والمقارنـة، والقلـق. وكـل ذلـك ينبـع من رؤية مختزلة لما يحدث.

تعال نضع تعريفا نتفق عليه قبل أن نمضي:

السـنة الإلهيـة: «قـانون كـوني ثـابت، أودعـه اللـه في الوجود، يجري على جميع الكائنـات بالعـدل دون محابـاة، ولا يتبدل ولا يتحول».

هذا التعريف يحمل ثلاث سمات تستحق التوقف:

الثبات: السنة لا تتغير بتغـير الأشـخاص أو الأزمنـة. سـنة الأسباب اليوم هي سنة الأسـباب قبـل ألـف سـنة، وسـتبقى كذلك.

العموم: لا تحابي السنة أحدا. تجري على المـؤمن وغـير المؤمن، على الغني والفقير، على من نعرفه ومن لا نعرفه.

الحكمـة: السـنة ليسـت عملا أعمى. هي موضـوعة بعلم ولطف، حتى وإن خفيت علينا حكمها أحيانا.

ولكن، إن كان الكون يعمل بنظـام دقيـق، فلمـاذا تشـعر أنت أحيانا أن الحياة «ضدك»؟

هذا الشعور حقيقي، لا تنكره. يأتيك حين ينهار مشروع كدحت عليه سنوات، أو حين تخسر شخصا أحببته، أو حين تفتح هاتفك صباحا فتجد خبرا يقلب يومك. تتجه ببصرك إلى السماء وتسأل في صمتك: لماذا أنا؟ لماذا الآن؟ ما الذي فعلته لأستحق هذا؟

والإجابة ليست في الحدث، بل في زاوية النظر إليه.

أنت تنظر إلى الحدث من داخله، وفي لحظته. ترى ما خسرت، ولا ترى ما يبنى. ترى الجدار، ولا ترى الباب الذي خلفه. ترى السقطة، ولا ترى أنك كنت تنحدر إلى ما هو أسوأ لو بقيت تمشي. أما السنن، فتعمل على مدى أوسع بكثير من زاوية رؤيتك. تعمل في الزمن، وفي العواقب، وفي ما تكشفه عنك المواقف، وفيما يصلح في داخلك بعد أن ينكسر شيء خارجك.

ومن هنا تنبع المفارقة: حياتك تجري وفق نظام متقن، وأنت تشعر أنها فوضى. ليس لأن النظام مفقود، بل لأن زاويتك محدودة. ولذلك فإن الخطوة الأولى نحو الطمأنينة ليست أن يتغير ما يحدث لك، بل أن تتغير رؤيتك لما يحدث.

في هذا الفصل سنكشف لك ملامح هذا النظام في خمس خطوات:

سنفتح أولا قانون العلية، الذي يؤكد أن كل شيء في هذا الكون يحدث بسبب ـ لا بصدفة ولا بعبث. ثم ننتقل إلى

قانون القابليات، حيث تكتشف أن صفاتك ليست إضافات عليك من الخارج، بل هي ذاتك أنت. ثم نفهم في قانون الإرادة الواحدة كيف أن فيض الله واحد ينزل على الجميع، لكن الأوعية تستقبله بمقادير مختلفة. وفي قانون التدافع نرى كيف صنع الله الأضداد ليحفظ بها التوازن. وأخيرا، نكشف وهم الشر، ونرى لماذا ليس الشر وجودا قائما بذاته، بل غياب نور.

وحين تخرج من هذا الفصل، لن تكون قد عرفت القوانين فقط، بل ستكون قد عرفت موضعك فيها. والموضع ـ كما رأيت في الفصل الثالث ـ هو نصف الجواب.

القسم الثاني: قانون العلية

تأمل في يومك العادي. تستيقظ في وقت محدد لأنك ضبطت المنبه. تحتسي قهوتك فتشعر باليقظة لأن الكافيين فعل فعله. تقود سيارتك بأمان لأنك تلتزم بقواعد الطريق. تفتح هاتفك فيستجيب لأنك شحنته أمس. كل هذا يمضي دون أن تتساءل، لأن في وعيك المسبق قاعدة صامتة لا تكاد تشعر بها: كل شيء يحدث بسبب.

تحاول أن تخالف هذه القاعدة لحظة، تجد نفسك أمام مواقف لا تقبل. لو أخبرك أحد أن سيارتك انطلقت دون أن يلمسها أحد، لاستنكرت. ولو قال شخص إن بيته احترق بلا

ســبب، لطلبت التحقيــق. عقلــك مجبــول على أن يطلب السبب، لأن السبب جوهر النظام.

هذه الحقيقة، التي ينطلق منهـا العقـل تلقائيـا في حياتـه اليومية، يسميها العلماء قانون العلية:

قـانون العليـة: «كـل موجـود ممكن في الكـون لـه علـة أوجدته، ولا يتخلف هذا القانون أبدا».

ولأن هـذا القـانون أسـاس في الوجـود، فـإن القـرآن لا يجـادل فيـه، بـل يبـني عليـه. وقـد رأيت في التمهيـد قولـه سبحانه ﴿**إِنّا كُـلَّ شَـيءٍ خَلَقنـاه بقَـدَر**﴾؛ كـل شـيء، لا استثناء. كل شيء في الوجود ـ من حولك، ومـا حولـك، ومـا يجري لك ـ له مقدار ومعادلة، ينبع من سبب، وينتج عنه أثر. ليس في الكـون صـدفة، ولا في حياتـك عشـوائية. مـا تـراه صدفة هو ببساطة سبب لم تره أنت.

فلماذا يهمك أن تفهم هذا؟

لأن كثـيرا من ضـيقك في الحيـاة ينبـع من نسـيانك لهـذا القانون. تحدث الأحداث، فتنفعل، فتنسى أن خلفها سلسلة. تنظـر إلى شـخص نجح، فتقـول «حـظ». وإلى آخـر فشـل، فتقـول «ظـرف». وإلى نفسـك حين تتـألم، فتقـول «لمـاذا أنا؟». كأن الأحداث تنزل عليـك من سـماء عشـوائية، تختـار من تشاء.

والحقيقة أنها لا تنزل عشوائيا. لكل نتيجة في حياتك سبب ـ أو سلسلة أسباب ـ بعضها في يدك، وبعضها خارجها. وأنت لا تملك تغيير كل الأسباب، لكنك تملك تغيير بعضها. والفرق بين إنسان يفهم العلية وإنسان ينساها: الأول يركز على ما يملك تغييره، والثاني يستنزف نفسه في الشكوى مما لا يملك.

لكن هل العلية تلغي إرادة الله؟

سؤال مشروع، وكثيرا ما يختلط الأمر فيه. إذا كان لكل شيء سبب، فأين الله؟ هل صنع الكون وتركه يعمل وحده كالساعة بعد ضبطها؟

الجواب: لا. الله هو الذي أوجد قانون العلية، وهو الذي يحفظه قائما في كل لحظة. الأسباب لا تعمل بنفسها، بل بإذنه. هي وسائله في تدبير الكون. وحين يريد أن يفعل فعلا، يفعله من خلال الأسباب، لا في غفلتها.

هذا الفهم يحفظك من خطأين شائعين. الخطأ الأول: أن تنظر إلى الكون كآلة مفصولة عن الله، تعمل وحدها. والخطأ الثاني: أن تنتظر من الله أن يفعل لك الأشياء بلا أسباب، فتترك السعي وتكتفي بالدعاء. الفهم الصحيح: الأسباب موجودة وحقيقية، والله موجود ومدبر. تأخذ بالأسباب لأن هذه سنتك، وتتوكل على الله لأنه مسبب الأسباب. كما قال أمير المؤمنين علي (ع) في قول شهير: «أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها».

لكن السبب ليس دائما واضحا.

هـذا أيضـا جـزء من الفهم. أنت تـرى السـبب القـريب: المطر ينزل، فينبت الزرع. لكنك لا تـرى السـبب البعيـد: مـا الذي جعـل المطـر يـنزل في هـذا اليـوم تحديـدا، على هـذه القطعـة من الأرض تحديـدا، بهـذه الكميـة تحديـدا؟ سلسـلة الأسباب تمتـد إلى مـا لا تحيـط بـه. ولـذلك حين يحـدث لـك شيء لا تفهم سببه، فالخطأ ليس في غياب السبب، بـل في حدود رؤيتك.

تأمل في ما يقوله الإمام علي (ع) ـ وهو يختصر الحكمـة في كلمتين: «عَرَفتُ الله بفَسخ العَزائم».[9] أي إنه كان كثيرا ما يعزم على شيء بكل يقين، ثم يجد العزم ينفسخ ولا يتم. فيفهم من ذلـك أن خلـف عزمـه عزمـا أكـبر، وأن السـبب الأخير ليس إرادته هو، بل إرادة الله الجارية في الأسباب.

فماذا يعني هذا في يومك؟

يعني ثلاثة أشياء عملية:

أولا: حين يصـيبك مـا لا تحب، لا تسـتعجل بـالحكم على «لمـاذا». اطلب الأسـباب أولا ـ في نفسـك، وفي محيطـك، وفي قراراتك السابقة. ابدأ من ما يدك، لا مما فوقها.

[9] نهج البلاغة، من قصار الحكم؛ ولفظها الأتم: «عَرَفتُ اللـهَ سـبحانه بفَسخ العَـزائم وحَـلِّ العُقـود ونَقض الهِمَم». ورواه الشـيخ الصـدوق في الخصال بإسناده عن الإمام الصادق عن آبائـه (عليهم السـلام) عن أمـير المؤمنين (عليه السلام). يضبط رقمهـا ولفظهـا من طبعـة معتمـدة عنـد الإخراج النهائي.

ثانيا: لا تطلب من الله أن يلغي السنن لك. اطلب منه أن ييسر لك الأسباب، أن يفتح لك أبوابا، أن يدفع عنك أسبابا أخرى. هذا فهم أنضج للدعاء، سنعود إليه لاحقا.

ثالثا: حين لا تفهم لماذا حدث ما حدث، اعلم أن السبب موجود وإن غاب عنك. غيابه عن رؤيتك لا يعني غيابه عن الوجود. وهذا يختصر لك مسافة طويلة من القلق.

وحين تستقر هذه الفكرة فيك، تتغير علاقتك بالأحداث. لا تعود تراها هجمات عشوائية من قدر غامض، بل ثمرات من أسباب ـ بعضها صنعته أنت، وبعضها صنعه غيرك، وبعضها صنعته يد الله. وفي كل الأحوال، لها منطق وراءها، حتى لو لم تستوعبه الآن.

ويفتح هذا الفهم بابا جديدا: إذا كان كل شيء بقدر، فما موضعك أنت تحديدا في هذا التقدير؟ لماذا أنت بهذه الصفات بالذات، وليس بصفات أخرى؟ ولماذا تملك ما تملك، وتفتقد ما تفتقد؟

هذه أسئلة لها جواب. وهو ما سنفتحه في القسم القادم.

القسم الثالث: قابلياتك هي وجودك

ثمة سؤال يزور الإنسان في ساعة ضعفه، أو حين يطول وقوفه أمام المرآة، أو حين ينظر إلى أتراب طفولته فيجدهم قد أدركوا ما لم يدركه، فيهجم عليه السؤال كأنه

اتهام في طيه شكوى: لماذا خلقت هكذا؟ لماذا لست أطول قامة، أو أنفـذ ذهنـا، أو أوسـع حيلـة، أو أجمـل وجهـا؟ لمـاذا ولدت في هذا البيت لا في بيت آخر، وفي هذا الــزمن لا في زمن غيره، وفي هذه البلدة لا في بلـدة أكـثر سـعة؟ ولمـاذا أملك ما أملك من حدود، بينما يملك غيري أوسع منهـا؟ يبـدو السؤال في ظاهره موجها إلى الله، يطلب منه جوابـا، لكنـه في الحقيقة موجه إلى سوء فهمنا لطبيعة الوجود نفسه.

نحن، في طيـات خفيـة من تصـورنا، نتخيـل أن الإنسـان يخلق أولا كذات مجـردة عاريـة من الصـفات، ثم تلقى عليـه الصـفات من الخـارج إلقـاء، فيأخـذ هـذا قـدرا من الجمـال، ويأخذ ذاك قدرا من الذكاء، وينـال ثـالث مـا لم ينلـه الأولان، وتختلــف الأقــدار بين النــاس كأنهــا أوراق تــوزع في لعبــة، يكسب فيها قوم ويخسر آخرون. هذا التصـور الخفي هـو مـا يجعل سؤال «لماذا أنا هكـذا؟» يبـدو مشـروعا في ظـاهره، موزونا في صوغه، عدلا في رفعـه. لكنـه، في عمقـه، ينبـني على وهم لا أصل له في حقيقة الوجود.

فـإن الحقيقــة الوجوديــة أعمــق ممــا يبــدو لأول وهلــة: صـفاتك ليسـت شـيئا أضـيف إلى ذاتـك، صـفاتك هي ذاتـك نفسها. ليس بينـك وبين مـا فيـك جـدار يفصـل، يجعلـك أنت كائنا مجـردا في طـرف، والصـفات كائنـات ملصـقة بـك في طرف آخر. ملامح وجهـك ـ مثلا ـ هي وجهـك نفسـه، ليسـت شيئا مضافا إليه؛ بل هي حدوده وأوصافه. والجسم هـو ذاتـه

امتـداده وحجمـه وكتلتـه، لا شـيء سـواه. وكـذلك أنت. ملامحك، طبائعك، حدودك، استعداداتك، ميولك، نقاط قوتـك ونقـاط ضـعفك ـ كلهـا مجتمعـة هي «أنت». ولـو رفـع منهـا شيء واحد، أو بدل بآخر، لما بقي «أنت» على ما أنت عليه؛ بل لظهر شخص آخر بكامله.

تأمل في أصل وجـودك تـأملا بطيئـا. أنت لم تهبـط على الدنيا فجأة منتظرا أن تضـاف إليـك الصـفات، بـل كنت منـذ اللحظة الأولى نتيجة سلسـلة من الأسـباب الدقيقـة الـتي لا يعلم تفاصيلها إلا الـذي قـدرها. حيـوان منـوي واحـد من بين مئـات الملايين، اختـاره مـيزان القـدر دون إخوتـه. بويضـة واحدة من بين مئات أطلقتها مبايض أمك على مدى سـنوات من عمرها. لحظة زمنية بعينها، لـو تـأخرت ثانيـة واحـدة، أو تقدمت ثانية واحدة، لكان الذي يدخل المشهد إنسانا غـيرك. بيئـة بيولوجيـة كاملـة، بضـغطها وحرارتهـا وجيناتهـا، كلهـا أسهمت في تشكيلك أنت، لا غـيرك. ولـو تغـير عنصـر واحـد في هذه السلسـلة الممتـدة، لخـرج إلى الـدنيا إنسـان آخـر، يحمل اسمك ربما، لكنه ليس أنت.

وهذا الذي قررناه ليس خاصا بك أنت، بل قاعدة سـارية في كل ما يجري في هذا الوجـود. كـل مخلـوق في الكـون ـ من الذرة إلى المجـرة، ومن الحجـر إلى الإنسـان ـ لـه علـة أوجدته، وهذه العلـة هي الـتي حـددت صـفاته بنفس عمليـة إيجاده. لا انفصال بين الإيجاد والصفات. القانون الـذي يحكم

هذا كله هو قانون العلية، أو ما يسمى بالسبب والمسبب؛ نظام صارم أودعه الله في تكوين الوجود، يجعل لكل شيء سببا ينشأ منه، ولكل سبب مسبباته الطبيعية. تأمل: لو سقط حجر على بيضة فلم يكسرها، لما كان الحجر حجرا، ولما كانت البيضة بيضة. الحجر يكسر لأن الكسر هو ما يكون به الحجر حجرا في صفاته الحقيقية، والبيضة تنكسر لأن الانكسار هو ما تكون به البيضة بيضة في حدودها الطبيعية. هكذا تتفاعل الموجودات وفق ما تحمله من صفات، وهذا التفاعل بعينه هو ما ينتج القوانين التي تحكم الكون.

وهنا تكشف لك عبارة خفية في غاية العمق. القوانين والسنن التي تكلمنا عنها ـ التي يجري بها الكون ـ ليست في الحقيقة كيانات مستقلة قائمة بذاتها، مفروضة على الموجودات من خارجها. هي انعكاس لتفاعل صفات الموجودات نفسها. منتزعة من سلوكها، لا مفروضة عليها. الجاذبية ليست قانونا مكتوبا في كتاب كوني أجبر الكتل على الانجذاب، بل هي وصف لما تفعله الكتل بطبيعتها. الماء ينزل من المرتفع إلى المنخفض، لا لأن هناك قانونا يجبره، بل لأن هذا ما تقتضيه طبيعة الماء وطبيعة الجاذبية في تفاعلهما. النار تحرق لا لأن «قانونا» يأمرها بذلك، بل لأن هذا ما تكون به النار نارا.

والمعنى الذي ينفتح من هذا الفهم عميق. القوانين ليست قيودا، بل أوصاف لقدرات الأشياء. تخبرك كيف يتفاعل الوجود، لا كيف يعاقبك. تظهر حدودك كإنسان، لا حدود الله كرب. ولأن القوانين بهذا الفهم انعكاس لصفات الموجودات، فإنها تتغير بتغير القابليات. لا تكسر، لكنها تستجيب لما يدخل المعادلة من قوى جديدة. وهذا ما يفتح لاحقا فهمنا لموضع الدعاء في الكون ـ سنعود إليه في الفصل القادم.

وهنا قد يسبق إلى وهم الناظر أن هذا يعني أن الله خلق الكون ثم تركه يدور بقوانينه دون تدخل، فيستوي ـ في تصوره ـ أن يكون الإله حاضرا أو غائبا. وهذا فهم ساذج يجب أن يكسر مبكرا. فالله لم يخلق كل مخلوق بإرادة مستقلة عن المخلوقات الأخرى ـ كأنه يختار لكل نبتة لونها، ولكل إنسان طوله، ولكل كوكب مداره، فردا فردا. تعالى الله عن هذا الفهم علوا كبيرا. بل خلق الكون كله بإرادة إلهية واحدة بسيطة، هي إفاضة الوجود إفاضة متصلة، ثم المخلوقات تشكلت بصفاتها المختلفة وفق قانون العلية الذي أودعه في تكوينها.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾

[القمر: ٥٠]

خلـق بقـدر، وأمـر واحـد. هـذان مفتاحـان لفهم هندسـة الكون كله.

وتوقف عند ﴿بِقَدَرٍ﴾ توقفـا قصـيرا، فـإن الكلمـة تحمـل في طيهـا أربعـة معـان مجتمعـة، لا ينفـك بعضـها عن بعض: مقدار موزون لا زيادة فيه ولا نقصان، ووزن يجعل كل شيء في توازن مع غيره داخـل المنظومـة، وعلـة تنشـأ منهـا كـل صـفة بحتمهـا، ومعادلـة تسـير بهـا الأشـياء وفـق قاعـدة لا تخطئ. أربعة معان في كلمة واحدة، والقرآن لا يسـرف في الكلمات. حين يختار «بقدر» بدل «خلقنـاه» المجـردة، فهـو يريد أن يطمئنك أن خلقك لم يكن قرارا اعتباطيا، بل صياغة موزونة أنتجتك بالضبط كما أنت، لا بزيادة ولا بنقصان.

ولكيلا يبقى المعنى ملتبسا، تأمل في هذا المثـال: لـو أن والدا أخذ ابنه الصغير إلى جـراح غـير ملامح وجهـه بكاملهـا، أيحق لذلك الابن، حين يكبر، أن يقـول: «لمـاذا جعلـني اللـه بهـذه الملامح؟» بـالطبع لا. سينصـرف سـؤاله ـ بـدهيا ـ إلى والـده وإلى الجـراح، لا إلى اللـه. السـبب المباشـر لشـكل وجهــه هــو العمليــة، لا الإرادة الإلهيــة المباشــرة. وبنفس المنطق، وعلى مستوى أعظم وأجـل، ملامحـك الـتي ولـدت بهـا صـيغت من سلسـلة من الأسـباب البيولوجيـة الصـارمة: جينات موروثة من والـديك، وبويضـة بعينهـا، ولحظـة بعينهـا، وبيئة بعينها. لم يخترها الله لك مباشرة واحـدة واحـدة. ومـع ذلـك، فاللـه هـو الـذي أفـاض الوجـود، وهـو الـذي أودع في

الأسباب قـدرتها، ولـولا فيضـه المتصـل لمـا كـانت الأسـباب نفسها قائمة تفعل ما تفعل. هكـذا تجتمـع نسـبة الفعـل إلى أسبابه القريبة، ونسبته إلى الله سبحانه، في آن واحــد، دون تناقض.

وقد يزورك بعد هذا الفهم سـؤال ثـان ينخـر في الصـدر: حسـنا، فهمت أن صـفاتي نتيجـة سلسـلة أسـباب، وأن اللـه أفاض الوجود إفاضة واحدة متصلة. لكن ألم يكن في إمكـان الله أن يجعل أسبابي أوسع، فأدخل إلى الدنيا أجمــل وأذكى وأقوى مما أنا عليه؟ والإجابة عن هـذا السـؤال تكشـف لـك وهما خفيـا كـان يسـكن داخلـه: ذلـك أنـك تتصـور أنـك كنت موجودا قبـل ميلادك، وأن اللـه اختـار لـك مـا اختـار من بين خيـارات أخـرى. لكنـك لم تكن. لم يكن ثمـة «أنت» سـابق على مجموع صفاتك يقف منتظرا حكم القاضي. صفاتك هي الشـرط الـذي بـه وجـدت أنت ذاتـك في هـذا الكـون. ولـو اختلفت تلك الأسباب، لما كان الذي وجد منها أنت ـ بل كـان شخصا آخر بكامله، يدخل المشهد بدلا منك، ويسـجل اسـمه في كتاب الوجود موضع اسمك أنت.

ولهذا، لو سألك سائل في ساعة وهن نادرة: «هل تتمنى لو أن الله لم يخلقك أصلا؟ أن تكون عدما لا اسم له، ولا أثر له، ولا وعي له؟»، لما ترددت في الجواب. الوجود في ذاتـه خير. والوعي في ذاته نعمة. ومجرد أنك تقرأ هـذه الكلمـات الآن، وأن في صدرك قلبا ينبض، وأن في رأسك عقلا يتأمل،

وأن على لسانك كلاما ينطق، ذلك كله فضل محض، لم تستحقه بسعي سابق، ولم تكسبه بعمل تقدم. لأنك لم تكن لتسعى أو تعمل قبل وجودك. والله، تعالى في كرمه، أفاض الوجود على كل ما يمكن أن يوجد، فلم يحرم مخلوقا حقه في الكون بحجة نقص فيه؛ لأن الوجود ـ مهما اختلت فيه القابليات ـ هو في ذاته خير لا يزن العدم بإزائه شيئا.

وهذا الذي بلغناه يستدعي ضابطا لا ينبغي أن يفلت منك في أي لحظة من لحظات هذا الفهم: أن هذه الصيغة التي كونتك، بكل ما فيها من مواطن قوة ومواطن ضعف، ليست فضيلة منك على نفسك، ولا إنجازا تنسبه إلى ذاتك، بل هي فضل محض من الله الذي أفاض الوجود عليك بهذه الصورة بعينها، وأجراك في هذا المجرى دون سواه. لا شيء فيك أنت سعيت إليه قبل أن تكون. بل كله عطاء سبق وجودك نفسه. ومن فهم هذا فهما صحيحا، خرج من نفسه بتواضع صادق، لا بكبر متكلف، ودخل في حياته بشكر يسبق كل سعي.

وعند هذه النقطة، يهدأ في صدر الإنسان سؤال كان يؤرقه طويلا. ذلك السؤال القديم الذي يزوره في ساعات ضعفه: «لماذا أنا لست غيري؟»؛ ينقلب إلى بصيرة جديدة: أنا لم أحرم من شيء، بل صغت بقدر مخصوص لأؤدي دوري الخاص في هذا الوجود، لا دور غيري. لي رحلتي التي أسير فيها، ولي نصيبي من الوعي الذي ينبغي أن أنميه. ولي

ميزاني الذي أحاسب عليه، فإن الله لا ينظـر إلى من وصـل إلى أين، بل إلى من سار كم في حدود ما يملك.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـانِ إِلَّا مَـا سَـعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَـعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٩-٤٠]

لا شيء في زائد ينبغي أن أتخلص منه، ولا شـيء نـاقص ينبغي أن أتحسر عليه. كل شيء موزون بميزان القدر الـذي لا يخطئ، ولا ينسى، ولا يظلم مثقال ذرة.

ومن هـذه النقطـة بالـذات، ينتقـل بصـرنا إلى السـؤال التالي. إذا كانت صفاتك هي ذاتـك، وكـانت صـيغتك موزونـة بميزانها الخاص، فما الـذي يـنزل عليـك من خارجـك؟ كيـف يعمل الله داخل نظام الأسباب الذي أنشأه؟ ولمـاذا يتفـاوت ما يستقبله الناس من فيضه، رغم أن المصدر واحد؟ هذا مـا يكشفه القانون الثاني.

القسم الرابع: عطاء واحد، وأوعية مختلفة

حين تفهم أن صـفاتك هي ذاتـك، يتسـلل إلى صـدرك سـؤال آخـر: إذا كـان كـل شـيء في الكـون يجـري بأسـبابه الدقيقة، فهل خلق الله الكـون ثم تركـه يجـري وحـده؟ هـل أطلـق المشـروع ثم انسـحب منـه؟ هـل صـار حضـوره في الوجـود حضـورا تأسيسـيا فقـط، لا حضـورا حيـا مسـتمرا؟ السـؤال يبـدو في ظـاهره منطقيـا، لكنـه في عمقـه امتـداد

لعقيدة قديمة ترى الإله صانعا في البدء، غائبا في الاستمرار. إلها أطلق العالم ثم انسحب منه، وتركه يدور بقوانينه بلا حضور.

هذا التصور ـ على بساطته الظاهرية ـ كان من أكبر أخطاء الفكر الفلسفي عبر العصور. وقد واجهه القرآن مواجهة مباشرة، لا بوصفه خطأ فلسفيا فحسب، بل انحرافا في فهم العلاقة بين الله والوجود:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]

تأمل في الرد القرآني: «بل يداه مبسوطتان». أيد مفتوحة، لا أيد مطوية. عطاء مستمر، لا عطاء منقطع. والمعنى أن الفيض الإلهي ينزل في كل آن، لا في وقت واحد ثم يتوقف. ليس الله صانع الساعة الذي يختفي بعد أن ينشئ ساعته. هو حاضر في كل ذرة من الوجود، يمسكها أن تزول، ويديم عليها فيضا لا ينقطع.

لأنه ـ سبحانه ـ ليس خارج الكون، بل هو قيام الكون نفسه. لا يقف على مسافة منه، بل يحمله في كل آن. ولذلك لا يصفه القرآن بأنه خالق فقط، بل قيوم؛ أي القائم بنفسه، المقيم لغيره، الذي يستمد كل شيء بقاءه من بقائه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّـهُ هُـوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]

والفقر هنا ليس فقـر المـال، بـل فقـر الوجـود. وجـودك نفسه لا يقوم بذاته، ولا تستمر صفاتك، ولا تعمل أسبابك، إلا بمدد متجدد لا ينقطع. كما لا يظهر الضوء في الغرفـة إلا مـا دامت الشمس تفيض به في الخارج، كذلك لا يستمر وجودك إلا بفيض متصل يأتيك من خارج نفسك.

وهذا الفهم يفتح عليك حقيقة أخرى ينبغي أن تستقر في وعيـك. العلـل والأسـباب الـتي تجـري بهـا السـنن لا تملـك الوجود لتفيضه على غيرها. الحجر الذي يكسر البيضة، والنار التي تحرق الخشب، والشمس الـتي تنبت الـزرع، والإنسـان الذي يؤثر في إنسـان آخـر ـ كـل هـذه الأسـباب ليسـت هي مصدر الفعل بذاته. هي وسائط، لا مصادر.

الله ـ سبحانه ـ هو وحـده مصـدر الفيض. وأمـا الأسـباب فإنها بحركتها وبما تملكه من قدرة ووجود أفاضها الله عليها، إنمـا تجعـل معلولاتهـا قابلـة للاسـتفادة من الفيض الإلهي، حسـب صـفاتها الـتي اكتسـبتها من عللهـا. النـار لا تخلـق الحـرارة في الخشـب من العـدم، بـل تجعـل الخشـب قـابلا لاستقبال الحرارة التي يفيضها الله. والشمس لا تخلق النـور في الكون من ذاتهـا، بـل تجعـل الكـون قـابلا لاسـتقبال نـور يفيض في كل آن.

ومن فهم هذا، فهم لماذا التوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب. الأخذ بالأسباب هو تهيئة القابلية لاستقبال الفيض. والتوكل هو إدراك أن الفيض نفسه ليس من الأسباب، بل من المصدر الذي تستمد منه الأسباب وجودها.

هذه الحقيقة الكبيرة، التي قد تستغرق فلاسفة الأرض في تفسيرها قرونا، يوجزها القرآن في كلمة واحدة:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

نور يمسك بالأشياء في الوجود، ويمنحها ظهورها واستمرارها. ليس نورا تشبيهيا فقط، بل نور الوجود الذي تكون به الأشياء. هو الفيض المتجدد في كل آن، كنبضة وجودية تسري في كل ذرة.

لكن هذا الفهم يفتح علينا سؤالا جديدا: إذا كان المدد الإلهي واحدا، والفيض على الجميع واحدا، فلماذا تختلف النتائج؟ لماذا يأخذ إنسان نصيبا واسعا، ويأخذ آخر بقدر ضيق؟ لماذا تتفاوت المواهب، والفرص، والطاقات، والظروف، رغم أن المصدر واحد؟

هنا يأتي المثل القرآني الكاشف لهندسة القدر، الذي قد يكون من أدق ما رسمه القرآن في هذا الباب:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]

تأمل في المشهد. الماء واحد. السماء واحدة. الفيض واحد. لكن الأودية مختلفة.

واد واسع امتلأ حتى فاض على ضفافه.

واد ضيق لم يحتمل إلا قليلا فجرى منه شحيحا.

واد صخري لم يمسك شيئا فجرى عليه الماء دون أن يترك أثرا.

هل المشكلة في المطر؟ أبدا. المطر نزل بالعدل نفسه على الجميع. الاختلاف لم يكن في العطاء، بل في القابلية. لم يكن في المنحة، بل في الوعاء.

وهذه هي القاعدة التي يجري بها الكون في كل مستوى من مستوياته. نور الله، وهدايته، وخيره، وفرصه، تنزل على الجميع. أما مقدار ما يستقبله كل إنسان، فيتحدد بقدر قابليته: بتكوينه، وتجربته، وبيئته، ووعيه، واختياراته، وسعة قلبه الداخلية. هذا هو قانون القدر: فيض إلهي واحد، وقابليات مختلفة فيه.

الله لا يمنع أحدا. هو لا يخصص لقوم خيره ويحرم آخرين منه. الفيض متدفق، متصل، يصل إلى الجميع. لكن النفوس متفاوتة في استقبالها. بعضها واسع كواد يستوعب الأنهار. وبعضها ضيق كواد لا يتسع إلا لقليل. وبعضها صخري، يحتاج إلى كسر وصقل قبل أن يستطيع أن يستقبل الماء.

وهذه القابلية تتركب من عناصر كثيرة. بعضها موروث من قبل وجودك ـ الجينات، المزاج، الطبائع الفطرية. وبعضها مكتسب من بيئتك ـ التربية، التعليم، الصحبة، التجارب التي مررت بها. وبعضها يتكون باختيارك ـ الكدح، التأمل، السعي إلى معرفة نفسك، الانفتاح على ما يوسعك. كل هذه العناصر مجتمعة تصنع واديك أنت، الذي يستقبل بقدره ما ينزل من السماء.

وهنا تأتي البشرى الكبرى. واديك ليس قدرا محتوما، بل مجرى يمكنك أن توسعه. لا تستطيع أن تغير كل ما فيك ـ لأن بعضه جزء من ذاتك ـ لكنك تستطيع أن تغير كثيرا. تستطيع أن تكسر الصخور التي تمنع واديك من الإمساك بالماء. تستطيع أن توسع ضفافه بالتعلم، والصحبة الصالحة، والتأمل، والسعي إلى تزكية نفسك. تستطيع أن تحول واديا صخريا إلى واد ينبت فيه الزرع.

وأهم ما يوسع واديك ـ كما علمنا الأنبياء (ع) ـ أن تطلب من الله أن يوسعه. اطلب من منزل المطر أن يهيئ الوادي قبل أن ينزل. هذا هو سر الدعاء الذي يسبق العطاء.

ولأن السؤال الشائع: «لماذا فلان أكثر مني؟» ينبع ـ في الغالب ـ من سوء فهم لهذا القانون، يتحول بعد فهمه إلى سؤال آخر: «كيف أوسع وادي؟»

الأول سؤال حسـرة. الثـاني سـؤال سـعي. وبين الاثـنين فرق ما بين العمر الـذي يضـيع في المقارنـة، والعمـر الـذي ينبت فيه شيء.

وحين تفهم هذه القاعدة، تتغير نظرتك إلى ما حولك. لم يعد ما تملكه «حظـا» منحـه اللـه لـك، ولا مـا يملكـه غـيرك «محاباة» منحها له. كل منكما يستقبل من فيض واحد، بقدر قابليتـه. وكـل منكمـا لـه مسـؤولية عن توسـعة واديـه. ولن يسألك الله يوم القيامة عن كم ملكت، بل عن كيف وسـعت ما ملكت.

وحجب الفيض عنك ـ في سـاعات بعينهـا ـ ليس قسـوة، بل قد يكون رحمة. لأن النفس لـو تلقت كـل مـا تطلبـه في كـــل آن، لطغت ولانتفخت. والحجب أحيانـــا تـــدريب على الصبر، أو تنبيه إلى خلل في الوعاء، أو فـترة إعـداد قبـل أن يكون الوادي مستعدا لاستقبال ما هـو أوسـع. كمـا لا تغـرس البذرة الكبيرة في تربة ضيقة، لا ينزل عطاء كبـير في وعـاء غير مستعد.

ومن هذا القانون ينفتح باب آخـر: إذا كـان الفيض واحـدا والأوعية مختلفة، فكيف تنشأ القـوى المتضـادة في الكـون؟ ولماذا يبدو كل شيء مشدودا بين قطبين؟ ولمـاذا لا يسـتقر الكون على حال واحدة؟ هذا ما يكشفه القانون التالي.

القسم الخامس: نظام الأضداد

تأمل في كون بلا تضاد. كون يجـري كلـه في خـط واحـد مستقيم. كله نور بلا ظلمة، كله فرح بلا حـزن، كلـه يسـر بلا عسر، كله حياة بلا موت. هل تستطيع أن تتخيله؟ في الوهلة الأولى يبدو هذا التصور جنـة يشـتهيها كـل متعب في الأرض. لكنك لو أطلت النظر فيه، لوجدت أمرا غريبا: ذلك الكـون لا يتحرك. لا شيء يدفع شيئا. لا شـيء ينمـو. لا شـيء يتكـون. كل شيء في سكون تام، أشبه بصورة معلقة على جـدار، لا تجري فيها الحياة، ولا تسـتيقظ فيهـا نفس، ولا يكتمـل فيهـا معنى.

هذا التأمـل البسـيط يكشـف لـك حقيقـة غـابت عنـا في زحام الشكوى من المتناقضات: أن الأضداد ليست خللا دخل على هندسة الكون، بل هي البنيـة الـتي بهـا يسـتقيم الكـون نفسه. ولولاها لمـا كـانت حيـاة تجـري، ولا حركـة تنبعث، ولا وعي يتكون، ولا معـنى يتجلى. الأضـداد، إذا، ليسـت ضـريبة نـدفعها مكـرهين، بـل هي آليـة تكـوين قصـدها الخـالق في تصميم الوجود نفسه.

الأضداد بنية، لا خلل

نحن في الغالب ننظر إلى ما يؤلمنا في الحياة ـ المرض، الفقد، الفشل، الانكسار ـ على أنه نقيض لما نسـتحقه. نحلم بحياة خالية من هذه الأضـداد، حيـاة تجـري كلهـا في طـرف

واحد من الميزان. ونسأل في صدورنا: لماذا خلق الله هذه الأضداد أصلا؟ لماذا لم يجعل الحياة كلها يسرا بلا عسر، نورا بلا ظلمة؟ ما الحكمة في أن يكون الكون مشدودا بين قطبين، يجذب أحدهما إلى الآخر، فلا يستقر على حال؟

والإجابة لا تأتي من خارج القرآن، بل من صميمه. فإن الله سبحانه نسب الأضداد إلى ذاته نسبة صريحة، لا تدع مجالا لتوهم أنها طارئة على نظامه أو دخيلة عليه.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]

كل شيء. لا استثناء. كل ما في الكون مخلوق على ثنائية.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٣-٤٤]

الضحك والبكاء، الموت والحياة، ينسبهما القرآن إلى الله نفسه، لا إلى قوى متضادة. كلاهما من فعله، وكلاهما داخل تصميمه، وكلاهما له وظيفته في بنية الوجود.

ولأن الميزان قانون كوني شامل، رفع الله السماء على أساسه:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾
[الرحمن: ٧]

فالميزان ليس قانونا أخلاقيا فقط، بل هو بنية الوجود نفسها، التي بها تتقابل القوى دون أن يفني بعضها بعضا، وبها يستقيم الكون على حافة التوتر التي تحفظ حركته دون أن تكسره.

وهذا التوتر يجري في كل ما هو حي. لو لم يكن في جسمك توتر بين قطبين، لما تحركت عضلة واحدة. القلب ينبض لأنه ينقبض ثم ينبسط، وكل من الانقباض والانبساط ضد الآخر، ولولا هذا التضاد لتوقف القلب. الرئتان تعملان لأنهما تستنشقان ثم تخرجان، وكل من الشهيق والزفير ضد الآخر، ولولا هذا التضاد لانطفأ النفس. وحتى ذراتك نفسها، التي تتكون منها كل خلية في بدنك، قائمة على تضاد بين قوى متقابلة. ولولاه لانهارت الذرة، ولانهار البدن، ولانهار الكون كله في طرفة عين.[10]

[10] يسمي العلماء هذا الاتزان الداخلي في الكائن الحي «الاستتباب» (homeostasis)، وقد عرفه فالتر كانون سنة ١٩٢٦ على أنه حالة توازن بين قوى متضادة تحفظ ثبات البيئة الداخلية للجسم رغم تغير ما حوله؛ فحرارة البدن وضغط دمه وتركيب سوائله تبقى في مجال ضيق بفعل هذا التدافع المنظم. تذكر هنا للتشخيص لا للاستدلال. انظر: W. B. Cannon, “The Wisdom of the Body” (1932).

الأضداد آلية لتحريك الإنسان

لكن السؤال الأعمق ليس عن وجود الأضداد في الكـون، بل عن حكمتها. ولماذا اختار الله أن يكـون الكـون على هـذا النحو، لا على غيره. والقرآن يجيب على هـذا السـؤال بكلام محكم، حين يجمع في آية واحدة بين الأضداد الكونية الكبرى وغايتها الإنسانية:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَـنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]

توقف عند الآية. الله لم يخلق الحياة وحـدها، ولا المـوت وحده، بـل خلقهمـا معـا، وربـط هـذا الخلـق المـزدوج بغايـة واحدة: **﴿لِيَبلوَكم أَيُّكم أَحسَن عَمَلًا﴾**. هذه ليست صدفة في الصـياغة، بـل نـواة المشـروع الإلهي للوجـود الإنسـاني. الأضداد موضوعة لأجلك أنت، لتختبر بها، فتتكون.

والقرآن يكرر هذه البنية في مواضع أخرى، حتى تسـتقر في وعي الإنسان.

﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]

الظلمات والنور، كلاهما مجعول، وكلاهما مقصود.

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]

الشر والخير كلاهما آلتا فتنة وتمييز، يعرف بهما الإنسان نفسه، ويبني بهما ما يختار أن يكون.

ولأن الأضداد تخلق بين الإنسان وذاته زخما وحركة، فإن الإنسان لا يستقر في طرف واحد، بل يتحرك تلقائيا بين الطرفين، ينشد إلى هذا فيدفعه ذاك، يطلب اليسر فيلاقي العسر، يهرب من الألم فيصطدم بالمعنى. وهكذا تتحول حياته من سكون إلى كدح متصل نحو غاية يلقاها لا محالة ـ وسنقف عند تفصيل هذا الكدح في القانون التالي ـ كدح يخرج الإنسان من ظلمة سكونه إلى نور تكامله:

﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [البقرة: ٢٥٧]

هذه ليست استعارة عابرة. هي خلاصة نظام الأضداد كله: أن الله صمم الكون بأضداده ليكون كل ظلمة مدخلا إلى نور، وكل ضيق مخرجا إلى سعة، وكل ألم بابا إلى معنى.

فالأضداد، إذا، ليست مشهدا نتألم منه وننتظر أن يزول. هي آلية الدفع الكونية التي وضعها الله ليتحرك بها الإنسان من حيث هو، إلى حيث ينبغي أن يكون.

الأضداد في داخلك

ولا تظن أن الأضداد تجري في الكون من حولك فحسب، وأنك منفصل عنها تنظر إليها من بعيد. أنت نفسك

ميدان تضاد مستمر. في داخلك نـور وظـل، رحمـة وغضـب، يقين وشك، إرادة وكسل، شجاعة وخوف، كرم وبخل، صدق وكذب. ولولا هذا التضاد الداخلي لما عرفت نفسك أصلا. لـو كنت كلك نورا لما اكتشفت نورك، ولو كنت كلك ظلامـا لمـا اشتهيت النور. الإنسان يعـرف نفسـه في فرجـة التضـاد بين أطرافه، وهناك يختار، وهناك يتكون.

وهذا الإلهام المزدوج في داخلك ليس عيبـا في تكوينـك، بل ميزة وجودية صريحة.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧–٨]

الفجـور والتقـوى، كلاهمـا ملهم فيـك. لا لأن اللـه يريـد ضلالك، بل لأن التقوى التي لا تعرف الفجور بديلا لها ليسـت تقوى، بل عادة مفروضة. والصدق الذي لا يستطيع أن يكون كذبا ليس فضيلة، بل غيـاب اختيـار. أنت تتكـون في مسـافة الاختيار بين الطرفين، لا في طرف واحد خالص مسبقا.

وأبعادك الأربعة ـ الروح والقلب والعقـل والجسـد ـ الـتي عرفتها في الفصل الثالث، كل منها يحمل أضـداده الخاصـة. الـروح بين الإقبـال والإدبـار. القلب بين الرحمـة والقسـوة. العقـل بين اليقين والشـك. الجسـد بين القـوة والضـعف. ومهمتك ليست أن تلغي أيا من هذه الأضداد، بـل أن تـديرها بوعيك حتى ينبعث منها اتساقك الداخلي، لا اضطرابك.

جدل لا تغالب

وهـا هنـا نقطـة دقيقـة ينبغي ألا تفلت منـك. التضـاد في الكون ليس تغالب فناء ينتهي بإلغاء أحـد الطـرفين، بـل هـو جدل يحفظ به كل من الطرفين الآخر من الطغيـان. الفـرق بين التغالب والجدل جوهري. التغـالب ينتهي بالغلبـة لطـرف على آخر، وحين ينفرد الغالب بالسـاحة، يفسـد الوجـود. أمـا الجدل فيبقي الطرفين قـائمين، يـدفع كـل منهمـا الآخـر عن طغيانه، فيستقيم الميزان.

والقرآن يختزل هذا في كلمة واحدة:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]

لا تقرأها سياسيا فقط، بل اقرأها كونيـا. لـو طغى النـور إلى حد إلغاء الظل، لما ظهرت تفاصيل الأشـياء، ولاحـترقت العيـون. لـو طغت الحيـاة إلى حـد إلغـاء المـوت، لتكدسـت الأجيال على بعضها حتى يختنق الكوكب. لـو طغى العـدل بلا اختبار لفقد الإنسان قيمته، ولـو طغت القـوة بلا ضـعف لمـا عرف الإنسان التواضع.

ولهذا، حين تطلب من الله أن يرفع عنك ضـد مـا تحب ـ أن يرزقك صحة بلا مرض، ربحا بلا خسارة، فرحـا بلا حـزن ـ أنت في الحقيقة تطلب منه أن يلغي الجدل الذي به يستقيم وجودك. والحكمة الإلهية في تدبير الكون لا تلبي هذا الطلب

الساذج، بل تحفظ الجدل الذي به ينمو الإنسان. والفرق بين الطلب الساذج والدعاء الناضج، أن الأول يطلب إلغاء الضـد، والثاني يطلب القدرة على إدارته بحكمة.

ولا تخلط بين شعورك بالألم والرضا بالقدر. فالعلاقة بين الإحسـاس بـالألم والتسـليم للـه طوليـة لا عرضـية؛ أي أنـك تســتطيع أن تتــألم من الابتلاء وأنت راض بــه في الــوقت نفسـه، لأن الرضـا في طبقـة، والإحسـاس في طبقـة أدنى منها. الأمر ليس كشعورك بحموضة الليمون وحلاوتـه في آن واحد حين تشربه ـ فهذا تضاد سطحي. بل أشـبه بإحساسـك بالإجهاد والتعب وأنت تلعب الكرة مـع أصـدقائك أو تمـارس السباحة. تستمتع بهـا، ومـع ذلـك تسـبب لـك الألم. والاثنـان معا، لا أحدهما يلغي الآخر.

من الظلمات إلى النور

وحين تستقر في وعيك أن الأضداد آلة دفع كونيـة، يتغـير فهمـك لمـا يجـري في حياتـك تغـيرا جـذريا. لم يعـد كـل مـا يؤلمك عـدوا تطلب من اللـه إزاحتـه. ولم يعـد كـل مـا تحب نعمـة مطلقـة، بـل بعضـه قـد ينقلب نقمـة لـو طغى وألغى ضده. تنظر إلى المرض فـتراه دفعـا لتكاسـل الصـحة، وإلى الفقر فـتراه دفعـا لتخمـة الغـنى، وإلى الفشـل فـتراه دفعـا لغرور النجاح، وإلى الحزن فتراه دفعا لخفة الفرح.

وهذا الفهم لا ينفعك في الداخل وحـده، بـل يفتح أمامـك معنى عمليا أوسع. ﴿**مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾. الظلمات التي يخرجك الله منها ليست الظلمة الحسية فقط، بـل كـل أنواع الظلم والفسـاد: الجهـل، والفقـر، والمـرض النفسـي، والمـرض الجسـدي، والعبوديـة للبشـر، والعبوديـة للأشـياء، والعبودية للأوهام. كل ظلمـة من هـذه الظلمـات لهـا نورهـا المقابل، وكل خروج من ظلمة هو دخول في نورها. والجدل بين الظلمة ونورها، لا في فضاء مجرد، بـل في حياتـك أنت، يوما فيوم.

ولأن الجهل ظلمة، فإن كل سـؤال تطرحـه بصـدق يفتح فيك نورا جديدا. ولأن الفقر ظلمة، فـإن كـل سـعي شـريف نحو الكفاية يكسر فيك ضيقا. ولأن المرض النفسـي ظلمـة، فإن كل تأمل في معدنك الحقيقي يعيدك إلى سـلامك. ولأن العبوديـة للبشـر ظلمـة، فـإن كـل خطـوة نحـو حريتـك في عبودية اللـه وحـده تـنزع عنـك قيـدا من قيـود النـاس. هـذه ليست استعارات تفاؤلية، بل مسـارات حقيقيـة يجـري فيهـا قانون الأضداد في حياتك.

والكون بهذا الفهم ليس عـدوك، ولا حـتى ميـدانا محايـدا تلعب فيـه وحـدك. هـو ميـدان مصـمم لأجلـك، بأضـداده، ليخرجك من حيث أنت إلى حيث تنبغي أن تكون. ﴿**لِيَبلوَكم أَيُّكم أَحسَن عَمَلًا**﴾.

ولكن الأضداد لا تغيرك بمجرد وجودها حولك. هي تغيرك حين تحتك بها، حين تلمسك وتلمسها، حين يدخل بينك وبينها ذلك التماس الذي ينزع عنك ما ليس منك، ويبقي ما هو أنت. وهذا يقودنا إلى القانون التالي: كيف ينحت الجدل بين الأضداد جوهرك؟

سنة الاحتكاك: الأضداد تنحت بالتماس

لكن هذه الأضداد لا تعمل فيك بمجرد وجودها في الكون من حولك، بل حين تحتك بها؛ حين تلامسك وتلامسها، فتفتح أمامك ميدان الاختيار الذي تبني فيه نفسك. فالاحتكاك لا ينزع عنك غطاء عن جوهر جاهز مدفون، بل يتيح لك ـ بإرادتك وصدقك وصفاء عقلك ـ أن تكتسب صفاتك الوجودية، وترتقي بذاتك درجة بعد درجة. فأنت لا تولد صابرا ولا صادقا، بل تصير كذلك حين تختار الصبر في موضع الجزع، والصدق في موضع الزيف. الفطرة وحدها معطاة فيك، أما الصفة الراسخة فتصنع صنعا. ولهذا جعل الله الفتنة ميدان بناء لا عقوبة:

﴿**أَحَسِبَ النّاسُ أَن يُترَكوا أَن يَقولوا آمَنّا وهُم لا يُفتَنون ۝ ولَقَد فَتَنّا الَّذينَ مِن قَبلِهِم فلَيَعلَمَنَّ اللـهُ الَّذينَ صَدَقوا ولَيَعلَمَنَّ الكاذِبين**﴾ [العنكبوت: ٢-٣]

فالفتنة تستخرج منك صدقا تصنعه باختيارك، لا صدقا كان مخزونا ينتظر الكشف. وهذه سنة قائمة بذاتها، تستحق

أن يفرد لها فصل كامل ـ وهو ما يفتحه الفصل القادم: «سنن الاحتكاك»، حيث نرى كيف يكون الكبد والابتلاء والألم أدوات بناء لا عقوبة.

فإذا فهمت أن الكون نظام، وأن الأضداد بنية فيه، بقي سؤال أخير يطرحه القارئ المتأمل: إذا كان الكون نظاما محكما، فلماذا يبدو فيه كل هذا الشر؟ ما حقيقته في هذا التصميم؟ هذا ما يكشفه القانون الأخير من هذا الفصل.

القسم السادس: وهم الشر

بعد كل ما رأيناه في هذا الفصل ـ من نظام السنن، إلى علية الأسباب، إلى قابلياتك التي هي ذاتك، إلى الفيض الواحد على الأوعية المختلفة، إلى الأضداد التي تحفظ التوازن، إلى الاحتكاك الذي ينحت الجوهر ـ يبقى سؤال واحد يطرق صدر القارئ المتأمل، لا يستريح حتى يجد له جوابا: إذا كان الكون محكما إلى هذا الحد، ومدبرا بهذه الدقة، فلماذا يبدو فيه كل هذا الشر؟ لماذا المرض، والظلم، والفقد، والكوارث؟ أين العدل في كل هذا؟

السؤال يبدو في ظاهره عادلا، ومطروحا في حق. لكنه مبني على افتراض خفي ينبغي كشفه قبل الإجابة. الافتراض هو أن في الكون شيئا اسمه «الشر»، قائما بذاته، منازعا للخير، يفسد ما يبنيه الله. والحقيقة الوجودية أعمق من ذلك بكثير:

في الكون لا يوجد شر قائم بذاتـه. مـا نسـميه شـرا في الغالب ليس وجودا مسـتقلا، بـل نقص في الرؤيـة، أو غيـاب لخير كان ممكنا.

الشر ليس وجودا، بل غياب

تأمل في الظلمة. هل هي شيء قائم بذاته؟ هل تستطيع أن تأتي بإناء ممتلئ بالظلمة وتحمله من غرفـة إلى أخـرى؟ كلا. الظلمة ليست شيئا، بل غياب النور. لا يلـزم أن تخلقهـا، يكفي أن تطفئ الضوء فتظهر. وتأمل في الـبرودة. هـل هي شيء قائم بذاته؟ كلا. هي ليست إلا غياب الحـرارة. لا تـنزل على الجسـم من خارجـه، بـل تظهـر فيـه حين تخـرج منـه الحرارة. وتأمل في الجهل. هل هو كيان قائم؟ كلا. هو غياب العلم. لا يملأ به العقل، بل يظهر حين يخلو العقل من العلم.

كـذلك ـ في كثـير من المواضـع ـ مـا نسـميه «شـرا». المرض ليس وجـودا قائمـا، بـل غيـاب الصـحة، أو خلـل في النظام الذي بها يسـتقيم البـدن. والظلم ليس وجـودا قائمـا، بل غياب العدل في موضـع كـان ينبغي أن يكـون. والقسـوة ليست وجودا قائما، بل غياب الرحمة في قلب كان ينبغي أن يحملها. وكلما تأملت في ما يسمى شرا، وجدته ـ في عمقـه ـ غيـاب خـير كـان ممكنـا، لا حضـور شـيء مسـتقل ينـافس الخير.

ولهـذا، حين تسـأل: «لمـاذا خلـق اللـه الشـر؟»، فـأنت تسأل سـؤالا فاسـدا في صـياغته. اللـه لم يخلـق الشـر، لأن الشـر ليس شـيئا يخلـق. هـو غيـاب ينتج عن نظـام السـنن نفسه: حين يتخلف خير عن موضعه ـ لاختيار حر من إنسان، أو لاحتكـاك بين أضـداد، أو لقصـور في قابليـة ـ يظهـر مـا نسميه شرا. لكنه في ذاته ليس وجودا منافسا لله، بـل ظـل لخير كان يمكن أن يكون.

قصور الرؤية: العدسة الضيقة

ولأن كثيرا مما نسميه شرا ليس إلا غياب خير، فإن كثيرا منـه ـ في الحقيقـة ـ خـير متنكـر، لا نـراه خـيرا لأن عدسـتنا قاصرة. تأمل في الطفـل الـذي يـرى المدرسـة شـرا، لأنهـا تبعــده عن اللعب، وتلزمــه بالانضــباط. هــل هي شــر في الحقيقة؟ كلا. هي عين الخير. لكنه يراها شرا لأن عدسـته لا ترى ما يراه أبوه. لو سكن إلى ما يريده هـو، لوقـع في شـر أعظم: الجهل. والشر الذي يهرب منه الآن، هو في الحقيقة، الباب الذي يحميه من شر أكبر بعد سنوات.

وأنت ـ في كثير من ابتلاءاتـك ـ مثـل ذلـك الطفـل أمـام مدرسته. ترى الوجع في لحظته، ولا ترى الحكمة التي تبــنى به. ترى الباب الذي أغلق، ولا ترى الأبواب التي ستفتح. ترى السقطة، ولا ترى أنك كنت تنحدر إلى ما هو أسـوأ لـو بقيت تمشي. والمرض الذي تكرهه قد يكون تطهـيرا لـروح كـادت أن تتعفن بغرور الصحة. والفقر الذي تراه قسـوة قـد يكـون

حماية من طغيان كان سيهلكك. والفقد الذي يمزق قلبك قد يكون إفراغا مقصودا ليملأ الله القلب بما هو أصفى وأبقى.

ولهذا قال الله:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

[الملك: ١٤]

تأمل صياغة الآية. **﴿أَلا يَعلَم مَن خَلَق﴾** ـ سؤال استنكاري يهز ثقتك بحكمك الضيق على الأحداث. **﴿وهو اللَّطيف الخَبير﴾** ـ صفتان معا. اللطيف الذي يعلم خفايا نفسك، والخبير الذي يعلم خفايا مصيرك. فالألم لا يأتي من جهل، ولا من قسوة، بل من علم يعرف ما لا نعرف، ولطف يعمل في العمق حيث لا تصل أبصارنا.

ما هو شر حقيقي، ومن أين يأتي؟

لكن، ينبغي ألا ننزلق إلى تفاؤل ساذج. هل كل شر في الحياة هو خير متنكر؟ هل لا يوجد شر حقيقي أبدا؟ ليس هذا ما نقوله. هناك شرور حقيقية في الكون، تنزل بالإنسان فتؤذيه. لكن مصدرها ـ في الغالب ـ ليس الله، بل اختيارات بشرية. ظلم البشر بعضهم لبعض، وفسادهم في الأرض، وانحرافهم عن العدل، كلها شرور حقيقية، تخرج من إساءة استخدام الحرية التي وهبها الله للإنسان.

ولهذا لم ينسب القرآن هـذه الشـرور إلى اللـه، بـل إلى الإنسان نفسه.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]

الشـر الحقيقي في الكـون مصـدره ـ في الغـالب ـ يـد الإنسان، لا قـدر اللـه. واللـه أعطى الإنسـان حريـة الاختيـار حتى يكون إنسـانا، لا ملاكـا مجبـولا على الخـير وحـده. لكن هـذه الحريـة ثمنهـا أن بعض النـاس سـيختار الشـر، فيـؤذي نفسه ويؤذي غيره.

وحتى هذا الشـر النـاتج عن اختيـار بشـري، لا يخـرج عن نظام السـنن. هـو يجـري داخلهـا، لا خارجهـا. واللـه بحكمتـه جعل في الكون سنة التدافع التي رأيناها في القانون الثالث، فتـدفع قـوة الخـير قـوة الشـر، ويتـوازن العـالم على هـذه الحافة، دون أن يطغى أحدهما طغيانا يفسد الوجود كله.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]

رؤية تتحرر

وحين تستقر هذه الحقائق الثلاث في وعيك ـ أن الشر في كثير من مواضعه عدم لا وجود، وأن كثيرا منه خير متنكر لقصور رؤيتك، وأن ما هو شر حقيقي مصدره اختيارات بشرية لا قدر إلهي ـ يتحرر شيء فيك من ثقل كان يحملك. لا تعود ترى الكون كآلة قاسية، ولا تنظر إلى الله كخالق غامض، ولا تحمل في صدرك ذلك العتب الخفي الذي يلتف حول قلبك كلما حدث ما لا تحب.

كأنك تقف أمام لوحة هائلة، عرضها أكبر من بصرك، وطولها أطول من زمنك. ترى منها سنتيمترا واحدا، ثم تحكم على بقيتها. لو رأيت الصورة كاملة، لفهمت أن ما حسبته قسوة كان عين الرحمة، وأن ما حسبته شرا كان عين الخير، وأن ما حسبته عبثا كان تدبيرا. لكن عدستك ضيقة، وبصرك محدود، وما تراه ليس إلا جزءا صغيرا من حكمة تتجاوزك. ولذلك ترتاح، لا لأنك فهمت كل شيء، بل لأنك فهمت أن هناك من يفهم، حتى حين أنت لا تفهم.

خاتمة الفصل: من فهم الكون إلى السير فيه

وها قد بلغنا نهاية هذا الفصل. فهمنا أن الكون يجري بسنن لا تحابي، وأن كل شيء فيه بقدر، وأن ذاتك موزونة بميزان خاص بك، وأن الفيض الإلهي واحد على أوعية

مختلفة، وأن الأضداد نظـام التكـوين لا خلـل فيـه، وأن هـذه الأضداد إنما تنحت جوهرك حين تحتك بها ـ وهي سنة يفتحها الفصل القادم ـ وأن ما نسميه شرا في الغـالب ليس وجـودا منافسا، بل غياب خير أو قصور رؤية.

هـذا كلـه فهم نظـري. لكن السـؤال الـذي ينتظـرك الآن ليس نظريا، بل عملي. حين ينزل بك الابتلاء ـ فقـدا، مرضـا، خيبة، خوفا ـ كيف تستقبله؟ كيف تتحرك أنت في هذا الكون الـذي فهمت قوانينـه؟ مـا المطلـوب منـك حين يأتيـك مـا يعاكسـك؟ وكيـف تحـول المعرفـة بالنظـام إلى سـير داخـل النظام؟

هذه الأسئلة لا يجيب عليهـا فصـل يتكلم عن الكـون، بـل فصل يتكلم عن الإنسان داخل الكون. هذا ما يفتحـه الفصـل التالي: سنن الاحتكـاك. الفصـل الـذي تلتقي فيـه الـذات مـا ينحتها، فإذا ما يعيقك ـ هو نفسه ـ ما يكونك.

(((

وقفة تأمل

قبل أن تطوي هـذا الفصـل، انظـر إلى ضـد واحـد يثقـل حياتـك الآن ـ مرضـا، أو ضـيقا، أو نقصـا، أو خصـما ـ وكنت تطلب من الله أن يرفعه عنك. ثم اسأل نفسك بصدق: مـاذا لو كان هذا الضد بعينه هو المنحت التي يـراد بهـا أن ينحتـك، لا العقوبة التي يراد بها أن تكسرك؟ وما الذي قد ينبت فيـك

لو نظـرت إليـه بوصـفه أداة في يـد حكيم، لا خللا في نظـام أفلت من يده؟

الفصل الخامس — سنن الاحتكاك

✦

القسم الأول: تمهيد ـ ﴿في كبد﴾

ختمنا الفصل السابق عند نقطة بدا فيها أن المعرفة لا تكفي. لقد عرفنا أن الكون يجري بسنن، وأن الأضداد بنية، وأن الاحتكاك نحت، وأن الشر في كثير من مواضعه عدم لا وجود. كل ذلك فهم محكم. لكن الفهم وحده لا يحمل صاحبه حين ينزل به الابتلاء فعلا. لا يسعفك في اللحظة التي ترتجف فيها يداك، ويختنق فيها صدرك، ويتصاعد في حلقك ذلك السؤال القاسي: لماذا أنا؟ لماذا الآن؟

في تلك اللحظة، لا ينفعك أن تعرف القوانين. تحتاج أن تعرف كيف تسير داخلها.

ولأن هذه هي مسألة هذا الفصل، ينبغي أن نبدأ من حيث بدأ القرآن نفسه حين تكلم عن طبيعة الإنسان في هذا العالم. آية واحدة، أربع كلمات، تختزل كل ما سيأتي بعدها:

﴿لَقَد خَلَقنَا الإنسانَ في كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]

توقف عند هذه الآية توقفا طويلا، فإنها تحمل في طيها مفتاح الفصل كله. لو فهمتها فهما صحيحا، تغيرت علاقتك

بكل ما يجري لك. لو فاتك معناها، بقيت تصارع ما لا يمكن إلغاؤه، وتطلب من الحياة ما لم تجعل له.

ماذا تعني كلمة "كبد"؟

الكلمة في اللغة العربية أوسع مما يظن القارئ السريع. ليست كلمة واحدة لها معنى واحد، بل حقل دلالي متكامل يجمع أربعة معان متصلة، كل منها ينفتح على الآخر:

أولا: الكبد بمعنى المشقة والعناء. هذا هو المعنى الأول الذي يتبادر إلى الذهن. الإنسان مخلوق في تعب، في كد، في مكابدة. ليس مخلوقا في رخاء ثم تأتيه المشقة طارئة عليه، بل مخلوق في صميمها. هي شرط وجوده، لا حادثة عابرة فيه.

ثانيا: الكبد بمعنى القوة والشدة. الكبد في لسان العرب هو الصلب الشديد. تقول العرب: «ناقة ذات كبد» أي ذات قوة وصلابة. وفي هذا المعنى دلالة خفية لا تنبغي أن تفلت منك: أن المشقة في الإنسان ليست ضعفا ألصق به، بل قوة أودعت فيه. الكبد ليس فقط ما يحمله، بل ما يجعله قادرا على الحمل.

ثالثا: الكبد بمعنى الوسط والاستقامة. كبد الشيء هو وسطه. تقول: «كبد السماء» أي وسطها حيث تستوي الشمس في ذروتها. وتقول: «كبد القوس» أي وسطها بين طرفيها. والمعنى الذي ينفتح هنا: أن الإنسان مجبول على

أن يكون في موضع التوتر بين الأضداد، لا في طرف واحد منهما. لا في رخاء خالص، ولا في بلاء خالص. في الوسط، حيث تتجاذبه القوى من جهتين، فتكونه.

رابعا: الكبد بمعنى الملازمة. الكابد لشيء هو الملازم له، المداوم عليه. والإنسان «كابد» لحياته بهذا المعنى ـ يلازمها بمشقتها، لا ينفك عنها، ولا تنفك عنه. ما دام في هذا العالم، فهو في هذه الملازمة.

أربعة معان في كلمة واحدة. والقرآن لا يسرف في الكلمات. حين يختار «كبد» لتوصيف الإنسان، فإنه يجمع لك في حرفين أنه: مخلوق في مشقة، بقوة تناسبها، في وسط بين الأضداد، ملازما لها ما دام حيا.

«في كبد» لا «مع كبد»

والآن، لا تدع حرف الجر يفلت منك. القرآن لم يقل «مع كبد»، ولا «بكبد»، ولا «إلى كبد». قال ﴿**في كَبَد**﴾. والفرق بين هذه الحروف فرق في الرؤية كلها.

لو قال «مع كبد»، لكانت المشقة شيئا مصاحبا للإنسان، يسير بجواره، يحدث أحيانا وينقطع أحيانا. لكانت عرضا لا جوهرا. لكان الموقف منها أن يحاول الإنسان «التخلص» منها، كما يتخلص من رفيق ثقيل.

لكنه قال «في كبد». والظرف هنا يدل على الإحاطة والموضع. الكبد ليس رفيق الإنسان، بل المكان الذي

يسكنه. ليس شيئا يلتقي به في الطريق، بل الطريق نفسه. لا تستطيع أن تخرج منه، كما لا تستطيع السمكة أن تخرج من الماء وتبقى سمكة.

وهذا الفرق الصغير في الحروف يفتح فرقا عظيما في الفهم. من يظن أنه يعيش «مع» المشقة، يقضي عمره يحاول تجنبها، فيتألم مرتين: مرة من المشقة حين تأتي، ومرة من خيبة المسعى حين يكتشف أنها لا تنتهي. أما من فهم أنه «في» المشقة، فينصرف عن محاولة الخروج منها، إلى تعلم كيف يتحرك داخلها. وفرق ما بين الاثنين فرق ما بين عمر يضيع في المقاومة، وعمر ينبت فيه شيء.

شرط الحركة لا عقوبة الحركة

والآن نصل إلى المفصل الذي ينبغي أن يستقر في وعيك قبل أن نمضي: الكبد ليس عقوبة على الإنسان، بل شرط للإنسان.

تأمل في كل ما ينمو في الكون. كما رأيت في الفصل السابق، لا شيء يشتد بلا مقاومة. والإنسان كذلك. لو خلق في رخاء تام، لما اكتشف قوته، لأن القوة لا تظهر إلا حين يقاومها شيء. لو خلق في يقين مسبق، لما عرف صدقه، لأن الصدق لا يتجلى إلا حين يلتقي بما يستفز كذبه. لو خلق في سلام خالص، لما نضجت روحه، لأن النضج لا يتم بدون احتكاك يميز الجوهر من الشوائب.

الكبـد، إذا، هـو الشـرط الـذي بدونـه لا يكـون الإنسـان إنسانا. لو نزع منه، لخرج كائن آخر، أقل منه قـدرا، رغم مـا قد يبـدو عليـه من راحـة. كمـا لـو نـزعت من النـار حرارتهـا بقصد أن تتجنب الحريق، لما بقيت نارا، بل صار شيئا آخـر لا يؤدي وظيفتها.

ولهذا، لم يأت الكبد في الآية بصيغة العقوبة، بـل بصـيغة التصميم الإلهي الأول. ﴿**لَقَد خَلَقنا الإنسـان في كَبَـدٍ**﴾. «خلقنـا» ـ فعـل الخلـق نفسـه. أي أن الكبـد ليس مـا حـل بالإنسان بعد أن خلق، بل ما خلق به وفيه. ليس طارئـا، بـل أصـيلا. ليس عقابـا على ذنب سـبق، بـل بنيـة ضـرورية لكي يكون الإنسان قادرا على رحلته.

النصب الذي يختاره الإنسان

والقرآن لا يكتفي بأن يصف الإنسان بأنه «في كبد»، بـل يتبع الوصف بإشارة عملية في غايـة الدقـة. تأمـل في قولـه سبحانه:

﴿فإذا فَرَغتَ فانصَب ۝ وإلى رَبِّك فارغَب﴾ [الشرح: ٧-٨]

توقـف عنـد صـياغة الآيـة. ﴿**فـإذا فَـرَغتَ**﴾ ـ من مـاذا تفرغ؟ من نصب سبق. ﴿**فانصَب**﴾ ـ افعل ماذا؟ انتقـل إلى نصب آخر. وكأن الآية تقول لك: لا تنتظر اللحظة التي تفـرغ

فيها من المشقة كلها، لأن تلـك اللحظـة ليسـت من تصـميم وجودك. بـل انتقـل من تعب إلى تعب، ومن جهـد إلى جهـد، ومن ميدان إلى ميدان.

وهنا فرق دقيـق بين كلمـتين عربيـتين، ينبغي أن يسـتقر في وعيك: الكبـد والنصـب. الكبـد هـو المشـقة الـتي خلقت فيها، ظرف وجودك الذي لا تختاره. أمـا النصـب فهـو التعب الـذي تختـاره أنت، الـذي يلبس بإرادتـك، الـذي تنصـب فيـه نفسـك طوعـا. الأول قـدرك، والثـاني سـعيك داخـل القـدر. الأول ما يجري عليك، والثاني ما تفعلـه أنت. فلا مهـرب من الكبد ـ كما رأيت ـ لكن النصب اختيار، إما أن تنصـب نفسـك فيما يرفعك، أو تنصبها فيما يستنزفك.

ثم تأتي الخاتمة التي تفتح الباب لكل ما سـيأتي في هـذا الفصل: ﴿**وإلى رَبِّك فارغَب**﴾. لاحـظ أن القـرآن لم يقـل «ارغب في كذا»، بـل قـدم الجـار والمجـرور ﴿**إلى رَبِّك**﴾. والتقديم في العربية يفيد الحصر. أي: اجعل رغبتك إلى ربك وحده. هذا هو ما يحول النصب من إجهاد بلا معنى، إلى كدح ذي اتجاه. ما يميز إنسانا ينصب نفسه في الـدنيا من إنسـان ينصب نفسه إلى الله، ليس مقدار التعب، بل وجهته.

وحين تجمع الآيتين معـا ـ ﴿**لَقَد خَلَقنـا الإنسـان في كَبَد**﴾ و﴿**فإذا فَـرَغتَ فانصَـب وإلى رَبِّـك فـارغَب**﴾ ـ تكتمل لـك الصـورة: مخلـوق في مشـقة، مـدعو إلى نصـب

متصل، باتجاه واحد صريح. هذا هو هيكل المعنى للحياة الإنسانية كلها، كما يفتحه القرآن في عبارتين.

موقع هذه الآية في خطاب القرآن

ولاحظ شيئا: الآية لم تقل «خلقنا بعض الناس في كبد» أو «خلقنا الكافرين في كبد»، بل قالت «خلقنا الإنسان». الإنسان بإطلاقه. المؤمن والكافر، الغني والفقير، النبي والعامي، الذكي والبطيء، الجميل والعادي. كلهم في كبد. ولا أحد يستثني نفسه من هذه الحقيقة، مهما بدا له خلاف ذلك في لحظة من لحظات حياته.

وهذا في حد ذاته رسالة. أنت لست المختار وحدك بالألم. لا أحد يعيش بعيدا عن كبده. من تنظر إليه فترى رخاءه الظاهر، له كبده الخفي. من تحسده على ما يملك، يحمل ما لا تراه. القرآن يفتح عليك هذه الحقيقة مبكرا، حتى لا تستنزف عمرك في المقارنة مع وهم غير قائم: وهم «حياة بلا كبد».

والأنبياء (ع) ـ وهم الذين اصطفاهم الله ـ لم يستثنوا من هذا القانون، بل كانوا أكثر الناس كبدا، كما سيأتي تفصيله. لو كان الكبد عقوبة، لكان أبعد الناس عنه أقربهم من الله. لكن الأمر معكوس: أقربهم من الله أكثرهم كبدا. ولا تفسير لهذا إلا أن الكبد شرف للإنسان، لا إذلال. هو الباب الذي يدخل منه إلى رتبته الحقيقية، لا الحاجز الذي يمنعه عنها.

ما الذي ينفتح بعد هذه الآية؟

وحين تستقر هذه الحقيقة في وعيك، يتحول كل شيء. لم تعد تسأل: «كيف أهرب من المشقة؟»، لأنك أدركت أن الهرب منها هرب من إنسانيتك نفسها. ولم تعد تنتظر اللحظة التي تنتهي فيها كل ابتلاءاتك، لأنك فهمت أنها لحظة لن تأتي ـ ولو أتت، لما كنت «أنت» بعدها، بل كائنا آخر بلا حركة ولا نمو.

السؤال الذي ينبغي أن يحل محل السؤال القديم هو: ما الذي يريد هذا الكبد أن يكونه في؟ كيف أتحرك داخل المشقة، بدلا من أن أستنزف نفسي في محاولة الخروج منها؟ كيف أتلقى الابتلاء بوصفه تصميما، لا عقوبة؟ كيف أستقبل الألم بوصفه إيقاظا، لا انتقاما؟ وكيف ـ في النهاية ـ أجعل ما يعيقني هو ما يكونني؟

هذه الأسئلة تفتح الباب لما يأتي. سنرى في القسم القادم أن الابتلاء ليس عقوبة بل تصميما ـ معايرا بدقة، موضوعا بحكمة، مقصودا به أن يكشفك على نفسك، لا أن يكسرك. ثم نفهم كيف يكون الألم نفسه إيقاظا، وكيف يكون الشيطان ممتحنا لا قاهرا، وكيف تتفاعل إرادتك مع القدر فيتسع، وكيف يصير الكدح ـ في النهاية ـ هو الطريق إلى لقاء ربك.

كل هذا، تفصيلا لما تختزله آية واحدة: ﴿**لَقَد خَلَقنا الإنسانَ في كَبَدٍ**﴾.

القسم الثاني: الابتلاء تصميم لا عقوبة

حين ينزل بك الابتلاء ـ فقدا، مرضا، خيبة، انكسارا ـ يزور صدرك سؤال في غاية القسوة: ماذا فعلت لأستحق هذا؟ هل عاقبني الله؟ هل غضب علي؟ وتبدأ تستعرض في ذهنك ذنوبك الصغيرة والكبيرة، تبحث في طياتها عن سبب يبرر ما يجري. وقد تجد ذنبا، فتطمئن ـ على الأقل ـ إلى أن الكون منطقي. وقد لا تجد ما يتناسب مع حجم الوجع، فيزداد ضيقك: لماذا أنا؟ ما الذنب الذي يوازي هذه القسوة؟

هذا السؤال في حد ذاته يكشف افتراضا خفيا يسكن في وعينا، ينبغي أن نكشفه قبل أن نمضي. الافتراض هو أن العلاقة بين الابتلاء والذنب علاقة سبب ونتيجة. أن الابتلاء عقوبة، وأن من لم يذنب، لا ينبغي أن يبتلى. وأن حسابات الله مع عباده مبنية على منطق «الكأس بالكأس»: ذنب هنا، فبلاء هناك.

والحقيقة أن هذا الفهم، رغم انتشاره، منحرف في أصله. الابتلاء في القرآن ليس عقوبة، بل تصميم. ليس انتقاما، بل تكوين. ليس رسالة غضب، بل رسالة كشف.

أولا: المعنى الذي يكشفه أدق الأنبياء (ع) ابتلاء

لو كان الابتلاء عقوبة، لكان أبعد الناس عنه أقربهم من الله. لكن التاريخ يقول العكس تماما. الأنبياء (ع) ـ

المصطفون الأخيار ـ هم أكثر النـاس ابتلاء. النـبي أيـوب (ع) فقد أهله وماله وصحته، لا لذنب أذنبه، بل لموضـعه الرفيـع. النبي يعقوب (ع) فقد بصره من حزنه على ابنـه، لا لخطيئـة ارتكبها. النبي محمد (ص) دفن سبعة من أولاده، وعاش عام الحزن، واضطهد ثلاث عشرة سنة. وأهل بيتـه (ع) لاقـوا مـا لاقوا من قتل وسبي وتشريد.

في الحديث المـأثور عن النـبي (ص): «أَشـدّ النّـاس بَلاءً الأَنبياء، ثم الأَمثَل فالأَمثَل». لاحظ الترتيب: ليس الأكثر ذنبا، بـل الأكـثر قربـا. وهـذه قاعـدة لا تسـتقيم مـع فهم الابتلاء كعقوبة. تستقيم فقط مع فهمه كتصميم: تصميم يكشف لـك حالك، ويفتح لك ميـدان نحت الجـوهر والارتقـاء برتبتـك إلى مكانة أعلى.

وهذا لا يعني، طبعا، أن كل من أصيب فهو من الأنبيـاء أو الصـالحين. بعض الابتلاءات تـأتي نتيجـة مباشـرة لاختياراتنـا، كما رأيت في قانون العلية. من يأكـل بشـراهة، يمـرض. من يكذب، يفقد الثقة. من يهمل، يخسـر. هـذه عـواقب طبيعيـة لأســبابها، لا عقوبــات ســماوية مرســلة. لكن كثــيرا من الابتلاءات الكبرى في حياتك ـ تلك الـتي تهـزك من جـذورك، ولا تجد لها سببا متناسبا في سلوكك ـ ليسـت عقوبـات. هي تصميم.

الابتلاء يكشف لا يكسر

والفـرق بين الابتلاء كعقوبـة والابتلاء كتصـميم فـرق في الغاية. العقوبة غايتها الكسر؛ تأديب المذنب وإيلامه ليرتــدع. أمـا التصـميم فغايتـه أن يكشـفك على نفسـك، ثم يفتح لـك ميدان البناء؛ فيريـك حالـك أولا، ثم يـتيح لـك ـ بإرادتـك ـ أن تكتسب من الصفات ما ترتقي بـه إلى رتبـة مـا كنت لتبلغهـا بدون هذا الاحتكاك.

ولا بد هنـا من تفريـق دقيـق. الابتلاء يكشـف لـك حالـك، نعم؛ يريك موضـع ضـعفك وقوتـك، صـدقك وزيفـك. لكنـه لا يكشف صفة راسخة كانت مخزونة فيك تنتظر الظهور، كأنها معدن جاهز مدفون. بل يفتح أمامك لحظة الاختيار التي فيها تصنع الصفة وتبنيهـا. فحين يـنزل بـك مـا يسـتفز جزعـك، لا يكشف الابتلاء صبرا كان كامنا، بل يضـعك أمـام خيـارين: أن تجزع فترسخ الجزع، أو أن تصبر فتبـني الصـبر لبنـة تضـاف إلى نفســك. والفطــرة وحــدها معطــاة فيــك؛ أمــا الصــفة الراسخة فتصنع صنعا في ميدان الابتلاء.

ولهـذا، لا يـأتي الابتلاء ليكسـرك، بـل ليفتح فيـك ميـدان التكوين. ما يتحطم فيك ليس جـوهرك، بـل مـا تـراكم عليـه من أوهام وتعلقات؛ وما تبنيه مكانه هو الصفة الوجودية التي تختارها. وحين يخرج الإنسان من ابتلائـه، لا يخـرج أقـل ممـا دخل، بل أرقى وأصفى ـ لا لأن شيئا كامنا انكشف فحســب،

بل لأن شيئا جديدا اكتسب وبني ـ إن هو فهم وتلقى ولم يضيع.

ثانيا: الابتلاء معاير بدقة على وسعك

وهذا الفهم يكشف لك حكمة ثانية في تصميم الابتلاء: أنه معاير بدقة على قدرتك. لا يأتيك ما يتجاوزها. لا ينزل بك ما يفوق ما خلقت له. هذا ليس وعدا تفاؤليا، بل تصريح قرآني صريح:

﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفسًا إلا وُسعَها﴾ [البقرة: ٢٨٦]

تأمل صياغة الآية. **﴿لا يُكَلِّف﴾** ـ نفي مطلق. **﴿إلا وُسعها﴾** ـ تحديد دقيق للسقف. أنت لا تستطيع أن تستخرج من هذه الآية إلا معنى واحدا: ما ينزل بك محدد بقدرتك على حمله، وإن بدا لك في لحظته فوقها. والشعور بأن الابتلاء «أكبر من احتمالك» لا ينفي الحقيقة، بل يكشف أنك تكتشف قدرتك في هذه اللحظة بالذات، ولم تكن تعرفها قبلها.

ولهذا لا يستوي أن ينزل بكبار الناس وصغارهم نفس البلاء بنفس المقدار. كل يبتلى بقدر وسعه. النبي (ص) ابتلي بما لم يحتمله غيره ـ ليس لأنه كان أضعف، بل لأنه

كان أوسع. وكلما اتسع وعاء الإنسان، اتسع ما يمكن أن ينزل فيه. وكلما ضاق، ضاق ما يمكن أن يتلقاه.

وهذا، إن فهمته فهما صحيحا، ينزع عن الابتلاء كثيرا من قسوته. لأنك لم تعد تقف أمامه بشعور الضحية، بل بفهم المدعو: مدعو إلى أن تكتشف وسعك، أن تعرف ما لم تكن تعرفه عن نفسك، أن تخرج من هذه التجربة بنسخة أكثر اتساعا من نفسك القديمة.

ثالثا: اليسر يجري مع العسر، لا بعده

والفهم الثالث الذي يكشف لك تصميم الابتلاء يأتي من آية مشهورة، يقرؤها كثيرون قراءة سطحية فيفقدون عمقها:

﴿فإنَّ مَع العُسرِ يُسرًا ۝ إنَّ مَع العُسرِ يُسرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]

توقف عند حرف الجر. الآية لم تقل «بعد العسر يسرا»، بل «مع العسر». والفرق بين الحرفين فرق ما بين فهمين كاملين للحياة.

لو كانت الآية «بعد العسر يسرا»، لكان اليسر مكافأة مؤجلة ـ تأتي بعد انتهاء العسر، كجائزة تمنح لمن صبر. لكان الموقف منها: تحمل العسر الآن، وانتظر اليسر لاحقا. لكنها قالت «مع». أي أن اليسر يجري في عين اللحظة التي

يجري فيها العسر. ليس بعده زمنيا، بل معـه وجوديـا. ملازم له، مولود من رحمه نفسه.

وهذا يفتح فهما جديدا لكل ابتلاء تختبره. اليسـر ليس مـا يأتي حين ينتهي البلاء، بل ما يولد فيـه ـ إن أنت بحثت عنـه. القوة التي تكتشفها أنـك تملكهـا وأنت في وسـط العاصـفة، هي ذلك اليسر. الصبر الذي ينبت في صدرك حين تظن أنـك لن تحتمل، هـو ذلـك اليسـر. الحكمـة الـتي تكشـف لـك في لحظـة الانكسـار، الـتي لم تكن لتكشـف بدونـه، هي ذلـك اليسر. الدعاء الـذي يخـرج من قلبـك بصـدق لم تعهـده، هـو ذلك اليسر.

اليسر، إذا، كامن في صلب العسر نفسه، كالنبتة الكامنة في البذرة. الابتلاء يكسر القشرة، فيخرج اليسر. ومن ينتظر اليسر بعد انتهـاء العسـر، يفوتـه اليسـر الحقيقي الـذي كـان معه في كل لحظة.

رابعا: ﴿**ذات الشَّوكة**﴾ ـ الإرادة الإلهية تختار لـك الأنفـع لا الأسهل

وثمة فهم رابع يكشف لـك تصـميم الابتلاء، يـأتي من آيـة غريبـة في صـياغتها، تكشـف فرقـا جوهريـا بين مـا يختـاره الإنسان لنفسه وما يختاره الله له:

﴿**وإذ يَعِدُكُمُ اللهُ إحدى الطائفَتَين أَنّها لَكُم وتَوَدُّون أَنّ غَير ذاتِ الشَّوكَة تَكونُ لَكُمْ ۖ ويُريدُ اللهُ أن يُحِقَّ الحَقَّ بكَلِماتِه**﴾ [الأنفال: ٧]

السياق التاريخي للآية يتعلق بغزوة بدر، حين كان أمام المسلمين خياران: قافلة قريش التجارية (السهلة، الأقل خطرا، ذات الغنيمة المضمونة)، أو جيش قريش المسلح (الصعب، الخطير، «ذات الشوكة»). كان النفس البشري يميل إلى القافلة. لكن الله اختار لهم المواجهة.

والآية تكشف قانونا أوسع من سياقها: أن الإنسان بطبعه يميل إلى الطريق الأسهل، الأقل كلفة، الأقرب إلى السلامة. في حين تتجه الإرادة الإلهية إلى الطريق الذي يقيم الحق وينشئ الإنسان القادر على حمله. وهذا الطريق، في الغالب، هو «ذات الشوكة» ـ ما فيه شوكة تخدش، ومقاومة تتعب، وثمن يدفع.

وهنا تكمن حكمة عظيمة في تدبير القدر. لو ترك الإنسان لاختياراته الفطرية، لاختار دائما الأسهل، فبقي على مستواه الأدنى. لكن الإرادة الإلهية ـ في رحمتها به، لا في قسوتها عليه ـ تدفعه نحو ما يشكله، حتى وإن كره. والابتلاء، بهذا المعنى، ليس عقوبة، بل اختيار تربوي. ليس قسوة من الله، بل رحمة به تتجاوز ميله الفطري إلى السهل، نحو ما يرفعه.

ولهذا قال القرآن في آية أخرى: ﴿**وعَسى أن تَكرَهـوا شَيئًا وهو خَيرٌ لَكُمۖ وعَسى أن تُحِبُّوا شَيئًا وهو شَرٌّ لَكُمۗ واللـهُ يَعلَمُ وأَنتُم لا تَعلَمـون**﴾ [البقـرة: ٢١٦]. كراهيتـك للابتلاء لا تنفي خيريتـه. محبتـك للسـهل لا تنفي ضرره. والفاصل بين ما تراه وما هو في حقيقته، هو فرق ما بين علمك المحدود وعلم الله المحيط.

مشهد: السيدة زينب (ع) في الشام

ولأن المفاهيم تتجلى في الأشخاص أكثر ممـا تتجلى في الكلمات، تأمل في مشهد واحد من سـيرة أهـل الـبيت (ع)، يكشف لك كيف يعمل الابتلاء حين يكون تصميما لا عقوبة.

السيدة زينب بنت علي (ع)، بنت أمير المؤمنين، حفيـدة رسول الله (ص)، تقاد سبية من كـربلاء إلى الكوفـة، ثم إلى الشـام. شـهدت في يـوم واحـد مقتـل أخيهـا الحسـين (ع) وأولاده وإخوتها وأبنـاء عمهـا. ثم اقتيـدت ـ هي ونسـاء أهـل البيت (ع) ـ بلا غطاء، تتنقل من بلد إلى بلـد، وتعـرض كأنهـا سبايا من غير المسلمين.

تخيـل المشـهد. امـرأة تحمـل في صـدرها هـذا الكم من الفقد. أي إنسان آخر، لو نزل به جـزء يسـير ممـا نـزل بهـا، لانكسـر. لكنهـا لم تنكسـر. لم تبـك على نفسـها ولـو مـرة. وحين دخلت مجلس يزيـد في الشـام، ووقفت أمامـه وهـو على عرشـه، لم تنحن، ولم تلين خطابهـا، بـل ألقت خطبـة

نزعت عنه شرعيته أمام أهـل بلـده. خاطبتـه بقولهـا: «وكِـد كَيدك، واسعَ سَعيَك، وناصب جَهدك، فواللـه لا تَمحـو ذِكرَنـا، ولا تُميتُ وَحيَنا».

تأمل ما يكشفه هذا المشهد. الابتلاء الذي نـزل بهـا كـان من أقسى ما نـزل بمخلـوق على الأرض. لكنـه لم يكسـرها، بل أظهر للتـاريخ جوهرهـا الـذي كـان لـولا هـذا الابتلاء لبقي خفيا عن الناس. لو عاشت في رخاء، لمـا عـرف التـاريخ أن في بنات النبوة هذه القـوة. لـو حفظت من البلاء، لمـا خـرج من فمهـا هـذا الكلام الـذي يقـاوم الـزمن. الابتلاء عنـدها لم يكن عقوبة، ولا حتى تأديبا، بـل كـان الميـدان الـذي ظهـرت فيه على حقيقتها.

وهذا موقف تختزله جملة منسوبة إليها، حين سـئلت عن ما رأت في كربلاء: «ما رأَيتُ إلا جَميلًا». ليست جملة امرأة بلدتها الفاجعة، بل جملة امـرأة بلغت طبقـة من الفهم تـرى فيهـا أن الابتلاء، مهمـا اشـتد، يجـري داخـل تصـميم إلهي موزون. ما يبدو من الخارج فجيعة، يكشـف من الـداخل عن جمال آخر ـ جمـال الصـدق حين يختـبر، جمـال الإيمـان حين ينكشـف، جمـال الإنسـان حين يبلـغ منزلتـه الحقيقيـة في الكون.

خامسا: تبديل السيئات حسنات

وهناك حكمة خامسة في تصميم الابتلاء، يختزلها القـرآن في آية مذهلة:

﴿**إلا مَن تـابَ وآمَنَ وعَمِـلَ عَمَلًا صـالحًا فأُولَئـك يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهم حَسَنات**﴾ [الفرقان: ٧٠]

توقف عند صـياغة الآيـة. لم يقـل «يمحـو سـيئاتهم»، ولا «يستر سـيئاتهم»، ولا «يغفـر سـيئاتهم». قـال «يبـدل». أي يحول. يغير طبيعتها. يجعل ما كان سيئة حسنة. وهذا قــانون أعجب من قــانون المغفــرة. المغفــرة تســتر، أمــا التبــديل فيحول.

والمعــنى الــذي يفتحــه هــذا المفهــوم عميــق. لا تمحى التجربة من سجلك ـ هي باقية، لكن معناها تحول. الانكســار الــذي مــررت بــه، حين تعــود إليــه بعــد ســنوات من التوبــة والتعلم، يصير سـبب ارتقـاء لا سـبب سـقوط. الـذنب الـذي ارتكبتــه، حين يكــون باعثــا لرجوعــك إلى اللــه، يصــير في ميزانك حسـنة، لا سـيئة. مـا كـان جرحـا في رحلتـك، يصـير الباب الذي دخلت منه إلى صدق العلاقة بالله.

وهذا ليس فلسفة تفاؤلية، بل قانون قـرآني صـريح. كـل ما يجري في حياتك ـ بما في ذلك سيئاتك وأخطـاؤك ـ يمكن أن يتحــول، إن أنت دخلت مــدخل التوبــة والإيمــان والعمــل

الصـالح. لا شـيء في رحلتـك مفقـود. لا تجربـة ضـائعة. لا انكسار بلا معنى، إن أنت فهمته وحولته.

تحول السؤال

وحين تسـتقر هـذه الحقـائق الخمس في وعيـك ـ أن الابتلاء تصميم لا عقوبة، وأنـه يكشـف لا يكسـر، وأنـه معـاير بدقـة على وسـعك، وأن اليسـر يجـري معـه لا بعـده، وأن الإرادة الإلهية تختار لك الأنفع لا الأسـهل، وأن كـل مـا جـرى يمكن أن يبدل إلى حسنات ـ يتحول سؤالك من جذره.

لا تعود تسأل: «لماذا يحدث هـذا لي؟»، لأنـك فهمت أن السؤال نفسه مبني على افتراض خـاطئ. تبـدأ تسـأل: «مـا الذي يبـنى في داخلي الآن؟». وبين السـؤالين فـرق مـا بين عمر يضـيع في الشـكوى، وعمـر ينبت فيـه شـيء. السـؤال الأول يستنزفك، لأنـه يطلب جوابـا قـد لا تحصـل عليـه أبـدا. السـؤال الثـاني يفتح عليـك أبوابـا، لأنـه يحولـك من ضـحية تنتظر إجابة السماء، إلى شريك في عملية تكوينك أنت.

ولكن، إذا كـان الابتلاء يكشـف، فمـا الـذي يكشـفه بالضبط؟ هل يكشف كل شيء بنفس القدر؟ أم أن لكل نوع من الابتلاء كشـفا خاصـا، يكشـف بعـدا معينـا من أبعـادك الأربعـة؟ هـذا مـا يفتحـه القسـم القـادم، حين نتوقـف عنـد ﴿**لِيَبلُوَكُم أَيُّكُم أَحسَنُ عَمَلًا**﴾.

القسم الثالث: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾

في الفصل الرابع، عند الكلام على الأضداد، توقفنا عند آية ﴿**الَّذي خَلَقَ المَوت والحَياة لِيَبلُوَكُم أَيُّكُم أَحسَنُ عَمَلًا**﴾ [الملك: ٢]. لكننا توقفنا عندها بصفتها كاشفة لهيكل الأضداد في الكون. الآن نعود إليها من زاوية مختلفة. لا لنفهم بنية الأضداد، بل لنفهم ما الذي يبتلى فينا حين تلتقي الأضداد بنا.

ثلاث كلمات في هذه الآية تستحق التوقف، كل منها يفتح بابا.

الكلمة الأولى: «ليبلوكم»

اللام في «ليبلوكم» لام التعليل ـ تكشف الغاية من خلق الموت والحياة. الله لم يخلق هذين الضدين بلا قصد، بل خلقهما لأجلك أنت. والابتلاء في القرآن ليس امتحانا في لحظة، بل رحلة كشف عبر زمن. لا يختبرك الله في لحظة واحدة ثم يصدر حكمه، بل يفتح لك حياتك كلها ميدانا للكشف. كل يوم من أيامك، وكل ساعة من ساعاتك، هو امتحان. لا لتعاقب فيه، بل لتكشف.

الكلمة الثانية: «أيكم»

«أيكم» ـ صيغة تفترض الاختلاف. لو كان الناس متطابقين، لما كان للسؤال «أيكم» معنى. الآية، بهذه الكلمة الواحدة، تكشف أن الابتلاء ليس موحدا. كل إنسان في ابتلائه هو وحده، لا يقاس بغيره.

وهذا في حد ذاته رحمة. لأنك لا تحاسب بناء على ما كان ممكنا للنبي، أو لمن ولد في ظروف غير ظروفك. تحاسب بناء على ما كان ممكنا لـ«أنت»، بقابلياتك أنت ـ كما عرفناها في الفصل الرابع. السؤال الإلهي ليس «هل بلغت منزلة فلان؟»، بل «هل بلغت منزلتك أنت التي خلقت لها؟». هذا هو السؤال الذي يكشف بالابتلاء، لا سؤال المقارنة.

الكلمة الثالثة: «أحسن عملا»

وتأمل الآن أدق كلمة في الآية. لم يقل القرآن «أكثركم عملا»، ولا «أسرعكم عملا»، ولا «أظهركم عملا»، بل قال «أحسن عملا».

والإحسان في القرآن مفهوم دقيق. ليس مجرد إتقان ظاهر، بل صدق الباطن الذي يتجلى في الظاهر. هو حضور النية، نقاء الدافع، ثبات القلب على المعنى الحقيقي للعمل. وهذا التمييز جوهري. اثنان قد يفعلان نفس الفعل بنفس المقدار، لكن ميزانهما عند الله مختلف اختلافا جذريا. الذي

يفعل لله، والذي يفعل ليقال إنـه فعـل ـ كلاهمـا عمـل، لكن واحدا فقط هو «أحسن».

ولأن هذا المفهوم يتجلى في الأشخاص أكـثر ممـا يتجلى في الكلمات، تأمل في حديث نبوي واحـد. حين بـارز الإمـام علي (ع) عمرو بن عبد ود في يوم الخندق وقتله، قال النـبي (ص): «ضَربَةُ عَليٍّ يَوم الخَندَق أَفضَـلُ من عِبـادَة الثَّقَلَين». ضربة واحدة، في لحظة واحـدة، تفـوق عبـادة الجن والإنس مجموعـة عـبر الأزمـان. القيمـة لم تكن في الفعـل نفسـه ـ فالضربة بالسيف فعـل يفعلـه ألـوف غـيره ـ بـل في عمقهـا ونيتها. كان الإمام (ع) يقاتل لله وحده، حـتى أنـه حين بصـق عمرو في وجهـه، قـام عنـه وانصـرف، لئلا يختلـط في قتلـه نصيب للنفس. ثم عاد بعد أن سكن غضبه، فقتله لله. الفعل الظاهر واحد. الباطن الذي خرج منه الفعل، هو ما رفعه إلى تلك المنزلة.

وهـذا يفتح لـك فهمـا لحياتـك كلهـا. المـيزان لا يقـاس بمقاييس الكم. صلاة واحدة بحضور كامل، خـير من سـنوات بقلب غائب. كلمة صدق في موضعها، خـير من خطب تفيض بلا روح. ما يرفع العمل ليس مقداره، بل ما يخرج منه.

الأبعاد الأربعة في ميدان الابتلاء

ولأن الابتلاء يكشف الباطن، ولأن باطنك ـ كما عرفت في الفصل الثالث ـ يتكون من أبعاد أربعة، فإن الابتلاء يكشف هذه الأبعاد كلها معا.

يكشف روحك: حجم اتصالها بالأعلى، ومقدار ما تستند إليه حين ينهار سندك في الأسفل. الروح المتصلة لا تنكسر حين تهز، لأن سندها لم يهز. ويكشف قلبك: ما كان فيه فعلا حين كنت تدعي أن فيه شيئا آخر. تظن أن قلبك يحب الله ـ لكن المال حين يتعرض، يكشف لك أنك كنت تحبه أكثر. ويكشف عقلك: ثباته أمام الزعزعة. هل عقيدتك بنيت على دليل، أم على عادة؟ ويكشف جسدك: وسعه، ومحتمله، وعلاقتك به. هل تملك جسدك أم يملكك؟

والابتلاء الكامل يكشف الأبعاد الأربعة معا. حين ينزل بك ابتلاء ثقيل، تجد روحك تختبر، وقلبك ينكشف، وعقلك يتزعزع، وجسدك يتألم ـ كل ذلك في وقت واحد.

قائمة الكشف

ولكل نوع من الابتلاء كشف خاص. يبتليك بالمال، فترى قلبك كما هو ـ هل كنت ضيفا عليه أم متعلقا به؟ هل كنت مستخدما له أم مستخدما منه؟ من كان قلبه فوق المال، يتألم لفقده دون أن ينكسر. من كان المال فوق قلبه، ينهار مع أول هزة.

ويبتليك بالفقد، فترى عمقك. من نفقـدهم يختـبر بهم. لا حبنا لهم وحسب، بل عمقنا نحن. هل كان حبنا لهم نوعا من الاتكـاء، أم نوعـا من العطـاء؟ هـل كنـا نحبهم لأنفسـنا، أم نحبهم لذواتهم؟ في الفقد ينكشف الفرق.

ويبتليك بالعلاقات، فترى نيـة الاقـتراب. ويبتليـك بـالقوة، فـترى عـدلك. ويبتليـك بالضـعف، فـترى تواضـعك. ويبتليـك بـالفرح، فـترى وعيـك ـ هـل كنت تنتظـره ليملأك، أم كنت مملوءا أصلا فجاء ليتوجك؟ ويبتليـك بـالحزن، فـترى ثباتـك ـ هل تستند إلى الله، أم إلى ما حولك؟ الذي يسـتند إلى اللـه يحزن حزن الإنسان، لكنه لا يفقد ثباته. الذي يسـتند إلى مـا حوله ينهار مع سنده، فيتسع حزنه حتى يصير يأسا.

اختبار في الاتجاه، لا في النقاء

وانظر إلى أن كل هذه الابتلاءات لا تطلب منك أن تكون نقيا تماما. لا تطلب أن لا تتألم، أو لا تخاف، أو لا تحزن. هذه متطلبـات لا يفي بهـا بشـر. الأنبيـاء (ع) أنفسـهم تـألموا، وحزنوا، وخافوا. لكنهم بقوا في الاتجاه.

الحياة ليست اختبارا في النقاء، بـل اختبـارا في الاتجـاه. ليسـت في أن لا تسـقط، بـل في أن تنهض حين تسـقط. ليست في أن لا تتألم، بل في أن لا تخسر اتجاهك في الألم. من يفهم الحيـاة كاختبـار في النقـاء، يسـتنزف نفسـه في

ملاحقة كمـال غـير ممكن. من يفهمهـا كاختبـار في الاتجـاه، يتلقى ضعفه بصدق، وينهض، ويستمر.

الشر والخير: كلاهما يكشف

ولا تظن أن ما يكشفك هو الابتلاءات السيئة فقط:

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]

﴿**بالشَّرّ والخَير**﴾. كلاهما فتنة، وكلاهما يكشـف. الشـر يختبر صبرك، والخير يختبر تواضعك. الشـر يـدفعك إلى اللـه لأنك تلجأ إلى من تظن أنـه قـادر على رفعـه. والخـير يختـبر صدق العلاقة بالله ـ هل تنساه حين تنال مـا تريـد، أم تـزداد قربا منه؟ ولهذا قال النبي (ص) في الحديث المأثور: «عَجَبًا لأَمرِ المؤمن! إنّ أَمره كلَّه له خَـير. إن أَصـابَته سَـرَّاء شَـكَر فكان خَيرًا له، وإن أَصابَته ضَرَّاء صَبَر فكان خَيرًا له».

الجسر إلى ما يلي

وإذا أحكمت هذه الأسس ـ أن الابتلاء رحلة كشف وبنـاء، يريك حالك ثم يفتح لـك ميـدان الاكتسـاب، وأن كـل إنسـان يحاسب على وسعه، وأن «أحسـن عملا» تكشـف البـاطن لا الظـاهر، وأن الأبعـاد الأربعـة كلهـا تتجلى فيـه، وأن الحيـاة اختبار في الاتجاه ـ تتحول علاقتك بكل ما يجري لك.

لكن، يبقى سؤال يلاحقك، خاصة حين يشتد عليك الابتلاء. لماذا ينبغي أن يكون الكشف مؤلما إلى هذا الحد؟ ألا يمكن للابتلاء أن يكشف بدون ألم؟ ولماذا، حين ينزل عليك الألم، يبدو وكأنه أكثر من ضروري؟ يبدو زائدا، فائضا، يتجاوز ما يكشفه؟

هذه الأسئلة تفتح فصلا جديدا. لا فصل الابتلاء كتصميم، ولا فصل الابتلاء ككشف، بل فصل الألم نفسه ـ ما وظيفته، ولماذا هو حاد بهذا الشكل، ولماذا لم يختر الله طريقة أخف لكشفنا على أنفسنا. هذا ما يكشفه القسم القادم.

القسم الرابع: الألم بوصفه إيقاظا

عرفنا في القسم السابق أن الابتلاء يكشف. لكن سؤالا يبقى عالقا في الصدر: لماذا يكشف بالألم؟ ألا يمكن الكشف بطريقة أهدأ، أخف، أقل قسوة؟ لماذا ينبغي أن ينفطر القلب لكي يفهم، وأن ينكسر الجسد لكي يدرك، وأن تضطرب الروح لكي تستيقظ؟

السؤال ينبغي أن يقلب من جذره. الألم ليس وسيلة عنيفة للكشف، اختارها الله من بين عدة وسائل. الألم نفسه هو الكشف. هو ليس أداة ينتج عنها الكشف، بل هو الكشف في صورته الواعية. حين تعرف نفسك حقا، تتألم. وحين تتألم، تكون قد عرفت. والذي لا يتألم في حياته، لا يعرف نفسه بعد ـ مهما ظن أنه يعرفها.

وظيفة الألم: جرس الحقيقة

تأمل ما يفعله الألم في جسدك. لـو لم يكن في جسـدك قدرة على الإحساس بالألم، لما عرفت أن يدك تحـترق حين تلمس النار. لكنت تستمر في لمسـها حـتى تفـنى. الألم في الجسد هو الجرس الذي يقول لك: توقـف، شـيء هنـا ينبغي أن يغير. هو ليس عدوك، بل حارسك.[11]

وكــذلك الألم في الــروح والقلب والعقــل. حين تتــألم نفسك في علاقة، فالألم يقول لك: شيء في هذه العلاقـة لا يستقيم. حين تتألم من قرار اتخذته، فالألم يقول لك: راجـع. حين تتألم من حياتـك كلهـا بشـكل مبهم، فـالألم يقـول لـك: هناك خلل في الاتجاه. الألم هو لغة الله إلى عبده، يكلمه بها حين لا يسمع منه بغيرها.

وهو يفعل ثلاثة أشياء في عمقك. يكشـف لـك مـا يحتـاج إلى تغيير. فالحياة المريحة تخفي على الإنسـان عيوبـه. أمـا الألم فينزع الأغطية. ويعيد القلب إلى حجمه الحقيقي. فالأنا في الرخاء تتضخم حتى تظن نفسها كل شـيء، وهـذه سـنة بشرية كشفها القرآن بصراحة في أول ما نزل:

---

[11] يؤكد الطب هـذه الوظيفـة الحارسـة للألم من جهـة ضـدها: فثمـة اضطراب وراثي نادر يسـمى انعـدام الإحسـاس بـالألم الخلقي (CIPA)، يولد صاحبه عاجزا عن الشعور بالألم، فيتعرض لحـروق وكسـور وجـروح متكررة، بل يعض لسانه وأصابعه دون أن يدري، لأن جرس الإنذار الــذي يحمي سائر الناس معطل فيه. فالألم، في أصله، حمايـة لا عطب. تـذكر هنا للتشخيص لا للاستدلال. انظر مراجعـة منهجيـة في: Personalized Medicine (MDPI), 2024.

﴿كَلَّا إنَّ الإنسانَ لَيَطغى ۝ أن رَآه استَغنى﴾ [العلق: ٦-٧]

والألم يأتي ليذكر الأنا بحجمها، لينزل بها من بـرج كـانت قد بنتـه من وهم خـالص. ويمنعـك من أن تعمى. لأن النعمـة بلا ابتلاء تجعــل الإنســان ينســى من أنعم عليــه، فينشــغل بالنعمة عن معطيها. والقرآن يكشف هذه الحركة بدقة:

﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّه مُنيبًا إلَيه ثُمَّ إذا خَوَّلَه نِعمَةً منه نَسِيَ ما كـان يَـدعو إلَيـه من قَبـل﴾ [الزمر: ٨]

والألم يعيدك إلى المعطي حين تنساه في النعمة.

﴿العَذاب الأَدنى دون العَذاب الأَكبَر﴾

والقرآن يكشف هذه الوظيفـة بصـراحة في آيـة من أدق ما ورد في وصف الألم:

﴿وَلَنُذيقَنَّهم من العَذاب الأَدنى دون العَذاب الأَكبَر لَعَلَّهم يَرجِعون﴾ [السجدة: ٢١]

توقف عند كل كلمة في هذه الآية، فإنهـا تحمـل المفتـاح كله.

«لنـذيقنهم» ـ بنـون التوكيـد الثقيلـة. ليس «نـذيقهم» فقط، بل «لنذيقنهم» بحتم وقطع. هذا الألم ليس صدفة، ولا عرضا. هو تدبير إلهي مقصود، لا ينزل اعتباطا.

«من العـذاب الأدنى» ـ من، الـتي تعـني التبعيض. أي: قسما، جزءا، شـيئا يسـيرا. وكلمـة «الأدنى» تحمـل معنـيين معا: الأقرب (في المكـان والزمـان) والأخـف (في الشـدة). والألم الذي تختبره في الـدنيا هـو «أدنى» بهـذين المعنـيين: قريب منك، لا يتأخر إلى الآخـرة، وأخـف ممـا ينتظـر من لم يتعظ.

«دون العـذاب الأكـبر» ـ «دون» هنـا حـرف يـدل على التمييز عن، لا الاتجـاه نحـو. أي: متمـيز عن العـذاب الأكـبر، أدنى منـه، وسـيلة ليتجنبـه الإنسـان. وهـذا أمـر في غايـة العظمة: الألم القريب يجنبك الألم البعيـد. الجـرح في الـدنيا يحميك من الهلاك في الآخرة.

«لعلهم يرجعـون» ـ «لعـل» حـرف يـدل على الـترجي ـ الأمل في الاستجابة. الله ـ تعـالى ـ لا يـترجى من جهـل، بـل يـترجى بمعـنى أنـه يفتح البـاب أمامـك، وينتظـر اسـتجابتك الحرة. لم يقل «ليرجعوا» بصـيغة الجـزم، لأن الرجـوع ليس مفروضا، بل معروضا. والألم هو العرض. أما قبوله، فمتروك لك.

والمعـنى الـذي تفتحـه الآيـة كلهـا: أن الألم في حياتـك ـ كثيرا منه ـ ليس عقوبة، بل رسالة رجـوع. ليس انتقامـا، بـل

رحمة مؤلمة. ليس إذلالا، بل إيقاظا قبل أن يتصلب المسار، ويغلق باب العودة. حين تتألم في الدنيا، تجد الباب لا يزال مفتوحا. وحين يتألم الإنسان في الآخرة، يكون الباب قد أغلق. ولهذا، فإن الألم في الحياة ـ مهما اشتد ـ نعمة في الحقيقة، لأنه يأتي حين تنفع التوبة، حين ينفع الرجوع.

ما يفهمه القدماء وتنساه الحداثة

ولأهمية هذا الفهم، توقف عليه علماء المسلمين بمختلف مذاهبهم. الإمام أبو حامد الغزالي ـ في «إحياء علوم الدين» ـ يكشف هذا المعنى بدقة حين يقول ما معناه: إن البلاء ينزل بالعبد لإحدى ثلاث: تكفيرا لذنب، أو رفعا لدرجة، أو تنبيها للرجوع. ولا يخلو بلاء من واحدة من هذه. من نظر إليه بعين الأولى صبر، ومن نظر إليه بعين الثانية شكر، ومن نظر إليه بعين الثالثة رجع. الفكرة دقيقة: الألم لا يأتي عبثا، بل يحمل وظيفة ينبغي أن يكتشفها العبد. ومن لم يكتشفها، فاته ما كان ممكنا أن ينتفع به.

لكن ما فهمه القدماء بحدس مباشر، صار في عصرنا غريبا، بل مرفوضا. الحداثة الغربية ـ التي تشربتها ثقافتنا المعاصرة بدرجات متفاوتة ـ تنظر إلى الألم بوصفه خللا ينبغي إزالته بأي ثمن. تتعامل مع الإنسان كمريض دائم يحتاج تخديرا، وتسوق له المهدئات والمنومات والمسكنات النفسية، وتستبدل الجرس بالكتم. وحين يأتيه ألم نفسي، لا يقال له «اسمع ما يقوله لك»، بل يقال له «اكتمه». وحين

يأتيه قلق وجودي، لا يدعى إلى التأمل، بل إلى الإلهاء. والنتيجة: إنسان يعيش في غفلة عن رسائل داخله، يتفاقم خلله دون أن يدري، حتى ينفجر بلاؤه الأكبر دفعة واحدة. الحداثة كتمت الألم الأدنى، فاستدعت الألم الأكبر. عكست الآية تماما.

الألم لا يأتي صدفة

ولأن الألم رسالة، فإن كل نوع منه يحمل رسالته الخاصة، إن أنت أصغيت. الألم الجسدي يقول لك: انظر إلى جسدك، فقد أهملت شيئا فيه. الألم النفسي يقول لك: انظر إلى علاقاتك، أو إلى أفكارك، أو إلى ما تحمله من ثقل غير مرئي. الألم الروحي يقول لك: انظر إلى صلتك بالله، فقد ضعفت في موضع ما. والكوارث الكبرى ـ الفقد، المرض الشديد، الانكسار الكامل ـ تقول لك: راجع كل شيء، فالحياة بأكملها تطلب منك إعادة ترتيب.

ومن يهمل هذه الرسائل، لا يلغيها، بل يؤجلها. والألم المؤجل يعود، لكن أشد. لأنه حين يعجز «الأدنى» عن إيقاظك، يأتي ما هو أكبر. ﴿**لَعَلَّهم يَرجِعون**﴾ ـ الرجاء الإلهي معك يبقى مفتوحا. لكن النوافذ تضيق حين تتجاهل.

استقبال الألم لا الهرب منه

والفهم الذي ينبغي أن يستقر في وعيك بعد كل هذا: أن الألم ليس عدوا تهرب منه، بل معلما تستقبله. الفرق بين

الإنسانين أمام نفس الألم، ليس مقدار ما يختبرانه، بل كيف يستقبلانه. الأول يريد أن ينتهي، فيستنزف نفسه في محاولات التخدير والإلهاء، فيزداد ألمه. الثاني يستقبله، يستمع إليه، يسأله: ماذا تريد أن تعلمني؟ فينحل الألم بقدر فهمه.

وهذا لا يعني أن الألم يختفي بمجرد الفهم. لا. لكنه يتحول. يتحول من عذاب بلا معنى إلى مسار ذي اتجاه. من ضيق يخنقك، إلى رحلة تسير فيها. والإنسان يستطيع أن يحتمل الكثير من الألم، إن عرف معناه. وما يكسره ليس مقدار الألم، بل شعوره بعبثيته.

جسر إلى ما يلي

بعد أن تتضح هذه المعاني ـ أن الألم جرس، وأن ﴿**العَذاب الأَدنى**﴾ يجنبك ﴿**العَذاب الأَكبَر**﴾، وأن الحداثة عكست المعنى، وأن كل ألم رسالة ـ تتسع علاقتك بكل ما ينزل بك.

لكن، إن كان الألم رحمة، وإن كان الابتلاء تصميما، فما دور الشيطان في كل هذا؟ أليس الشيطان هو مصدر الشر؟ كيف نفهم وجوده داخل نظام صمم للنمو لا للهلاك؟ وهل هو خصم يحارب، أم وظيفة تفهم؟

هذه الأسئلة تفتح القسم القادم.

القسم الخامس: الشيطان ـ ممتحن لا قاهر

بعـد كـل مـا رأينـاه عن الابتلاء والألم بوصـفهما تصـميما وإيقاظا، يزور القارئ المتأمل سؤال جديد: حسنا، فهمنـا أن الابتلاء كشـف، وأن الألم جـرس. لكن مـاذا عن الشـيطان؟ أليس هو الذي يدفعنا إلى الذنب، ويغوينا، ويزين لنا السـوء؟ كيف يدخل هو في هذا النظام الذي يبدو محكما للنمو؟

السؤال ينبغي أن يحـرر من جـذره قبـل أن نجيب عليـه. والمفارقة الكبرى التي يكشـفها القـرآن هي أن الشـيطان ـ مع كونه عـدوا مبينـا للإنسـان ـ يلعب، دون قصـد منـه، دورا مساعدا في إيصال البشر إلى الهدف الـذي خلقهم اللـه من أجله. هذه ليست مفارقة جدلية، بل حقيقـة تنبـني على فهم أعمق لتدبير الله. فالله ـ الحكيم الجبار، الذي سخر للإنسان ما في السماوات والأرض، وسخر لـه الملائكـة لخدمتـه ـ مـا كـان ليسـمح للشـيطان بـأن يفسـد عليـه غرضـه في خلـق الإنسان. لكنه أذن له بالعمل لأن في عمله نفسه ـ برغمــه ـ خدمة لما يريده الله من عبده.

الشيطان لا يخلق الشر، بل يكشفه ويحفزه

تأمل في الوظيفة التي يؤديها الشـيطان. هـل هـو الـذي يخلق فيك الشهوة؟ كلا، الشـهوة في تكوينـك أصـلا، أودعهـا

اللـه فيـك كجـزء من قابلياتـك. هـل هـو الـذي يخلـق فيـك الغضب؟ كلا، الغضب أيضا قوة موضـوعة في طبيعتـك. هـل هو الذي يخلق فيك الكبر، أو الحسد، أو البخل؟ كلا، كل هذه قوى كامنة في الإنسان، تنتظر شيئا يحركها.

دور الشيطان لا يتجاوز التحريك والتزيين. هـو يحـرك مـا هو فيك أصلا، ويزينـه، ويجعلـه جـذابا. لكنـه لا يخلقـه. وحين يستجيب الإنسان لإغراء الشيطان، فإنه يستجيب لشيء كان فيه، لا لشيء جاءه من خارجه.

لكن هـذا التحريـك نفسـه ـ مـع كونـه شـريرا في قصـد الشيطان ـ يخدم تكوين الإنسان في تـدبير اللـه الأعلى. لأن التحريــك يســتدعي المقاومــة، والمقاومــة تنمي القــدرات الكامنـــة، وتحفـــز العقـــل والإرادة وقـــوى النفس للـــدفاع. والنتيجة، كما يكشفها التاريخ والواقـع، أن أعـدادا كبـيرة من البشــر يســتحقون مقامــات لم يكونــوا ليصــلوا إليهــا لــولا التحديات والاستفزازات التي يمارسها الشـيطان. الشـيطان يظن أنه يهلكهم، وهو في الحقيقـة يـرفعهم ـ دون أن يـدري ولا يقصد.

مجاز التطعيم: لقاح الروح

ولكي يستقر هذا المعنى في وعيك، تأمـل في مجـاز من الطب الحديث، يكشف هذه الحكمة بدقـة فائقـة. تأمـل في التطعيم الذي نلقح به أطفالنا.

التطعيم في حقيقته إدخال نسخة ضعيفة من المرض إلى الجسد. في ظاهره فعل غريب: لماذا نحقن طفلا سليما بالمرض؟ لكن في باطنه حكمة عميقة. لأن الجسد لا يبني مناعته ضد المرض إلا حين يلتقي به. الجسد الذي لم يختبر شيئا، لا تتكون فيه أجسام مضادة، فيكون ضعيفا أمام أول عدوى حقيقية. أما الجسد الذي اختبر النسخة الضعيفة من المرض، فيكون مناعته، ويصير قادرا على مواجهة النسخة الحقيقية حين تأتي.

والشيطان في حياة الإنسان يلعب دور التطعيم الروحي. هو نسخة من الشر، أذن لها أن تلتقي بك، لكي تكون نفسك مناعة ضد الشر الأكبر. لو لم يلتق الإنسان بإغراءات يقاومها، لما تكونت فيه قوة المقاومة. ولو لم يختبر تزيين الباطل، لما عرف صلابة بوصلته في تمييز الحق. الشيطان، إذا، لا يهلك الإنسان السليم، بل يحصنه.

والأجمل في هذا المجاز أنه يكشف لك أيضا معنى الذنوب الصغيرة التي يرتكبها المؤمن بين الفينة والأخرى. هي أشبه بالأعراض الجانبية للقاح. حين يلقح طفل، تأتيه أحيانا حمى، أو احمرار، أو إجهاد. هذه الأعراض غير مرغوبة في ذاتها، لكنها دليل على أن الجسد يقاوم اللقاح، لا على فشله. ولولا هذه المقاومة، لما تكونت المناعة. كذلك الذنوب الصغيرة عند المؤمن الصادق. هي ـ مع كراهتنا لها ـ دليل مقاومتنا للشيطان، لا دليل استسلامنا له. والنفس

التي تذنب ثم تستغفر، تتكون فيها مناعـة أعمـق من النفس التي لم تذنب ولم تجرب.

﴿إِنَّ عِبادي لَيس لَك علَيهم سُلطان﴾

والقرآن يحسم هذه العلاقة بدقة في آيـة تكشـف حـدود سلطة الشيطان:

﴿إِنَّ عِبادي لَيسَ لَكَ علَيهِم سُلطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوينَ﴾ [الحجر: ٤٢]

ويتوقف السيد الطباطبائي عند هذه الآيـة وقفـة تكشـف عمقهـا الحقيقي. يقـول مـا معنـاه: إن اللـه سـبحانه يقـول للشـيطان: إن عبـادي ـ أي البشـر ـ لا سـلطان لـك عليهم، وهـذه هي القاعـدة، وهـذا هـو الأصـل. أمـا سـلطانك فإنمـا يتحقق بشكل استثنائي فقط على أولئك الـذين يتبعونـك من الغاوين. وهم أولئك الذين تتمكن منهم ممارسـاتهم السـلبية في حياتهم إلى درجة أنهم يصح أن يطلـق عليهم «غـاوين». ولأنهم غـاوون، فـإنهم يتبعونـك ـ وليس أنـك تتسـلط عليهم قهرا.

والفرق بين الفهمين فرق جـوهري في حياتـك كلهـا. من يفهم أن الشيطان قوة تتسلط عليـه من الخـارج، يعيش في حالة دفاع دائم، يخاف أن يؤخذ بغتة، أن يسلب اختيـاره من غـير قصـده. ومن يفهم أن الأصـل عـدم السـلطان، وأن

السلطان لا يتحقـق إلا باختيـاره، يعيش بطمأنينـة. لأنـه يعلم أن المفتاح في يده، لا في يد عدوه. الشيطان لا يستطيع أن يقتحم قلبه، إلا إذا فتح هو الباب.

حذار من الحكم المتسرع

ومن هـذا الفهم ينبـع تحـذير مهم: لا تحكم على إنسـان بسلطة الشـيطان عليـه من منظـور محـدود. إذا رأيت أحـدا يمارس محرما أو أكثر ـ كأن يكذب، أو يسمع مـا لا ينبغي، أو يـرتكب صـغيرة من الصـغائر ـ فلا تسـتعجل بـالحكم بـأن الشيطان قد استولى عليه وتحكم به. لأنـك في حكمـك هـذا تنظر إلى جانب واحد فقط من حياته، وتتغافل عن الجـوانب الأخرى التي لم يستطع الشيطان أن يصرفه عنهـا، وهي في الغالب أكثر بكثير من سيئاته.

تأمل في الإنسان الذي تحكم عليـه. ألا يجتهـد في عملـه ليطعم أهله؟ ألا يلطف بأمه أحيانـا؟ ألا يـؤدي مـا يمكنـه من واجباته؟ ألا يخـدم مجتمعـه ولـو بقـدر يسـير؟ ألا ينقبض في قلبه حين يرى ظلما، حتى لو لم يستطع تغيـيره؟ هـذه كلهـا أعمـال صـالحة تفلتت من الشـيطان، وهي شـواهد على أن سلطانه عليه ليس مطلقا، بـل جزئيـا. ولا يسـتقيم أن نحكم على لوحة فنية رائعة فيها بعض الأخطاء بأنها قبيحة وشنيعة. اللوحة بمجموعها هي ما يحاكم، لا تفاصيلها وحدها.

«إنَّ المؤمن مُفتَتَنٌ تَوَّاب»

وهذا الفهم يفتح عليك حديثا نبويا في غاية العمق. يـروى أن صحابة النبي (ص) جاؤوه يوما فقـالوا: «يـا رسـول اللـه، نخاف علينا النفـاق». فسـألهم النـبي (ص): ولمـاذا تخـافون ذلك؟ قـالوا: إذا كنـا عنـدك فـذكرتنا ورغبتنـا، وجلنـا ونسـينا الدنيا، وزهدنا حتى كأننـا نعـاين الآخـرة والجنـة والنـار ونحن عندك. فإذا خرجنا من عنـدك ودخلنـا هـذه الـبيوت وشـممنا الأولاد ورأينا العيال والأهل، يكاد يتحول حالنـا عمـا كنـا عليـه عندك، حتى كأننا لم نكن على شيء. أفتخاف علينا أن يكون ذلك نفاقا؟

فأجابهم النبي (ص) بكلام ينبغي أن يستقر في وعي كـل قارئ: «كَلَّا، إنّ هذه خَطَوات الشَّيطان فيُـرَغِّبكم في الـدُّنيا. واللـه لـو تَـدومون على الحـال الـتي وَصَـفتُم أَنفسـكم بهـا لصافَحَتكم المَلائكَة، ومَشَيتم على الماء. ولـولا أنَّكم تُـذنبون فتَستَغفرون الله لخَلَقَ الله خَلقًـا حـتى يُـذنبوا ثم يَسـتَغفروا الله فيَغفر لهم. إنَّ المؤمن مُفتَتَنٌ تَوَّاب».[12]

تأمل ما يكشفه هذا الحديث. الـذنب والاسـتغفار، الفتنـة والتوبة، موضوعان في تصميم رحلة الإنسان نحو الله. لو لم يكن الإنسان يذنب ويستغفر، لما عرف رحمـة اللـه. ولـو لم

[12] أصل هذا المعنى ثـابت في صـحيح مسـلم من حـديث أبي هريـرة وأبي أيوب (رضي الله عنهما): «لولا أنّكم تُذنبون لخَلَق اللهُ خَلقًا يُذنبون فيَسـتغفرون فيَغفـر لهم»، وقـد وردت بهـذا السـياق الأتم في مصـادر أخرى. يضبط لفظه وتخريجه من طبعة معتمدة عند الإخراج النهائي.

يختبر السـقوط، لمـا عـرف قيمـة النهـوض. ولـو لم يجتذبـه الشيطان في لحظات، لمـا اكتشـف صـدق التفاتـه إلى اللـه في لحظات أخرى. الذنب الذي يتبع باسـتغفار ليس انحرافـا في الرحلة، بل جزء من تصميمها.

وهذا فهم يـريح صـدر المـؤمن الصـادق. لا تـأنب نفسـك على إنسانيتك. لا تيأس من رحمة اللـه بسـبب تعـثر. لا تظن أن السـقوط يلغي مـا سـبقه من ارتفـاع. الإنسـان مفتتن بطبيعة وجوده، تواب بفطرته الـتي خلـق عليهـا. والمطلـوب منـه ليس أن يكـون ملاكـا، بـل أن يكـون إنسـانا صـادقا في رجوعه كلما تعثر.

وظائف وجودية في نظام صمم لصناعة الإنسان

وحين تجمـع كـل مـا رأيتـه في هـذا الفصـل ـ من الابتلاء كتصـميم، والألم كإيقـاظ، والشـيطان كلقـاح يحصـن لا قـوة تقهر ـ تكتشف أن ما يبدو في الكون «شرا» ليس عبثـا، بـل وظائف وجودية داخل نظام صمم لصناعة الإنسان.

الابتلاء ليس عقوبة، بل بـاب كشـف. الألم ليس انتقامـا، بل رسـالة رجـوع. الشـيطان ليس قـاهرا، بـل ممتحن يلعب دورا مساعدا دون أن يقصـد. الـذنب ليس نهايـة، بـل عرضـا جانبيا لمقاومة تجري في الباطن. وكل هذه الوظـائف تخـدم غايـة واحـدة: أن يتكـون الإنسـان بإرادتـه، لا أن يجـبر على

التكون. أن يختار طريقه، لا أن يساق إليه. أن يبني نفسه باختياره، لا أن يفرض عليه ما يكون.

وهنا يتضح سر هذا الفصل كله. فالصفات التي تكتسبها في ميدان الاحتكاك ـ صبرك، وصدقك، ويقينك، وحلمك ـ ليست زينة عابرة تتركها عند باب القبر. هي نفسها ذاتك التي ستعيش بها في الآخرة، كما تعيش بها الآن في الدنيا. فأنت لا تملك في الحقيقة إلا ما صرت عليه؛ والصفة الراسخة التي بنيتها بإرادتك تصبح جزءا من جوهرك، تحملها معك حيث تذهب. هذه هي «الذات الخالدة»: لا ما جمعت، بل ما صرت؛ لا ما ملكت، بل ما اكتسبت من صفات وجودية. والابتلاء، بهذا المعنى، ليس عدوا يعطل حياتك، بل هو المنحت الذي فيه تنحت الذات التي تخلد.

ولو نزعت من النظام أيا من هذه الوظائف، لانكسر النظام نفسه. لو نزعت الابتلاء، لما تكون الإنسان. لو نزعت الألم، لما استيقظ. لو نزعت الشيطان، لما صار اختياره اختياره. ولو نزعت إمكان الذنب، لما عرف رحمة الله. هذه الأربع ليست خللا في تصميم الكون، بل هي التصميم نفسه.

الجسر إلى ما يلي

لكن، إن كانت هذه هي طبيعة النظام، يبقى سؤال في غاية الأهمية: هل أنت ـ كإنسان ـ مجرد متلق لما يقدره الله؟ هل دورك محصور في الاستجابة لما ينزل؟ أم هناك

موضع لإرادتك في تغيير ما ينزل بك؟ وإذا كان كل شيء بقدر، فأين موضع الدعاء؟

هذه الأسئلة تفتح القسم القادم: مرونة القدر.

القسم السادس: مرونة القدر

في الفصل الرابع، حين تكلمنا عن قانون العلية، طرحنا سؤالا وأجلنا جوابه: إذا كان كل شيء يجري بأسبابه الصارمة، فما موضع الدعاء؟ كيف يتفاعل الإنسان مع قدر محكم؟ هل يستطيع أن يغير شيئا بطلبه؟ أم أن الدعاء مجرد طمأنينة نفسية، لا أثر له في الواقع؟

السؤال يستحق أن نفتحه الآن. لأن الدعاء هو الجسر الذي يربط بين الفهم والعمل، بين المعرفة بالنظام والحركة داخله. ومن لم يفهم الدعاء فهما صحيحا، إما أن يتركه بسبب فهمه الجبري للقدر، أو يستعمله بطريقة ملتوية تجعله ينتظر من الله ما لم يعد به.

السنة ليست سجنا

تبدأ الأسئلة الملحة حين يستقر في وعينا أن الكون يجري بسنن لا تتخلف. ينشأ في الصدر خوف صامت: هل تعني هذه الصرامة أن حياتي محكومة بسلسلة حديدية من الأسباب لا يمكن اختراقها؟ هل نحن سجناء في قفص من

القـوانين؟ إذا كـان كـل شـيء يتحـرك وفـق العليـة، فـأين مساحة الدعاء؟ وأين موضع التدخل الإلهي؟

هذه الأسئلة تبـدو مخيفـة، لكنهـا مبنيـة على فهم نـاقص ينبغي تصحيحه. عرفنا في الفصل الرابع أن القوانين الكونية ليست كيانـات مسـتقلة قائمـة بـذاتها، بـل انعكـاس لتفاعـل صفات الموجودات نفسها. ولأنها كذلك، فإنهـا تسـتجيب لمـا يدخل المعادلة من قوى جديدة. لا تكسر، لكنهـا تتغـير بتغـير القابليـات والمـدخلات. وفـرق كبـير بين أن تكـون القـوانين سجنا، وأن تكون ميدانا تتحرك فيه قوى متعددة، يؤثر بعضها في بعض.

تأمل في طفل يحاول رفع صخرة ثقيلة فلا يستطيع. هل الكون يعانده؟ كلا. السبب بسيط: عضلاته لا تملـك القابليـة. القانون واحد: الوزن يحتـاج إلى قـوة. فـإذا جـاء رجـل قـوي ورفع الصخرة بسهولة، هل كسر القانون؟ كلا. القـانون كمـا هو، ثابت لم يتغير. ما تغير هو القابلية. دخل سبب جديد إلى المعادلة، فتغيرت النتيجة.

﴿بَل يَداهُ مَبسوطَتان﴾

ولكي يستقر في وعيك موضـع الـدعاء في هـذا النظـام، تذكر ما عرفنـاه في الفصـل الرابـع: أن اللـه ـ في كـل آن ـ حاضر في الكون فاعل فيه، يفيض الوجود على كـل موجـود في كل لحظـة. هـو ليس صـانعا أول ثم انسـحب، بـل قيـوم

يمسك الكون بأمره المتجدد. وهذه الحقيقة يختزلها القرآن في رده القاطع على من ظن أن الله انسحب من تدبير العالم:

﴿**وقالَتِ اليَهودُ يَدُ اللهِ مَغلولَةٌ غُلَّت أَيديهم ولُعِنوا بما قالوا بَل يَداهُ مَبسوطَتانِ يُنفِقُ كَيفَ يَشاء**﴾ [المائدة: ٦٤]

﴿**بَل يَداه مَبسوطَتان**﴾ ـ في كل لحظة، وفق إرادة حرة، لا تنتهي. وهذا ما يفتح الباب للدعاء أصلا. لأن من لا يفعل، لا يدعى. أما من يداه مبسوطتان، فالدعاء إليه له معنى ـ يستدعي إفاضة جديدة على قابلياتك، تأذن بأن تتغير النتيجة.

سر الدعاء

وإذا استوت هذه الحقائق في وعيك ـ أن القوانين تستجيب للقابليات، وأن يد الله مبسوطة في كل لحظة ـ ينفتح عليك سر الدعاء.

الدعاء ليس طلبا لكسر القانون، بل طلبا لإضافة قوة أعلى إلى معادلة حياتك. أنت لا تطلب من الله أن يوقف الجاذبية. تطلب منه أن يضع في يدك ما يجعلك قادرا على التعامل معها. لا تطلب إلغاء الأسباب، بل استدعاء سبب لم يكن في حسابك. لا تطلب تعطيل النظام، بل تفعيل مستوى أعلى منه.

والقرآن يكشف هذا في عبارة في غاية الدقة:

﴿إِنَّما أَمرُهُ إذا أَرادَ شَيئًا أن يَقولَ لَهُ كُن فَيَكون﴾ [يس: ٨٢]

تأمل صياغة الآية. «كن» ليست إلغاء للقوانين، بل إحداث سبب من عالم أعلى لم يكن ظاهرا لك. ليست كسرا للعالم، بل فتحا لباب في بنائه. الله لا يفعل في الكون من خلال خرق قوانينه، بل من خلال إدخال قوى جديدة عليها.

وحين تدعو، أنت تطلب من الله أن يحدث في حياتك سببا لم يكن. لا أن يلغي ما هو قائم. وهذا فرق يلطف علاقتك بالدعاء كلها. لا تعود تنتظر أن يتوقف الزمن، أو تنقلب الجاذبية. تنتظر أن يدخل في حياتك ما لم يكن، فيتسع الممكن، وتنفتح أبواب لم تكن مفتوحة.

القدر شبكة من الاحتمالات

ولأن الدعاء يستدعي سببا جديدا، فإن القدر نفسه ليس طريقا واحدا مصمتا، بل شبكة من الاحتمالات. هذا الفهم يحرر القارئ من تصور خاطئ شائع: أن القدر «خط مكتوب» لا يتغير، وأن كل ما تفعله مقدر سلفا في تفاصيله الدقيقة.

الحقيقة أدق. القدر يتحرك في شبكة من الإمكانات، يتسع فيها مجال ما يمكن أن يحدث، بحسب ما يدخل الإنسان إلى المعادلة من اختيارات وأدعية. الدعاء هو القوة التي تنقلك من احتمال إلى احتمال، ومن نتيجة إلى نتيجة، ومن مسار إلى مسار. ليس مغالبة للقدر، بل تفعيلا لقدر آخر.

ولهذا قال النبي (ص) في الحديث المأثور: «لا يَرُدّ القَدَرَ إلا الدُّعاء». الدعاء يرد القدر، لكن هو نفسه قدر. فلا تناقض. الدعاء جزء من النظام، لا خرق له.

وظائف الدعاء

وللدعاء في حياتك وظائف، ينبغي أن تستقر في وعيك حتى تستعمله بفهم.

يوسع واديك. كما رأيت في قانون المطر والأودية في الفصل الرابع، الفيض الإلهي واحد، لكن الأوعية مختلفة. والدعاء يتدخل في الوعاء، لا في الفيض. حين تدعو، أنت تطلب من الله أن يوسع قابليتك، أن يكسر فيك ما يمنع المطر من الإمساك.

يستدعي قوة أعلى. حين تكون أسبابك ضعيفة، أو غير كافية، أو خارج إمكانك، يستدعي الدعاء قوة تعمل من مستوى أعلى. ليست خارقة للقوانين، بل عاملة فوقها.

يحول المعنى. حـتى حين لا يتغـير الظـاهر، يغـير الـدعاء الباطن. الابتلاء الذي ينزل بك، يتحول بفعل دعائك من ضيق بلا معـنى إلى بـاب ذي اتجـاه. الألم لا يـزول، لكنـه يكتسـب معنى.

ولكن الدعاء يفعل شيئا رابعا، أعمق من هـذه الوظـائف الثلاث، وهو ما يجعله محبوبا لله في ذاته، بصرف النظر عن استجابته الظاهرة. الدعاء يرفع وجودك.

تأمل في قول الله:

﴿وقالَ رَبُّكُمُ ادعُوني أَستَجِب لَكُم﴾ [غافر: ٦٠]

الله ـ الغني المطلق ـ يدعونا إلى الـدعاء. لا لحاجـة منـه لدعائنا. فهو غني عن كل مخلوق. ولكن في الـدعاء ترسـيخا لحال العبودية لله فينا، وهـو مـا يقربنـا إلى اللـه، ويرفـع من مستوى وجودنا. حين تدعو الله، تكتشف فقرك إليه، فـترتفع رتبتك. تكتشف حاجتك، فتتسع نفسـك. تكتشـف أنـك لسـت القائم بذاتك، فتفتح أفقا أعلى من نفسك.

وتأمل في ما يفعله القرآن حين يتكلم عن الدعاء بصورة أخرى:

﴿وإذا سَأَلَكَ عِبادي عَنّي فإنّي قَريبٌ أُجيبُ دَعوَةَ الدّاعِ إذا دَعانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]

تأمل صياغة الآية. «وإذا سألك عبادي عني» ـ لم يقل «وإذا سألوك»، بل وضع الواسطة (النبي ص)، لكن الجواب جاء مباشرا: «فإني قريب». تكسر الواسطة في الجواب لتأكيد أن بين العبد وربه في الدعاء لا واسطة. الله «قريب»، يجيب الداعي إذا دعا. الدعاء في حد ذاته باب قرب، لا مجرد آلة طلب.

الازدواجية المتوازنة

والفهم الذي ينبغي أن يستقر في وعيك بعد كل هذا، يختزل في عبارة بليغة من تراث الحكمة الإسلامية: «اِعمَل بالأَسباب كَأنّها كلّ شَيء، وتَوَكَّل على الله كَأنّ الأَسباب لا شَيء».

تأمل في هذه العبارة. ليست تناقضا، بل طبيعة الوجود الإنساني نفسه. أن تكون خليفة في الأرض، وعبدا بين يدي الله. أن تمشي بثبات في قوانين العالم، وقلبك معلق بمن وضع هذه القوانين. أن تأخذ بالأسباب بكل ما تملك من حرص، ثم تتوكل على الله كأنك لم تعمل شيئا.

ومن ينحرف عن هذا التوازن في أي اتجاه، يضيع. من يعمل بالأسباب دون توكل، ينزل إلى المادية، فيستنزفه القلق وينتهي إلى الإحباط. ومن يتوكل دون أخذ بالأسباب، ينزل إلى الكسل، وينتظر من الله ما لم يعد به. التوازن

الصحيح يجمع الاثنين معا، في حركة واحدة ذات بعدين: بعـد في الأرض، وبعد في السماء.

الجسر إلى ما يلي

بعد أن تتضح هذه المعاني ـ أن السنة ليست سـجنا، وأن يـد اللـه مبسـوطة في كـل لحظـة، وأن الـدعاء يفعـل قـدرا أعلى، وأن القدر شـبكة من الاحتمـالات، وأن الـدعاء نفسـه يرفع وجودك، وأن التوكل لا يلغي السعي ـ تتحـرر من ثقلين معا: ثقل الجبر الذي يجعلك متلقيا فقط، وثقل القلـق الـذي يجعلك تظن أن كل شيء على عاتقك وحدك.

لكن، يبقى سؤال أخير: كيف يجتمع كل ما رأيناه في هذا الفصل ـ من ابتلاء، وألم، وشيطان، وقدر، ودعاء ـ في حركة واحدة تختزل المعـنى كلـه؟ مـا الكلمـة الـتي تلخص موقـف الإنسان من هذا النظام؟

هذا ما يفتحه القسم الأخير، خاتمة الفصل.

القسم السابع: خاتمة الفصل

ها قد بلغنا نهاية هـذا الفصـل. عرفنـا في الفصـل الرابـع كيف يعمل الكون: بسننه، وعليته، وقابلياتـه، وفيضـه الواحـد على أوعية مختلفة، وأضداده، واحتكاكـه، ومـا يبـدو فيـه من وهم الشر. وعرفنا في الفصل الخامس كيف يسير الإنســان

داخـل هـذا الكـون: في كبـد مقصـود، وابتلاء كاشـف، وألم موقظ، وشيطان ممتحن، وقدر يفعله الدعاء.

وكل هذا فهم نظري عن النظام الذي وضـعت فيـه. لكن المعرفة وحدها لا تحـرك. السـؤال الـذي ينتظـرك الآن، بعـد كل هذا، هو: ماذا تفعل أنت بهـذا الفهم؟ كيـف تترجمـه إلى حركة؟

الجـواب يختزلـه القـرآن في كلمـة واحـدة تنطـوي على رحلة وجود كاملة: الكدح. وفي مشهد واحـد يكشـف لـك مـا يجري في الإنسان حين يلتقي القدر بإرادته.

الكدح ـ جواب الإنسان داخل النظام

مر بك الكدح في فصول سـابقة بوصـفه حركـة الإنسـان المجهـدة في طريقــه إلى ربــه. وهــا هــو الآن يتــنزل على موضعه من هذا الفصل: فالكـدح هـو جـواب الإنسـان داخـل أضـداد الكـون، حركتـه حين يحتـك بهـا فيختـار ويبـني. وقـد اختزل القرآن هذه الحركة كلها في آية واحدة:

﴿يا أَيُّها الإنسانُ إنَّكَ كادحٌ إلى رَبِّكَ كَدحًا فَمُلاقيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]

الإنسان كادح بطبيعته. لا ينفك عن المشقة، كما لا ينفـك عن الكبد الـذي افتتحنـا بـه هـذا الفصـل. لكن الكـدح ـ كمـا يكشف القرآن ـ ليس في الفراغ، ولا حول الذات، بل ﴿**إلى**

رَبِّـك}. هـو حركـة ذات اتجـاه. والفـرق بين إنسـان يكـدح فيتكون، وإنسان يكدح فيستنزفه كدحه، ليس مقـدار الجهـد، بل وجهة الجهد.

وهنا تلتقي خيـوط الفصـل كلهـا. الابتلاء يكشـفك، والألم يوقظك، والشيطان يمتحنك، والقدر يستجيب لـدعائك ـ كـل هذا في خدمة كدح واحد، إن أنت وجهته إلى ربك. وكل هـذا يتحول إلى عبث يستنزفك، إن أنت وجهته إلى ما سواه.

ولأن الكدح يتجه ـ بطبيعته ـ إلى لقاء، فإن ما يلاقيك في النهاية هو محصلة كدحك. لا تلقى ربك بنفس افترضتها قبـل أن تختبر. تلقاه بنفس شكلها كدحك في طريقك إليـه. وهـذا ما يكشفه التوكيد القرآني ﴿**فَمُلاقيهِ**﴾ ـ غاية محتومـة، لكن هيئة لقائك بها هي ما يتكون في الطريق.

مشهد السفينة ـ حيث يولد الصدق

ولأن المفاهيم تتجلى في المشـاهد أكـثر ممـا تتجلى في الكلمات، تأمل في مشـهد يرسـمه القـرآن في غايـة الدقـة، يجمع لك في صورة واحدة كل مـا رأينـاه في هـذا الفصـل ـ الكبد، والابتلاء، والألم، والدعاء:

﴿**هُـو الـذي يُسَـيِّركم في البَـرِّ والبَحـرِ ۖ حتَّى إذا كُنتم في الفُلكِ وجَرَينَ بهم بريحٍ طَيِّبَةٍ وفَرِحوا بها جاءَتها ريحٌ عاصِـفٌ وجـاءَهُمُ المَـوجُ من كـلِّ مَكـانٍ وظَنُّوا أَنَّهم أُحيطَ بهم دَعَوُا اللهَ مُخلِصينَ لَهُ الدِّينَ**

لَئن أَنجَيتَنا من هذِه لَنَكونَنَّ منَ الشاكرين﴾. [يـونس: ٢٢]

تأمل في حركة المشهد في أربعة أطوار:

أولا، السير الهانئ. ﴿**جَرَينَ بهم بريحٍ طَيِّبَةٍ وفَرِحـوا بها**﴾. هذه حياة الرخاء. كـل شـيء يجـري كمـا ينبغي. وفي هذه اللحظة، لا يـدعون اللـه. لمـاذا يـدعون وقـد جـرى كـل شيء حسب التوقع؟

ثانيا، الإحاطة بالموج. ﴿**جاءَتها ريحٌ عاصِفٌ وجـاءَهُمُ المَوجُ من كـلِّ مَكـان**﴾. تنقلب الحـال فجـأة. وتأمـل في ﴿**من كلّ مَكان**﴾ ـ لا مهـرب، لا اتجـاه يسـلمون منـه. كـل السند الذي كانوا يسـتندون إليـه ـ السـفينة، الـريح، الخـبرة، المهارة ـ ينهار في لحظة واحدة.

ثالثـا، الانكشـاف. ﴿**وظَنُّـوا أَنَّهم أُحيـطَ بهم**﴾. حين يستيقن الإنسان أنه لا مخـرج، ينكشـف مـا كـان يختـبئ في عمقه. ما كان يستند إليه ـ المال، القوة، العلاقات، التـدبير ـ كله يسقط دفعة واحدة. لا يبقى إلا شيء واحد.

رابعا، الدعاء بصدق كامل. ﴿**دَعَوُا اللـهَ مُخلِصـينَ لَـهُ الدِّين**﴾. وتأمـل في كلمـة ﴿**مُخلِصين**﴾. في الرخـاء، كـان كثير منهم يدعو الله ـ لكن بقلب متعلق بأسباب شتى. الآن، حين سقطت كل الأسباب، لم يبق إلا الله وحده. الدعاء صار خالصا لأنه لم يعد فيه شريك.

والمعنى الذي يكشفه هذا المشهد بكامله: أن كل ما عرفناه في هذا الفصل ـ الابتلاء، والألم، والشيطان، والدعاء ـ يخدم غاية واحدة: أن تنكشف الذات على نفسها بصدق، حين تسقط كل الأسناد التي كانت تحجبها. لا يتكون الإنسان في الرخاء الذي تخفي فيه أوهامه نفسها عنه. يتكون في لحظة تنكشف فيها هشاشة كل سند سوى الله، فتستيقظ إرادته على الحقيقة.

خاتمة الفصل

وها قد بلغنا نهاية هذا الفصل كله. عرفنا أن الكون منظومة محكمة من السنن، وأن الأضداد فيه ليست خللا بل تصميما، وأن ما يبدو شرا فيه له وظائف وجودية. وعرفنا أن ما يعيق الإنسان ـ من ابتلاء وألم وشيطان وقدر صارم ـ هو نفسه ما يكونه، إن هو فهم وتلقى.

والخلاصة التي ينبغي أن يخرج بها قارئنا، أن كل ما يجري في هذا الوجود ـ من ضيق وسعة، من فرح وحزن، من نور وظلام، من سهل وذات شوكة ـ ليس عبثا، ولا قسوة، ولا محاباة. هو تصميم متسق، غايته إخراج الإنسان من حيث هو إلى حيث ينبغي أن يكون. لا يلغي الألم لأن في الألم إيقاظا. لا يلغي الشيطان لأن في وجوده تحصينا. لا يلغي الكبد لأن في الكبد قوة. لا يلغي الموت لأن في الموت لقاء.

كـل هـذا في خدمـة غايـة واحـدة: أن يتكـون الإنسـان بإرادتـه، لا أن يجـبر على التكـون. أن يختـار طريقـه، لا أن يساق إليه. أن يبـني نفسـه باختيـاره، لا أن يفـرض عليـه مـا يكون.

وهنا يتضح سر هذا الفصل كله. فالصفات الـتي تكتسـبها في ميدان الاحتكـاك ـ صـبرك، وصـدقك، ويقينـك، وحلمـك ـ ليست زينة عابرة تتركها عنـد بـاب القـبر. هي نفسـها ذاتـك التي ستعيش بها في الآخرة، كما تعيش بهـا الآن في الـدنيا. فـأنت لا تملـك في الحقيقـة إلا مـا صـرت عليـه؛ والصـفة الراسخة التي بنيتها بإرادتك تصبح جزءا من جوهرك، تحملها معك حيث تذهب. هذه هي «الذات الخالـدة»: لا مـا جمعت، بـل مـا صـرت؛ لا مـا ملكت، بـل مـا اكتسـبت من صـفات وجودية. والابتلاء، بهذا المعنى، ليس عدوا يعطل حياتـك، بـل هو المنحت الذي فيه تنحت الذات التي تخلد.

لكن المعرفة بالنظام ـ مهمـا اتسـعت ـ لا تكفي وحـدها. السؤال الـذي يفتحـه مـا تلونـاه في هـذا الفصـل هـو: كيـف يتحرك الإنسان فعلا داخل هذا النظام؟ ما الذي يحـول الفهم إلى سلوك، والمعرفـة إلى كيـان؟ مـا الـذي يجعـل الإنسـان ينتقل من قارئ للقانون إلى ساع في طريقه إلى الله؟

الجـواب يفتحـه الفصـل القـادم: صـناعة الإرادة. هنـاك نكتشـف الإرادة بوصـفها جـوهر الإنسـانية، والصـدق الـذاتي بوصفه لحظة تتحد فيها النية بالفعل. ثم يتلـوه فصـل حركـة

الجوهر، حيث تصير المعرفة هوية يصـدر عنهـا الخـير طبعـا. وذلك هو الجسر بين ما عرفناه وما سنكونه.

)) (

وقفة تأمل

قبل أن تطوي هذا الفصل، استحضر ألما واحـدا يلازمـك هـذه الأيـام، وكنت تسـأل: لمـاذا يحـدث هـذا لي؟ ثم بـدل السؤال كما علمك هذا الفصل، واسأل: ما الذي يوقظـه في هـذا الألم؟ أي بـاب في نفسـي كـان موصـدا فطرقـه، وأي حقيقة كنت أغفل عنها فجاء يـذكرني بهـا؟ فـإن وجـدت في الجـواب صـدقا تصـنعه، لا قـدرا تشـكوه، فقـد بـدأت تقـرأ الاحتكاك بعين الكادح، لا بعين الضحية.

الفصل السادس — صناعة الإرادة

✦

القسم الأول

تمهيد ـ من المعرفة إلى الحركة

بعد أن طفنا في الفصل الثالث في أبعادك الداخلية الأربعة ـ الروح، والقلب، والعقل، والجسد ـ وعبرنا في الفصلين الرابع والخامس قوانين الكون الصارمة، من السنن، والاحتكاك، والابتلاء، والقدر، والدعاء، نصل الآن إلى السؤال الجوهري: لماذا خلق كل هذا التضاد؟ لماذا وضع إنسان متعدد الأبعاد في كون يموج بالأضداد وذي الشوكة؟

الجواب أن هذا كله مسخر لإنتاج شيء واحد ثمين ونادر، شيء لا يولد في الراحة، ولا يظهر في الفراغ. ذلك الشيء هو الذات الصديقة الموحدة.

تأمل في كل ما عرفته. كل احتكاك خبرته، وكل ابتلاء صقل معدنك، وكل ألم أيقظك، وكل دعاء رفع وجودك، لم يكن إلا مطرقة تكسر القشور الزائفة، وإزميلا تنحت به ـ بإرادتك ـ هذا الجوهر الصادق، فترتقي إلى مقام لا ينال إلا بهذا الكدح. الكدح حركة، والصدق استقامة هذه الحركة.

وحين يبلغ الإنسان هذا الصدق الـذاتي، يبلـغ معـنى الوحـدة: تتلاشى الجدلات الداخلية، وينتهي التمـزق بين مـا أنت عليـه وما تظهره للعالم.

لكن المعرفة بهذا كله ـ مهما اتسعت ـ لا تحـرك وحـدها. السؤال الذي ينتظـرك الآن، بعـد كـل مـا عرفتـه، هـو: مـاذا تفعـل أنت بهـذا الفهم؟ مـا الـذي يحـول الإنسـان من قـارئ للقانون إلى ساع في طريقه إلى الله؟

تأمل في هذا الفرق الدقيق. حين تعمل المعرفة وحـدها، تنـير الطريـق من بعيـد دون أن تحـرك القـدم. وحين يعمـل الشعور وحده، يهز القلب دون أن ينشئ قرارا. وحين يعمـل الجسد وحده، يكـرر الأفعـال دون أن يفهم معناهـا. أمـا حين تعمـل قـوة أخـرى، أعمـق من هـذا كلـه، فإنهـا تجمـع هـذه الطبقات المتفرقة في اتجاه واحد، وتحول الـوعي من حالـة مراقبة إلى حالة ولادة. تلك القوة اسمها: الإرادة.

الإرادة هي الجسر الذي يصل الداخل بالخارج. بها ترتبط الروح ـ حيث يسكن النور الأول ـ بالقلب ـ حيث تهتز النيـة ـ بالعقـل ـ حيث تتشـكل الخريطـة ـ بالجسـد ـ حيث يتحقـق الفعل. فإذا غـابت الإرادة، بقيت هـذه الطبقـات أربـع غـرف منفصلة لا يلتقي فيها الضوء. وإذا حضرت، أصـبحت كـأبواب تفتح كلها في اتجاه واحد، فيدخل النور دفعة واحدة.

ولأن الإرادة بهذه المنزلـة، ينبغي أن نبـدأ منهـا. أن نفهم لماذا خلـق الإنسـان مريـدا، وكيـف تتكـون إرادتـه، ومن أين

تستمد قوتها، وكيف تنحرف، وكيف تستقيم. ذلك ما يفتحه القسم القادم.

* * *

القسم الثاني

الإرادة، جوهر الإنسان

تأمل في الكون من حولك. كل شيء فيه يسير على سنة لا يحيد عنها. الشمس تجري لمستقر لها لا تملك أن تتأخر، والقمر يدور في فلكه لا يخرج عنه، والجماد يخضع لقوانينه التي خلق عليها. والملائكة في علو صفائها تسبح بحمد الله بلا كلل، لا تعرف معنى التردد، ولا تدخل في أفعالها رغبة تعاكسها. والحيوان يتبع غريزته كما خلق بها، لا يستطيع أن يخرج من طبيعته. كل ما في الكون ـ كما يصفه القرآن ـ خاضع بطبعه، منقاد بفطرته:

﴿أَلَم تَرَ أَنَّ اللهَ يَسجُدُ لَه مَن في السَّماواتِ ومَن في الأَرضِ والشَّمسُ والقَمَرُ والنُّجومُ والجِبالُ والشَّجَرُ والدَّوابُّ وكَثيرٌ مِنَ النّاسِ وكَثيرٌ حَقَّ علَيه العَذابُ ومَن يُهِنِ اللهُ فَما لَه مِن مُكرِمٍ إنَّ اللهَ يَفعَلُ ما يَشاءُ﴾ [الحج: ١٨]

توقف عند هذه الآية. السماوات تسجد، والأرض تسجد، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، كلها

تسـجد. كلهـا بصـيغة واحـدة: السـجود التـام غـير المـتردد، السجود الذي لا انقسام فيه. ثم يأتي ذكـر النـاس، فـإذا بهم وحـدهم في الكـون مقسـومون إلى فـريقين: ﴿**وكَثيرٌ من النّاسِ**﴾ ساجد، ﴿**وكَثيرٌ حَقَّ علَيه العَذاب**﴾ ممتنع. تأمـل في هذا الانقسام. لم لم ينقسم القمـر إلى سـاجد وممتنـع؟ لم لم تنقسـم الجبـال؟ لم وردت كـل المخلوقـات بصـيغة واحدة، ولم يرد الناس إلا بصيغتين؟

لأن الناس وحدهم ـ من بين كل المخلوقات ـ يملكون أن يختاروا. الشمس لا تملك أن لا تسجد، والجبال لا تملك أن لا تسجد. أما الإنسـان فيملـك. ولـذلك انقسـم. والانقسـام في الإنسـان دليـل على أنـه المخلـوق الوحيـد الـذي منحـه اللـه القدرة على أن يقف في وجه فطرتـه، وأن يعـاكس رغباتـه، وأن يتجاوز ضعف جسده، وأن يعيـد تشـكيل ذاتـه بقـراره لا بطبيعتـــه. ولـــذلك لم يكن الإنســـان مجـــرد مخلـــوق بين مخلوقات، بل مشروعا للكمال لا يكتمل إلا إذا امتلـك القـوة التي تجعل المعرفة حيـاة، والرغبـة اختيـارا، والابتلاء ارتقـاء. تلك القوة اسمها: الإرادة.

ولم يخلق الإنسان مريدا ليمتحن فحسب، بل ليبلغ مقاما لا يبلغه أحد غيره. تأمل في مشهد يكشفه القـرآن في غايـة الدقـة. الملائكـة ـ في صـفائها وقربهـا ـ لم يكتمـل معـنى حضـورها إلا حين سـجدت لآدم. لا لأنـه من طين ـ فـالطين أدنى من النـور ـ ولكن لأنـه يحمـل مـا لا تحملـه الملائكـة:

القـدرة على الاختيـار. ولهـذا جـاء الخطـاب الإلهي كاشـفا لحقيقة هذا المقام:

﴿فإذا سَوَّيتُهُ ونَفَختُ فيه مِن روحي فَقَعوا لَه ساجِدين﴾ [الحجر: ٢٩]

كان السجود اعترافا بأن هذا الكائن قـد أعـد لحمـل بعـد وجودي لا ينـال بالطاعـة الجبريـة، بـل بـالإرادة الواعيـة. لأن الكمال الذي لا يأتي من حرية لا يحمل قيمة. والطاعـة الـتي لا تعبر نار التضاد ليست إلا صفة ثابتة بلا حركة. أما الإنسـان فقـد وضـع في عـالم من نـور وظلال، ومن لـذة وألم، ومن شهوة وهداية، ليصنع كماله بيده. ولذلك قال تعالى:

﴿إنّـا عَرَضـنا الأَمانَـةَ على السَّـماواتِ والأَرضِ والجِبالِ فَأَبَينَ أن يَحمِلنَها وأَشفَقنَ منهـا وحَمَلَهـا الإنسانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]

تأمل في هذه الأمانـة. لم تكن عقلا فحسـب، فالعقـل لا يستدعي إشفاق السماوات. ولم تكن روحا فحسب، فـالروح فيض إلهي. الأمانة هي الاسـتعداد لحمـل الإرادة ومسـؤولية الاختيار. القدرة على أن تختار، وأن تتحمل تبعـات اختيـارك. ولأن هذا الحمل ثقيل ثقيل، أشفقت منه أعظم المخلوقـات. لكن الإنسان حملها.

فالإنسان لا يشبه الله في صورة ـ تعالى اللـه عن ذلـك ـ بل يشبهه في الاختيار. الكـون كلـه مسـير، إلا الإنسـان فهـو

مكلف. والتكليف لا معنى لـه بلا إرادة، والإرادة لا معـنى لهـا بلا قابلية للانحراف أو الاستقامة. لو كان الإنسـان بلا شـهوة لعـاد إلى رتبـة الملـك، ولـو كـان بلا عقـل لعـاد إلى رتبـة الحيـوان. لكنـه جمـع بين الشـهوة والعقـل، وبين الظلمـة والنـور، وبين الضـعف والـوعي، ليحمـل إرادة تسـتطيع أن ترفعه فوق الملائكة، أو تهبط به دون الحيـوان. هـذه الثنائيـة ليسـت نقصـا في خلقـه، بـل هندسـة دقيقـة تمنحـه إمكـان الكمال الذي خلق لأجله.

ولأن الله أراد للإنسان كمالا يسـتحقه، لم يعطـه الكمـال جاهزا. لو خلق كاملا، لأصـبح جـزءا من جملـة الأكـوان الـتي تملك صفاتها كما تمنح لها، لا كما تصنعها هي. لكن اللـه أراد للإنسان أن يصنع نفسه: أن يصـعد درجـة درجـة، وأن يختـبر نواياه في كل خطوة، وأن يصوغ روحه بتجربته هو، لا بصـفة مفروضة عليه منذ البداية.

ولأجل ذلك سخر الكون من حوله:

﴿وسَخَّرَ لَكُم ما في السَّماواتِ وما في الأَرضِ جَميعًا منهُ﴾ [الجاثية: ١٣]

تأمل في هذا التسخير. ليس امتيازا مجانيا، بل مسؤولية وجودية. لأن كل ما سخر لك إنما سخر لتختبر بـه إرادتـك، لا لتعفى من صناعة ذاتك. الكون كله ـ بليله ونهـاره، وشمسـه وقمـره، وسـننه وفرصـه ومحنـه ـ صـار في خدمـة مشـروع

واحد: أن يصبح الإنسان خليفة، الكائن الوحيد الذي يمكن أن يقترب إلى الله بإرادته، لا بطبيعته.

ومن هنا تفهم لماذا جاء الإنسان إلى الأرض لا إلى الجنة. الجنة مقام استحقاق، أما الأرض فهي مقام صناعة. الجنة نتيجة، والأرض مقدمة. الجنة حصاد، والأرض زرع. الجنة سكينة، والأرض احتكاك. كان لا بد للإنسان أن ينزل إلى عالم مادي متضاد، عالم تتجاذبه الأصوات، وتناديه الشهوات، وتختبره الاختيارات، ليظهر ما يمكن أن يكون، لا ما فطر عليه فقط. فالإرادة لا تتشكل في نور صاف، بل تنضج حين يكون في الطريق ما يعارضها، وفي القلب ما يضعفها، وفي العقل ما يبرر لها، فتظل تبحث عن نقطة صدق تستقر عندها.

ولهذا كان الإنسان ـ لا الملك ـ هو المخلوق الأقرب إلى الله من جهة الشبه الوجودي. لا لأن رتبته أعلى طبيعيا، بل لأن كماله يأتي بالاختيار الحر. فالله لا يطلب من الإنسان كمالا جبريا، بل كمالا يختاره هو لله. وهذا هو جوهر العبودية التي ترفع صاحبها. الملك عابد بطبعه، أما الإنسان فعابد بإرادته. ولذلك كانت عبادة الإنسان ـ حين تصدق ـ أثقل وزنا، لأنها تأتي من ذات تستطيع أن ترفض، ثم تختار.

ومن هنا ـ من هذه الإرادة بالذات ـ ينبع ميزان الله. ولعلك تذكر ما رأيناه في خاتمة الفصل الثالث: أن الناس لا يبدؤون الرحلة من نقطة واحدة. هذا يختلف عن ذاك في

القابلية، وفي البيئة، وفي الظروف، وفي السعة الوجدانية. ولأن هذا الاختلاف حقيقة لا يمكن تجاوزها، لم يجعل الله الميزان فيما يملك الإنسان من قدرة، ولا فيما يحققه من نتيجة. جعله في شيء آخر، يملكه كل إنسان مهما كانت قابليته، ويفعله كل إنسان مهما كانت ظروفه: السعي. قال تعالى:

﴿وأن لَيس للإنسان إلا ما سَعى ۝ وأن سَعيَه سَوف يُرى﴾ [النجم: ٣٩-٤٠]

توقف عند هذا الحصر العجيب: ﴿**لَيسَ للإنسانِ إلا ما سَعى**﴾. لا ما ورث، ولا ما وهب، ولا ما حقق، ولا ما بلغ. فقط ما سعى. لأن كل ما عدا السعي قد يكون من الله إليك ابتداء، أما السعي فهو منك أنت. وقوله ﴿**وأن سَعيَه سَوف يُرى**﴾ يكشف أن هذا السعي ـ مهما خفي عن عيون الناس ـ سيبرز يوم القيامة كاملا، لا يضيع منه شيء. ويؤكد هذا الميزان نفسه في مشهد الحساب:

﴿إنَّ السَّاعَةَ آتيَةٌ أَكادُ أُخفيها لنُجزى كلُّ نَفسٍ بما تَسعى﴾ [طه: ١٥]

الجزاء ﴿**بما تَسعى**﴾، لا بما تحقق. والفرق بين السعي والتحقق هو الفرق بين ما تملكه أنت وما يخرج عن يدك. السعي بإرادتك، والتحقق بإرادة الله. ولذلك جعل الجزاء على ما تملك، رحمة منه أن يحاسبك على ما لا تملك. وهذه

نكتة تكشف لك مكانة الإرادة في ميزان الله: ليست شـرطا في النجاح، بـل هي النجـاح نفسـه. ومن سـعى صـادقا فقـد أدرك ما يطلبه الله منه، وإن لم يدركه ما يطلبه الناس.

ولأن الإنسان مختار، لم يتركـه اللـه بلا بوصـلة. أودع في روحـه فطـرة تهديـه إلى مـا ينفعـه ـ كمـا رأيت في الفصـل الثالث ـ وكشف له جهتي الطريق إلهاما في نفسه:

﴿ونَفسٍ وما سَوّاها ۝ فَأَلهَمَها فُجورَها وتَقواها ۝ قَـد أَفلَح مَن زَكّاهـا ۝ وقَـد خـاب مَن دَسّـاها﴾ [الشمس: ٧-١٠]

توقف عند كلمة ﴿**أَلهَمَها**﴾. الإلهام كشف لا فرض. الله أرى النفس جهـتي الطريـق ـ الفجـور والتقـوى ـ لكنـه لم يحركهـا في إحـداهما. ولـذلك جـاء الجـزاء بصـيغة الفعـل لا الإلهام: ﴿**قَد أَفلَح مَن زَكّاها ۝ وقَد خاب مَن دَسّاها**﴾. الفلاح لمن زكى، لا لمن ألهم. والخيبة لمن دس، لا لمن أري الطريـق. الفطـرة تكشـف الاتجـاه، لكن الإرادة هي الـتي تختار.

ومن هنا ينبع التكليف. ومن هنا ينبع الأجر. ومن هنـا تنبـع المسؤولية. لأن الإنسان لم يترك وحده في طريقـه: فطرتـه تهديه من الداخل، وإلهام الله يكشف له جهتي الطريق، لكن الحركة في نهاية الأمر فعل من إرادته.

غـير أن الإرادة وحـدها ـ مهمـا عظمت ـ لا تسـتطيع أن تحمـل مـا ينتظرهـا. النفس ملحـة بالسـوء، والبيئـة تتجـاذب الإنسـان من كـل جهـة، والشـهوات تـدفع، والمخـاوف تكبح. فمن أين تستمد الإرادة قوة تصمد بها في وجه كل هذا؟ هل تكفيها قوة الإنسان وحده؟

تأمل في آية تكررها في كل صلاة، ولعلك لم تتوقف عند سرها:

﴿إيّاكَ نَعبُد وإيّاكَ نَستَعين﴾ [الفاتحة: ٥]

لو كانت العبادة فعلا ينبع من قدرة الإنسان وحده، لكفى أن نقول ﴿**إيّاكَ نَعبُد**﴾، ولانتهت الآية. لكن الله جعـل بعـدها ﴿**وإيّاكَ نَسـتَعين**﴾، وكأنـه يكشـف لـك أن العبـادة فعـل، والاستعانة طاقة الفعل. أن تعبد، يعني أن تحرك إرادتـك في طاعته. وأن تستعين، يعني أن تطلب منه القوة الـتي تحـرك بها إرادتك. الإنسان لا ينجز ما خلق لأجله اعتمادا على وعيـه وإرادته الذاتية وحدها، بل على المدد الذي يفيضه اللـه عليـه كلما اتجه إليه. ولذلك تقدمت ﴿**إيّاكَ**﴾ مرتين: حصر للعبادة، وحصر للاستعانة. كـأن الآيـة تقـول لـك: لا تعبـد إلا اللـه، ولا تطلب القوة على عبادته إلا منه.

بل تأمل في طبقة أعمـق من هـذا. الإرادة نفسـها الـتي تتجه بها إلى الله، من أين أتتك؟ تكشف عنها كلمـات الإمـام

السجاد عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي بصياغة تهز القلب:

«بِـكَ عَرَفتُـكَ، وأَنتَ دَلَلتَـني علَيـك، ودَعَوتَـني إلَيك، ولولا أَنتَ لم أَدرِ ما أَنت»[13]

تأمـل في هـذا التسلسـل العجيب. «بـك عرفتـك»: لم أعرفك بقدرتي، بل بك أنت. «وأنت دللتني عليك»: لم أهتـد إليك بحولي، بل أنت دللتـني. «ودعوتـني إليـك»: لم أطلبـك ابتداء، بل دعوتني فاسـتجبت. «ولـولا أنت لم أدر مـا أنت»: لولاك ما عرفتك أصلا. حتى الإرادة الـتي بهـا يتجـه الإنسـان إلى الله، هي عطاء من الله. الإرادة منك، لكن القـدرة على هذه الإرادة هدية منه. ولذلك كان أهل القرب ـ كلما اقـتربوا ـ أشد شعورا بفضل الله، لا بفضل أنفسهم. لأنهم أدركـوا أن كل خطوة نحوه إنما كانت بعونه.

ومن هذا المنظور تفهم الفرق العميق بين إرادتين: إرادة تعتمد على قوة الإنسان وحـدها، وإرادة تتصـل باللـه. الإرادة البشـرية المحـدودة تنهـار عنـد حـدود الألم، أو الخـوف، أو الفقد. هي مهما عظمت، تبقى تابعـة لحـال صـاحبها: تنشـط حين ينشط، وتخمل حين يخمل، وتكسرها أول صدمة تفـوق طاقتها. بينما الإرادة المتصلة بالله تشتد كلما اعتصـمت بـه، لأن مصدرها ليس نفسا تتقلب، بل ربـا لا يتقلب. ولـذلك قـد

[13] من دعاء أبي حمزة الثمالي، المروي عن الإمام علي بن الحسـين زين العابدين (عليه السلام)، أورده الشيخ الطوسي في مصباح المتهجد. يضبط لفظه من طبعة معتمدة عند الإخراج النهائي.

ترى أهل القرب يـزدادون ثباتـا كلمـا واجهـوا صـعوبة، لا لأن الصعوبة مرغوبة في ذاتها، بل لأنها تظهر لهم حـدود إرادتهم البشرية، وتفتح لهم باب الاعتماد على قوة أعلى.

وقد تسأل: ألا يملك الفاسدون أيضا إرادات جبـارة؟ بلى يملكون. فرعون كان صـاحب إرادة صـلبة، وكثـير من طغـاة التاريخ أصـحاب عـزائم لا تلين. لكن إرادتهم تتصـل بمصـادر محـددة ـ شـهوة، أو سـلطة، أو طمـوح دنيـوي ـ وتنهـار حين تنهار مصادرها. تأمل في فرعون لحظـة الغـرق: ﴿**حتّى إذا أَدرَكَه الغَرَق قال آمَنتُ**﴾. لم تكن الإرادة قد فقدت، بـل الأساس الذي قامت عليه تهاوى. أما الإرادة المتصـلة باللـه، فمصدرها لا ينفد، لأنها تستمد من حي قيوم.

وهكذا فإن الإرادة ليست صـفة تضـاف إلى الإنسـان من خارجه، بل هي الصفة التي بهـا يصـير إنسـانا. ومن لم يفهم لماذا خلق مريـدا، ولمـاذا يحتـاج إلى أن يسـتعين باللـه على إرادته، لن يفهم لماذا لا يبلغ كماله إلا إذا أراد بإرادة متصلة.

ومن هنـا ينفتح أمامـك سـؤال آخـر، أدق من سـابقه. إذا كانت الإرادة بهذه المنزلة، وإذا كان الإنسـان موصـولا باللـه في حركته، فلماذا يظل كثير منا يسير في طريق يعرف في أعماقه أنه لا يريده؟ لماذا نرتـدي الأقنعـة على أنفسـنا قبـل أن نرتديها للناس؟ ما الذي يمنع الإنسان من أن يـرى نفسـه كما هي؟ ذلك ما يفتحه القسم القادم.

* * *

القسم الثالث

الصدق الذاتي ـ حين تتلاشى الفجوات

لعلك شعرت يوما بضيق لا تعرف سببه. أو بألم لا يعود إلى حدث محدد. أو بعدم استقرار يسكنك حتى في أيام الراحة. تملك ما يكفي من المال، وتنعم بصحة مقبولة، وتجلس بين أهلك، ومع ذلك ينقصك شيء. مشاعر تتحرك في داخلك، فلا تجد لها مسوغا. تحاول أن تفسر هذا الضيق بشيء في الخارج ـ عمل متعب، أو خلاف عابر، أو ظرف صعب ـ ثم يزول الظرف ويبقى الضيق. كأن الألم لا يأتي من خارجك، بل من داخلك. لكنك لا تعرف من أين بالتحديد.

هذا الضيق ليس عشوائيا، ولا هو نتيجة ظروف مادية فحسب. مصدره أعمق من كل هذا. مصدره فجوات في داخلك بين أبعادك الأربعة. الروح تدعو إلى شيء، والجسد يذهب إلى آخر. القلب يشعر بكذا، والعقل يقتنع بنقيضه. ما تهدي إليه فطرتك يختلف عما تتعلق به مشاعرك. ما يعرفه عقلك يختلف عما تفعله جوارحك. هذه الفجوات لا ترى بالعين، لكنها تستهلكك في الداخل بلا رحمة. تبدد طاقتك، وتثقل حركتك، وتجعلك تمشي كثيرا دون أن تتقدم حقا.[14]

[14] يسمي علماء النفس هذا الضيق الناشئ عن تعارض ما يعتقده الإنسان مع ما يفعله «التنافُر المعرفيّ» (cognitive dissonance)، وهو مفهوم طرحه ليون فستنجر سنة ١٩٥٧: حالة توتر نفسي تنشأ من

وقد كشف القرآن هذه الحقيقة بدقة في غايـة الإحكـام. تأمل في قوله تعالى:

﴿ومَن أَعرَضَ عَن ذِكري فإنَّ له مَعيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]

توقـف عنـد كلمـة ﴿**ضَـنكًا**﴾. هي من «الضـنك»، وهـو الضيق الشديد الذي لا تتسـع لـه النفس. والمعيشـة الضـنك ليسـت المعيشـة قليلـة المـال ـ فكم من فقـير يعيش حيـاة واسـعة القلب ـ بـل المعيشـة المنقبضـة، مضـطربة القلب، مشتتة الذهن، مهما كثر مـا حولهـا من نعم. ولاحـظ السـبب الذي ذكره الله: ﴿**ومَن أَعرَضَ عَن ذِكري**﴾. الإعراض عن ذكر اللـه ليس مجـرد نسـيان لاسـمه، بـل قطـع للصـلة بين الروح ـ التي تحن إلى الله ـ وبقية الأبعاد. وحين تنقطع هـذه الصلة، تفتح الروح فجوة مع الجسد والقلب والعقـل، فينشـأ الضنك. هو ليس عقوبة ينزلها الله، بل أثـر طـبيعي لانقسـام الإنسان على نفسه.

وفي آية أخرى يضرب القرآن مثلا أدق:

﴿فمَن يُرد اللهُ أن يَهديَه يَشـرَح صَـدرَه للإسـلام ومَن يُرد أن يُضلَّه يَجعَل صَـدرَه ضَـيِّقًا حَرَجًـا كأنَّمـا يَصَّعَّد في السَّماء﴾ [الأنعام: ١٢٥]

عدم الاتساق بين القناعات والسلوك، تدفع المرء إما إلى تغيـير فعلـه أو إلى تـبرير الفجـوة. تـذكر هنـا للتشـخيص لا للاسـتدلال. انظـر: L. Festinger, “A Theory of Cognitive Dissonance” (1957).

تأمل في هذا المجاز العجيب: ﴿**كأنَّما يَصَّعَّد في السَّماء**﴾. الصعود في السماء ـ في فهم القدماء ـ كان مستحيلا، يستنزف صاحبه بلا غاية. وحتى اليوم، بعدما اكتشف الإنسان طبقات الجو، نعلم أنك كلما صعدت ارتفعت، نقص الأكسجين، وضاق الصدر، وثقل التنفس، وصار كل نفس معركة. الإنسان المنقسم في داخله كالصاعد في السماء: يبذل جهدا عظيما في كل خطوة، يختنق وهو يتنفس، يعمل كثيرا ولا يصل. ليس لأن الحياة قاسية عليه، بل لأن شيئا فيه يمنعه من أن يتنفس بحرية. ذلك الشيء هو الفجوات التي امتدت بين أبعاده الأربعة.

ومن هنا فإن الألم الذي تشعر به ـ في كثير من الأحيان ـ ليس عدوا، بل رسولا. يأتيك ليخبرك بأن في داخلك فجوة تحتاج إلى أن تغلق. الضيق إنذار، والضنك دعوة، والاختناق نداء. كلما اتسعت الفجوات اشتد الضنك. وكلما تلاشت انشرح الصدر. وهذا ما يتناوله هذا الفصل: عملية تلاشي الفجوات. وهذه العملية لها اسم نسميها به في هذا الكتاب: الصدق الذاتي.

الصدق الذاتي ـ في هذا المعنى ـ ليس قول الحقيقة للناس. لا علاقة له بأن تقول لجارك ما يكره، أو أن تصرح بما تخفي. هو شيء أعمق من ذلك بكثير. هو حال ينسجم فيه ما تعرفه بروحك، مع ما يشعر به قلبك، مع ما يقتنع به عقلك، مع ما تفعله جوارحك. حال تتلاشى فيه الفجوات بين

أبعادك. وكلما اشتد هـذا الانسـجام، اقـتربت من مـا يسـميه القـرآن «مقـام الصـديقين» ـ وهـو مـا سـنفتحه في القسـم القادم.

لكن قبل أن نصل إلى تلك المرتبة، ينبغي أن نفهم كيـف تنشأ هذه الفجـوات أصـلا، ولمـاذا يجـد الإنسـان صـعوبة في إغلاقها.

الإنسان لا يولد بفجوات. يولد بفطرة صافية، حكي عنهـا في الفصـل الثـالث، تهـدي روحـه إلى مـا ينفعهـا. ثم تـدخل الحيـاة. يتعلم، ويحب، ويخـاف، ويطمح، ويفشـل. وفي كـل تجربة تخرج بقناعة، أو تكتسب عادة، أو تتخذ موقفا. وأحيانا تكون هذه القناعات والعادات والمواقف متسقة مع فطرتـك الأصلية. وأحيانا أخرى تكون مخالفة لها. فينشـأ أول انقسـام صغير: فجوة بين ما تهدي إليه روحك وما تفعله جوارحك. ثم تتراكم الفجوات. الجسد يلهث وراء شهوة يستنكرها العقـل. العقـل يقتنـع بفكـرة لا يحبهـا القلب. القلب يتعلـق بإنسـان تعرف الروح أنه لا يناسبها. وتكبر الفجوات.

وكلما كبرت الفجـوات، احتـاج الإنسـان إلى مـا يغطيهـا. فاخترع الإنسان حلا قديما قدم الإنسـان: الأقنعـة. تأمـل في الأقنعة التي يلبسها الناس من حولك، وفي تلك التي تلبسـها أنت. قوة ظاهرة تخفي هشاشة داخليـة. لطـف يخفي خوفـا من الرفض. ثقة مفرطة تخفي قلقا دفينا. زهــد معلن يخفي طمعا مكتومـا. تـدين ظـاهري يخفي شـكا. الأقنعـة لا تخفي

الفجوة، بل توسعها. لأنها تجعل ما تظهره أبعد من ما تبطنه. وكلما طال لبسك للقناع، نسيت ملامحك الأصلية تحته، حتى تظن أن القناع وجهك الحقيقي.

وهنا تكشف لنا آية قرآنية حقيقة مذهلة عن البصيرة الكامنة في كل إنسان. قال تعالى:

﴿بَل الإنسانُ على نَفسه بَصيرَة ۝ ولو أَلقى مَعاذيرَه﴾ [القيامة: ١٤-١٥]

تأمل في هذا الإعلان العجيب. الإنسان ـ كل إنسان ـ **﴿على نَفسه بَصيرَة﴾**. والبصيرة هنا ليست مجرد رؤية، بل رؤية نافذة ثاقبة. أنت ترى فجواتك. تعرفها بصورة لا يعرفها بها أحد من الناس. تعرف متى يكذب قلبك على عقلك، ومتى يخدع عقلك روحك، ومتى يعصي جسدك ما تهدي إليه فطرتك. وتعرف الأقنعة التي تلبسها واحدا واحدا. القلب لا يجامل صاحبه. يعرف أين ينكسر الإنسان حتى وهو يتحدث عن القوة. ويعرف أين تتلوث النية حتى وهو يزخرف دوافعه.

لكن الآية تكمل: **﴿ولَو أَلقى مَعاذيرَه﴾**. أي مهما اخترع من أعذار، ومهما زين من تبريرات، ومهما حاول أن يقنع نفسه بأن ما يفعله صحيح، تبقى بصيرته شاهدة عليه. المعاذير لا تخفي الحقيقة عن صاحبها، بل تخفي الحقيقة عن وعيه الظاهر فقط. أما أعماقه فتعرف. ولهذا فإن

الإنسان الذي يستكثر من المعاذير، ظاهره مطمئن، وباطنه قلق. لأن البصيرة الداخلية تعرف أن المعاذير لم تغلق الفجوة، بل وسعتها.

وهنا يتضح أن تلاشي الفجوات لا يبدأ بالمعرفة، لأن الإنسان يعرف فجواته. ولا يبدأ بالاقتناع، لأنه مقتنع بأنها موجودة. يبدأ بشيء آخر: الجرأة على رؤية ما يعرفه. الإرادة على أن ينظر إلى ما يغطيه. الاستعداد على أن يخلع القناع، لا أمام الناس، بل أمام نفسه. هذه الجرأة ليست هينة. لأن الإنسان قد ألف القناع. وخلعه يكشف وجها قد لا يحبه. لكن هذا الوجه ـ مهما بدا قبيحا ـ هو نقطة البداية الوحيدة الصادقة. ولا يوجد طريق آخر.

ولهذا قال تعالى:

﴿فلَو صَدَقوا اللهَ لكانَ خَيرًا لَهُم﴾ [محمد: ٢١]

لاحظ صياغة الآية. لم تقل «فلو عرفوا الحق». ولا «فلو فهموا الدين». الذين ذكروا في الآية كانوا يعرفون. كانوا يفهمون. ولكن ﴿**لَو صَدَقوا اللهَ**﴾. الصدق هنا ليس معلومة جديدة، بل تنازل عن قناع يعرفون أنه قناع. لو فعلوا ذلك، ﴿**لكانَ خَيرًا لَهُم**﴾. الخير لا يصاحب الأقنعة، بل يصاحب النية حين تتطهر، ولو كانت في بدايتها متواضعة تتسم بشيء من الضعف.

وعمليـة تلاشـي الفجـوات ليسـت لحظـة واحـدة يعبرهـا الإنسـان مـرة ثم ينتهي. هي سـيرورة. كلمـا خلعت قناعـا، اكتشفت قناعا أعمق تحتـه. وكلمـا أغلقت فجـوة، انكشـفت لـك فجـوة أخـرى لم تكن تراهـا. وكلمـا ابتلاك اللـه بشـيء، فضح فيك انقساما لم تكن تعرفـه. ولـذلك فالصـدق الـذاتي مسار يمتد مع الحياة كلها، لا مرحلة تغلق.

وهكـذا تفهم الحـديث النبـوي الـذي رأينـاه في الفصـل الخامس: «إنّ المُؤمنَ مُفتَتَنٌ تَوّاب». المـؤمن ليس من بلـغ الكمال دفعـة واحـدة، بـل من يفتتنـه الـزمن باسـتمرار ـ أي يكشف له عن فجوات جديـدة لم يكن يراهـا ـ ثم يتـوب، أي يرجع إلى الصدق، ويخلـع قناعـا آخـر، ويغلـق فجـوة أخـرى. والتوبة هنا ليست فعل كفارة عن خطيئة، بل فعل صدق بعد انكشاف. ولهـذا قـال تعـالى ﴿**إنَّ اللهَ يُحبّ التَّـوّابين**﴾ ـ ليس لأنهم ســـقطوا، بـــل لأنهم لم يتوقفـــوا عن إغلاق الفجوات.

وكلما أغلقت فجوة، شعرت بشيء غريب. ضـيق يـنزاح، وسكينة تحل، ومعيشة تنشرح. ليس لأن ظروفـك الخارجيـة تغيرت، بل لأن الفجوات الداخليـة تنغلـق. كأنـك كنت تصـعد في السماء، ثم بدأت تنزل إلى أرض تسـتطيع التنفس فيهـا. لأن من صدق مع نفسه، صدق مع الله. ومن صدق مع اللـه، انفتحت أمامـه معيشـة أخـرى ـ لا يعرفهـا الـذين يلبسـون أقنعتهم على أنفسهم.

وكلما تلاشت الفجوات أكثر، اقتربت من حال تنعدم فيها الفجوة كليا. حال يصير فيها الإنسان واحدا في كيانه، صادقا في كل بعد من أبعاده، موسوما بسمة خاصة سماها القرآن: الصديقية. ذلك ما يفتحه القسم القادم.

* * *

القسم الرابع

مقام الصديقين ـ حين تنعدم الفجوة

تأمل في ما رأيناه في القسم السابق. الإنسان حين يخلع أقنعته، ويعترف بفجواته، ويتوب من انقساماته، تبدأ الفجوات بين أبعاده الأربعة بالتضيق. الروح والقلب والعقل والجسد تقترب بعضها من بعض. ما كان متنافرا يأخذ في التجاوب. لكن السؤال الذي يفتحه هذا القسم هو: ماذا يحدث حين تنعدم الفجوة كليا؟ ماذا يكون الإنسان حين تصير أبعاده الأربعة حاكية عن بعضها البعض، بلا تنازع ولا تردد؟

هذه المرتبة ليست تخيلا، بل مقام سماه القرآن باسم خاص. تأمل في وصف إبراهيم عليه السلام:

﴿واذكُر في الكتابِ إبراهيمَ إنَّه كانَ صِدِّيقًا نَبيًّا﴾ [مريم: ٤١]

توقف عند كلمة ﴿**صِدِّيقًا**﴾. هي صيغة مبالغة من «الصدق»، تفيد بلوغ الإنسان درجة من الصدق لا يكون فيها كاذبا في شيء من شؤونه. لا في قوله، ولا في فعله، ولا في نيته، ولا في باطنه. كأن صدقه يجري في كيانه كما يجري الدم في عروقه. لكن الملاحظة الأدق أن القرآن قدم ﴿**صِدِّيقًا**﴾ على ﴿**نَبِيًّا**﴾. النبوة جاءت بعد الصديقية. لأن النبوة وحي من الله، أما الصديقية فهي حال يبلغها العبد بكدحه. والله لا يختار للنبوة إلا من بلغ في صدقه درجة يستحق بها حمل الوحي.

ما الذي يجعل الإنسان صديقا؟ هو حال ينعدم فيه التفاوت بين أبعاده الأربعة. حال تتطابق فيه نيته مع فعله، وقوله مع باطنه، وظاهره مع سريرته، واختياره مع فطرته. لا فجوة ولا ثنية. ما تهديه إليه روحه يستجيب له قلبه. ما يحبه قلبه يصدقه عقله. ما يقتنع به عقله يترجمه جسده. ما يفعله جسده يعود فيغذي روحه. دائرة متكاملة، لا فجوة فيها، لا تناقض. تأمل في هذه الصورة. الإنسان الذي يعمل صالحا فيزداد قلبه نورا، فيرى الحق أوضح، فيهتدي عقله لقناعة أنقى، فيأمر جسده بعمل أصلح. حركة دائرية تغذي ذاتها. هذا هو الصديق.

والصديقية ليست مقاما ذهنيا ينال بالفهم، ولا مقاما تعبديا ينال بالطقوس وحدها، بل هي مقام انسجام وجودي تصنعه الإرادة الواعية وتحفظه. وهي ـ في حقيقتها ـ امتداد

طبيعي للصـدق الـذاتي. الصـدق الـذاتي عمليـة، والصـديقية حال. الصدق الذاتي مسار، والصديقية مقام. والإنسان يسير في الصدق الذاتي طويلا حتى يبلغ شيئا من الصديقية. وكلما تلاشت فجوة، اقترب من المقام، حتى ينعدم في داخله كـل انقسام.

وهنا تأتي آية تكشف هذا الحال في صياغة بالغـة الدقـة. قال تعالى عن الحشر:

﴿يَومَ لا يَنفَع مالٌ ولا بَنون ۝ إلا مَن أَتى اللهَ بقَلبٍ سَليم﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]

تأمل في وصف القلب: ﴿**سَليم**﴾. السـلامة هنـا ليسـت مجرد خلو القلب من الـذنب. خلـو القلب من الـذنب مرتبـة يبلغهـا المتقي بمجاهدتـه، حين يجتهـد في تجنب مـا حرمـه اللـه، ويتـوب كلمـا زل. وهـذه مرتبـة عزيـزة، لكنهـا ليسـت أقصى ما يطلبه اللـه. السـلامة المقصـودة هنـا أعمـق منهـا بكثير. هي سلامة القلب من الانقسام. هي حال تنعـدم فيهـا الفجوة بين أبعاد الإنسان كلها، حتى يصير الذنب نفسه بعيدا عن طبيعته، لا يتسرب إليه أصلا.

تأمل في الفـرق. المتقي العـادي يعـرف الحـق، فيجاهـد نفسه على اتباعه، ويخاف من الـذنب فيجتنبـه، ويـزل أحيانـا فيتـوب. هـو في جهـد دائم. أمـا الصـديق فقـد تجـاوز هـذه المرحلة. صار الحق فيه طبيعة، والصـدق فيـه فطـرة، حـتى

أن مجرد التفكير في الـذنب يصـير قبيحـا عنـده، كمـا تصـير فكرة أكل ما يقزز قبيحة عند الإنسان الصحيح. لم يعـد بينـه وبين الذنب مسافة جهد ومجاهدة، بل صار بينه وبينه مسافة طبيعة ووجود. القلب السليم ـ في هـذا المعـنى ـ هـو القلب الـذي لا ينقسـم بين الـروح والجسـد، ولا يخـدع نفسـه، ولا يلبس قناعـا على باطنـه. هـو القلب الـذي تلاشـت فيـه الفجوات حتى صار واحدا مع نفسه، فصار واحدا مـع الحـق. وعندما يسلم القلب بهذا المعنى، تسلم الجـوارح، ويسـتقيم السلوك، ويتحول الإنسان من مجموعة رغبات متصارعة إلى كائن واحد يعرف من هو ويعرف ما يريد.

ومن بلغ هذه السلامة، صـار بسـيطا. ولا تفهم البسـاطة هنا على أنها ضحالة أو سطحية. البسـاطة في لغـة الحكمـاء ضد التركب. الإنسان المنقسم مركب من ذوات كثـيرة، كـل ذات تدعي أنها هو. ذات تتدين وذات تلهو، ذات تحب النـاس وذات تحسـدهم، ذات تطلب الحـق وذات تهـرب منـه. هـذا التركب يتعب الإنسان لأنه يحوله إلى ميدان مواجهـة داخليـة لا تنتهي. أمـا الإنسـان الصـديق فبسـيط: ذات واحـدة، نيـة واحدة، اتجاه واحد. ولهذا تجد في صـفائه طمأنينـة لا تجـدها في غيره. لأنه قريب من الله. والله بسـيط الحقيقـة. وكلمـا اقـترب الإنسـان من اللـه، صـار أبسـط. وكلمـا اقـترب من الانقسام، صار أكثر تركبا، وأثقل تعبا.

ومن هنا تفهم سر السكينة التي يحملها أهل الله. ليست سكينتهم نتيجة غياب التحديات، فالحياة لا تخلو من تحد. وليست نتيجة مال يملكونه، أو سلطة يتكئون عليها. هي نتيجة ما هو أعمق من كل ذلك: انعدام الفجوة الداخلية. حين لا يكون فيك جدل بين بعد وآخر، ينعدم في داخلك التعب الذي يستهلكك. تأمل في حقيقة كشفناها في القسم السابق: الإرهاق الحقيقي لا يأتي من كثرة الجهد، بل من الذات التي فقدت وحدتها. وها هو وجهها الآخر: الطمأنينة الحقيقية لا تأتي من غياب الجهد، بل من الذات التي اتحدت. ولذلك قال تعالى:

﴿ألا بذِكر الله تَطمَئنّ القُلوب﴾ [الرعد: ٢٨]

لاحظ هذا الحصر: **﴿ألا بذِكر الله تَطمَئنّ القُلوب﴾**. لا بالمال، ولا بالأهل، ولا بالنجاح، ولا بالنفوذ، ولا حتى بزوال المصائب. بذكر الله. لأن ذكر الله هو الذي يسد أوسع فجوة في الإنسان ـ الفجوة بين روحه وسائر أبعاده. حين يذكر الإنسان ربه، تعود روحه إلى مركزها، فتلتحم بها بقية الأبعاد. وعندها تطمئن.

ولأن هذا المقام عزيز، لم ينله إلا قلة من الناس. وأعلى نموذج يمكن أن يتأمله المؤمن في هذا الباب ـ بعد إبراهيم الخليل عليه السلام ـ هو السيدة فاطمة الزهراء عليها

السلام، الصديقة الكبرى. ولقبت بهذا اللقب لا تعظيما إنشائيا، بل لأنها بلغت من انعدام الفجوة في كيانها مبلغا فريدا. ورد في كتب الفريقين ـ من السنة والشيعة ـ قول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«إنَّ الله يَغضَب لغَضَبها، ويَرضى لرضاها»[15]

تأمل في هذا الحديث. الله ـ بكمال غناه ـ يجعل رضاه تابعا لرضاها، وغضبه تابعا لغضبها. كيف يكون ذلك؟ ولماذا يسوغ مع فاطمة عليها السلام ما لا يسوغ مع غيرها؟ السر أنها بلغت من تطابق أبعادها مع الحق مبلغا انعدمت فيه الفجوة بين رضاها ورضا الله، وبين غضبها وغضب الله. لو لم تكن قد بلغت هذه المرتبة، لكان من المحتمل أن تغضب لما لا يستحق غضب الله، أو ترضى بما لا يرضى به. ولو كان كذلك، لما جاز أن يجعل الله رضاه تابعا لرضاها. لكنها عليها السلام بلغت من صدق فطرتها مع أفعالها، ومن صدق قلبها مع لسانها، ومن صدق اختيارها مع ما هدتها إليه روحها، مبلغا صار فيه ميزانها الداخلي حاكيا عن ميزان الحق بلا تخلف. هي لم تتحد بالله ـ تعالى الله عن ذلك ـ بل صارت مرآة صافية تنعكس فيها أحكام الحق كما هي. وهذا

---

[15] رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين والطبراني في المعجم الكبير، بإسناد عن أهل البيت (عليهم السلام)؛ وأصله «فاطمةُ بَضعةٌ مِنّي فمَن أغضبها أغضبني» متفق عليه عند البخاري ومسلم. يضبط لفظه وتخريجه من طبعة معتمدة عند الإخراج النهائي.

هو مقام الصديقية في أكمل صوره: لا أن تكـون صـادقا في قولك فحسب، بل أن تكون كلك ـ في كل أبعـادك ـ مطابقـا للحقيقة، حتى يصير كيانك نفسه شاهدا عليها.

وهنا ينبغي التنبيه على شيء مهم. الصـديق ليس إنسـانا بلا جدل. الجدل في الكون قائم، وفي النفس قائم، وسيبقى قائما ما دامت الحيـاة ﴿**في كَبَـد**﴾ ـ كمـا رأينـا في الفصـل الخامس. لكن الفرق أن الصديق حسـم جدلـه الـداخلي. لم يعد يتردد بين صوتين، بل صار يعرف أي صوت يستجيب له. لم يعد ينقسم بين قناعتين، بـل صـار يعـرف أيهمـا ينبـع من فطرته. لم يعـد يجاهـد نفسـه على كـل خطـوة، بـل صـارت خطاه طبيعية نحو ما هـو حـق، كمـا الجسـد السـليم يتنفس دون أن يفكر في تنفسه.

ولأن الصديق على هذه الحال، تصـير حركتـه في الحيـاة أخف. لا لأن الابتلاءات تخف عليه، بل لأن العوائـق الداخليـة سقطت. كان يستهلك جهدا في إقناع نفسه، فلم يعد يحتـاج إليه. كان يستهلك طاقة في تبرير اختياراته، فاستغنى عنهـا. كان يدور حول قراراته أياما، فصار يتخذها بسهولة. لم يتغير العالم من حوله، لكنه تغير داخله، فصار يعبر العالم بخطـوة خفيفة. ولذلك قال تعالى:

﴿**ومَن يَتَّق اللهَ يَجعَل لَه مَخرَجًا ۝ ويَرزُقه من حَيث لا يَحتَسب**﴾ [الطلاق: ٢-٣]

المخرج هنا ليس مجرد حل. هو انتقال من ضيق الرؤية إلى سعة المعنى. والرزق المحتسب وغير المحتسب ليس مالا فحسب، بل رزق القلب من السكينة، ورزق العقل من الوضوح، ورزق الروح من القرب. كل ذلك يفتح للذي اتقى ـ أي اتحدت أبعاده الأربعة في طاعة الله.

وهكذا يغلق الفصل السادس دائرته. بدأنا بسؤال: ماذا تفعل بعد كل ما عرفته؟ وانتهينا إلى جواب: تصير ذاتا واحدة، صادقة مع نفسها، موحدة الأبعاد. ذات تعرف من تكون، وتعرف ما تريد، وتعرف الطريق. ذات بلغت ما يتسع لها من مقام الصديقين، فدخلت في زمرة يقول الله عنها في أكرم وصف:

﴿**ومَن يُطِعِ اللهَ والرَّسولَ فأُولَئِكَ مَع الذينَ أَنعَمَ اللهُ علَيهم من النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصالحينَ وحَسُنَ أُولَئِكَ رَفيقًا**﴾ [النساء: ٦٩]

تأمل في هذا الترتيب: النبيين، ثم الصديقين، ثم الشهداء، ثم الصالحين. الصديقون بعد النبيين. لأن الصديقية أعلى ما يبلغه غير النبي من المؤمنين. والصديق ـ كما نفهم الآن ـ ليس من بلغ كمالا مطلقا، بل من تلاشت في كيانه الفجوات حتى صار واحدا. وهذا المقام مفتوح لكل مؤمن يسير في درب الصدق الذاتي.

ولكن سؤالا أخيرا ينفتح عليك. الذات الصديقة الموحدة، ماذا تفعل في العالم؟ كيف تتحرك بين الناس؟ كيف يتحول

هذا الانسجام الداخلي إلى أثر خارجي؟ وكيف ينتقل الحـق ـ الذي اتحـدت فيـه ـ من معرفـة في كيانهـا إلى كيـان يحمـل الحق ذاته؟

ذلك ما يفتحه الفصل القادم: حركة الجوهر.

* * *

وقفة تأمل

قبل أن تطوي هذا الفصل، انظـر إلى فجـوة واحـدة بين ما تعرف أنه الحـق ومـا تفعلـه في الخفـاء، وقـد تعـودت أن تبررها لنفسك بعـذر تعـرف في قرارتـك أنـه قنـاع. لا تطلب اليوم أن تغلقها كلها، بل اسأل نفسك سـؤالا واحـدا صـادقا: لو خلعت هذا القناع الآن، أي راحـة كنت أحـرم نفسـي منهـا وأنا أظن أني أحتمي به؟

الفصل السابع — حركة الجوهر

✦

تمهيد

الحركة التي تصنعك

تأمل في كيف بدأت. لم تكن أنت كما أنت الآن في يـوم من الأيـام. لم تكن جسـدا، ولا قلبـا يخفـق، ولا عقلا يفكـر. كنت نطفة في صلب أبيك، ثم نطفة انتقلت إلى رحم أمــك، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظاما، ثم كسيت العظـام لحمـا، ثم نفخت فيك الروح، ثم خرجت إلى الدنيا طفلا. وقبل النطفة، كانت في صـلب أبيـك ذرات. وقبـل تلـك الـذرات كـانت في طعام أكلـه. وقبـل الطعـام كـانت في تربـة، ومياـه، وهـواء، ونور. وقبل ذلـك كلـه، كنت في علم اللـه، حيث لم يكن لـك من الوجود إلا أنك معروف لخالقك.

أنت ـ بكل ما يعنيه «أنت» ـ نتيجـة حركـة لا تنقطـع. من علم اللــه إلى وجــودك، ومن نطفتــك إلى طفولتــك، ومن طفولتك إلى رشدك، ومن رشدك إلى ما أنت عليـه الآن. لم تكن لحظة واحدة ساكنا. حتى وأنت تقرأ هذه الكلمات الآن، ذرات جسدك تتبـدل، وخلايـا جلـدك تمـوت ويخلفهـا غيرهـا،

وأنفاسك تجري كالموج، وقلبك يخفق دون أن يستأذنك. أنت في حركة جوهرية، لا تتوقف، ولا تستأذن، ولا ينالها سكون.

هذه الحركة ليست عرضا في وجودك، بـل هي وجـودك. لو توقفت، انتهيت. لو سكنت ذرة جسدك، تفكك. لـو هـدأت نبضـات قلبـك، انتقلت إلى الحيـاة الأخـرى. الإنسـان كـائن متحـرك بطبيعتـه الأصـلية، ولا يسـتطيع أن يخـرج من هـذه الحركة، كما لا تسـتطيع الشـمس أن تخـرج من دورانهـا، ولا الجبل أن يخرج من مروره الخفي.

لكن السؤال الذي ينفتح عليـك هنـا، سـؤال يبـدل النظـر إلى الحياة كلها: إلى أين تتحرك؟

الحركة قدر، لكن الاتجاه اختيار. والإنسـان الـذي تأملنـاه في الفصـول السـابقة ـ بأبعـاده الأربعـة، بإرادتـه، بصـدقه الذاتي، بتوحده ـ كل مـا عرفنـاه عنـه لم يكن إلا تهيئـة لهـذا السـؤال. لأنـك إذا فهمت أنـك متحـرك شـئت أم أبيت، وإذا فهمت أن هذه الحركة تأخذك إلى مكان ما، تكون أمـام أهم قرار في حياتك: في أي اتجاه تدع حركتك تأخذك؟

وحين يختار الإنسان أن تكون حركتـه نحـو اللـه ـ لا نحـو ذاته، ولا نحو شهواته، ولا نحو ما يريده الآخرون منه ـ يحدث في كيانه ما لا يحدث في غيره. الفجوات التي رسـمناها في الفصل السابق ـ بين الـروح والقلب والعقـل والجسـد ـ تبـدأ في الانغلاق. ليس لأن الحركة تسدها قسرا، بـل لأن الاتجـاه الواحد يجمع الأبعاد كلها في نسق واحد. كل بعد يتحـرك في

الاتجاه نفسه، فيلتقي بالأبعاد الأخرى عند مركز واحد. تلـتئم الذات. تنغلق الفجوات. وتبدأ بسـاطة غريبـة تـدخل الكيـان: ذات لا تتنازع، لا تنقسم، لا تحمل في داخلهـا ذوات متعـددة. ذات واحدة. ذات بسيطة.

وهنا ينفتح السر الأعمق. الله ـ تعالى ـ بسـيط الحقيقـة. ليس فيه تركب، ولا أجزاء، ولا تنازع، ولا انقسـام. واحـد في ذاته، واحد في صفاته. وكلما اقترب الإنسان من اللـه، صـار أبسط. لا لأن الله يجعله بسيطا قسرا، بل لأن الاقـتراب من الواحـد البسـيط يسـتدعي بطبيعتـه أن يتلاشـى التعـدد في المقترب. والحركة الجوهرية الصاعدة إلى الله هي بالضـبط هــذه العمليــة: تلاشــي التعــدد، انغلاق الفجــوات، اكتمــال البساطة، اقتراب الذات من ربها بوجودها كله.

وحين تبلـغ الـذات هـذه البسـاطة، تكـون قـد بلغت مـا يسـميه القـرآن بـ«النفس المطمئنـة». ليسـت النفس الـتي زالت عنها الابتلاءات، بل النفس التي اكتملت فيهـا الوحـدة. ليست النفس التي بلغت السكينة بعد عناء، بل النفس الـتي صارت السـكينة طبيعتهـا. هـذه هي النفس الـتي تـدخل في مقام الصديقين، حيث لا فجوة بين رضاها ورضا الله، ولا بين غضبها وغضب الله، كما رأيت في ختم الفصل السادس.

ولكن هـذه الحركـة الصـاعدة ليسـت مضـمونة الاتجـاه. الإنسان يتحرك دائما، لكنه قـد يتحـرك في غـير اتجـاه اللـه، فتتسع فجواته بدل أن تنغلق، وتتركب ذاتـه بـدل أن تبسـط،

ويبتعـد عن البسـاطة الإلهيـة بـدل أن يقـترب. ولأن المصـير على المحك، ينبغي أن نفهم هذه الحركة الجوهريـة: مـا هي قوانينها، وما هي اتجاهاتها، وكيـف تصـير صـاعدة لا هابطـة، وموصـلة إلى اللـه لا مبعـدة عنـه. ذلـك مـا تفتحـه الأقسـام الآتية.

* * *

القسم الأول

الحركة قانون الوجود

ما رأيناه في نفسك ـ أنك حركـة لا تتوقـف ـ ليس خاصـا بك. هو قانون الوجود كله. انظر أبعد من نفسك، إلى الوجود كله، تجد القانون نفسـه يسـري في كـل شـيء. مـا من ذرة سـاكنة، ولا موجـة هادئـة، ولا كـوكب ثـابت. كـل شـيء في حركة. حتى ما تحسبه أشد الأشياء رسوخا وثباتا:

﴿**وتَـرى الجِبـالَ تَحسَـبُها جامـدَةً وهي تَمُـرّ مَـرَّ السَّحاب صُنعَ الله الذي أَتقَنَ كـلَّ شَـيءٍ إنَّـه خَبـيرٌ بما تَفعَلون**﴾ [النمل: ٨٨]

الجبل ـ الذي صار في لغة الناس رمزا للثبات ـ هو نفسه في مـرور. لا شـيء يقـف. الحركـة ليسـت حـالا تطـرأ على الوجود، بل هي صفته الأولى. كل موجود يتحرك بمجـرد أنـه موجود.

لكن هذه الحركة الكونية ليست عشوائية، ولا تـذهب في كل اتجاه. هي حركة ذات وجهة. كل ما في الكون يتجـه إلى غاية واحـدة: اللـه. تأمـل في قولـه تعـالى عن نشـأة الكـون نفسها:

﴿ثُمَّ استَوى إلى السَّماءِ وهي دُخـانٌ فقـالَ لهـا وللأَرضِ ائتيا طَوعًـا أَو كَرهًـا قالَتـا أَتَينـا طـائعينَ﴾ [فصلت: ١١]

لاحظ كيف صيغ الأمر: ﴿**ائتيا طَوعًا أَو كَرهًا**﴾. الخيـار مطروح، لكن النتيجـة واحـدة. الإتيـان حاصـل، لا مفـر منـه. والكـون مـذ كـان دخانـا، أجـاب: ﴿**أَتَينا طـائعينَ**﴾. اختـار الطوع. ومنذ تلـك اللحظـة، لم يتوقـف عن الإتيـان إلى اللـه طوعا. كل حركة في الوجود ـ من دوران المجرة إلى اهتزاز الذرة ـ هي خطوة في هذا الإتيان الدائم.

وهذا الاتجاه الكوني نحـو اللـه، عـبر عنـه القـرآن بكلمـة دقيقة:

﴿تُسَبِّحُ لَه السَّماواتُ السَّـبعُ والأَرضُ ومَن فيهنّ وإن من شَـيءٍ إلا يُسَـبِّحُ بحَمـده ولَكِن لا تَفقَهـونَ تَسبيحَهُم﴾ [الإسراء: ٤٤]

تأمـل في كلمـة ﴿**يُسَبِّح**﴾. هي من «سـبح» في اللغـة، بمعنى جرى وأسرع في حركته، كما يجري السابح في الماء. فالتسبيح ليس مجرد كلام يقال، بل حركة يتحركها المخلـوق

نحـو اللـه. كـل شـيء في الكـون يسـبح إلى اللـه بحركتـه الخاصـة: الشـمس بـدورانها، والـذرة باهتزازهـا، والشـجرة بنموها. ولاحظ التحفظ في ختم الآية: ﴿**ولَكِن لا تَفقَهـونَ تَسبيحَهُم**﴾. لسنا في غفلة عن وجود التسبيح، بل عن فهم لغته. لكل مخلوق تسبيحه، ولكل تسبيح اتجاه واحد: الله.

غير أن هذه الحركة الكونية ـ في كل مـا عـدا الإنسـان ـ اضطرارية. الشمس لا تملك أن تتوقف عن دورانها، والـذرة لا تختار أن تهتز أو لا تهـتز. كـل شـيء في الكـون يتجـه إلى الله بطبيعته، لا باختياره. الحركـة في الكـون قـدر، والاتجـاه فيها إلـزام. فـالكون كلـه ـ مـا عـدا الإنسـان ـ يسـبح ويـأتي ويسير إلى الله، دون أن يملك أن يفعل غير ذلك.

أما الإنسان، فاستثناء في هذا النظام كلـه. هـو أيضـا في حركة دائمة لا يملك إيقافها ـ كمـا رأينـا في التمهيـد. لكنـه ـ وحده بين المخلوقات ـ يختار اتجاه حركته. كل شيء يقترب إلى الله اضـطرارا، أمـا الإنسـان فيقـترب اختيـارا، أو يبتعـد اختيارا. كل شيء يسير إلى كمالـه الطـبيعي بلا تخلـف، أمـا الإنسـان فمسـاره مفتـوح: يسـتطيع أن يـرتقي حـتى يفـوق الملائكة، ويستطيع أن ينحـدر حـتى يكـون أدنى من البهـائم. هـذه القـدرة على الاتجـاهين هي مـا يجعلـه مخلوقـا فريـدا، ومخلوقا مرعبا في آن واحد. لأن كل كائن غيره مـؤمن على وجهته، وحده الإنسان مفتوح على المصير.

ولهذا قال تعالى في صياغة غاية في الحزم:

﴿لقَد خَلَقنا الإنسانَ في أَحسَن تَقويم ۝ ثُمَّ رَدَدناه أَسفَل سافلين﴾ [التين: ٤-٥]

تأمل في كلمة ﴿**رَدَدناه**﴾ ـ أي أعدناه إلى ما هو دون أصله. وهذا الرد لا يقع بقدر تعسفي، بل بحركة هابطة يختارها الإنسان لنفسه. والآيتان لا تصفان حالتين منفصلتين زمنيا، بل اتجاهين متاحين لحركة الإنسان في كل لحظة. ﴿**أَحسَن تَقويم**﴾ هو حقيقته الأصلية، التي خلق عليها. و﴿**أَسفَل سافلين**﴾ مدى السقوط الذي يبلغه إذا اختار اتجاه الهبوط.

ومن هنا تفهم لماذا لا يكفي الإنسان أن يتحرك. الحركة قدره الذي لا يختاره، لكن الذي يختاره هو اتجاهها. والإنسان الذي لا يختار اتجاها واعيا، يسلم نفسه لتيار يجرفه إلى حيث لا يريد، ويكون بذلك قد اختار الانجراف، ولو ظن أنه لم يختر.

ولأن هذه الحركة الإنسانية بهذا الثقل، اختزلها القرآن في آية واحدة جامعة:

﴿يا أَيُّها الإنسانُ إنَّك كادحٌ إلى رَبِّك كَدحًا فمُلاقيه﴾ [الانشقاق: ٦]

هذه الآية تختزل في سبع كلمات كل ما رأيناه، وتستحق وقفة عند كل كلمة فيها.

تأمل أولا في ﴿**كادحٌ**﴾. الكدح في اللغة هو السعي بمشقة، الجهد الذي يترك أثره في صاحبه. تقول العرب: «كدحه» إذا خدشه أثرا. فالكادح لا يخرج من كدحه كما دخله، بل يخرج وقد نقش في كيانه شيء. ولاحظ صيغة الخبر: ﴿**إنَّك كادحٌ**﴾. لم يقل «اكدح»، ولا «عليك أن تكدح». قال ﴿**إنَّك كادحٌ**﴾ ـ وصفا لما أنت عليه، لا أمرا تؤمر به. أنت كادح شئت أم أبيت. الكدح ليس فعلا تختاره، بل حال أنت فيها، كما السمكة في الماء.

ثم تأمل في ﴿**إلى رَبِّك**﴾. لم يقل «كادح في الدنيا»، ولا «من أجل العيش». قال ﴿**إلى رَبِّك**﴾. وحرف ﴿**إلى**﴾ يدل على غاية ومنتهى. فالكدح حركة ذات اتجاه، ووجهتها محددة: الرب. وهذا يكشف لك أمرا عظيما: حركة كل إنسان ـ المؤمن والكافر، الصالح والطالح، العارف والغافل ـ كلها متجهة إلى الله. لا أحد يكدح في الفراغ. كل خطوة تخطوها تدفعك نحو لقاء ربك، سواء قصدت هذا اللقاء أم نسيته أم أنكرته. ولكن ـ وهنا الفرق ـ منهم من يكدح إلى الله صاعدا إليه، ومنهم من يكدح وهو يظن أنه يبتعد، والحقيقة أنه إنما يكدح إلى لقائه ليحاسب.

ثم تأمل في تكرار المصدر ﴿**كَدحًا**﴾. هذا التوكيد يفيد الاستغراق. ليس كدحا عابرا، بل كدح يملأ الحياة. كل لحظة كدح، كل نفس كدح. الإنسان يكدح بنومه كما بيقظته، بصمته كما بكلامه. لا فكاك من الكدح ما دامت الحياة

قائمة، لأنه ـ كما رأينا في التمهيد ـ عين الحركة التي هي عين الوجود.

ثم تأمل في الخاتمة: ﴿**فمُلاقيه**﴾. الفاء فاء النتيجة. مادام الإنسان كادحا إلى ربه، فهو لاقيه لا محالة. اللقاء ليس موضوع خيار، بل نتيجة لازمة لحركة لا تتوقف. لكن الذي يختاره الإنسان هو هيئة هذا اللقاء. أيلقى ربه بقلب سليم أم بنفس مثقلة؟ بكدح صعد به أم بكدح هبط به؟ طائعا كما السماوات والأرض، أم منحرفا؟ هيئة اللقاء تحددها وجهة الكدح.

وهذه الحركة التي يكشفها القرآن ليست حركة الجوارح. ليست المسافة التي يقطعها جسدك، ولا الأعمال التي تنجزها يداك. هي أعمق من ذلك: حركة الروح، حركة الكيان، حركة الموقع الذي يحتله الإنسان من الله قربا أو بعدا. قد يقطع الإنسان آلاف الأميال وهو في مكانه الوجودي لم يبرحه. وقد يجلس في غرفة صغيرة ساعة، فيرتقي مقاما.

ولهذا قد تجد إنسانا يعمل كثيرا ـ مشاريع لا تنقطع، وجدول لا يهدأ ـ ومع ذلك لا حركة جوهرية فيه. تكدح يداه وقلبه ساكن، وتجري قدماه وروحه راكدة. وقد تجد آخر، أقل ضجيجا، لكن كل يوم ينقله نقلة في كيانه. فالحركة الحقيقية لا تقاس بكم الخطوات، بل بنوع التحول الذي تحدثه في صاحبها، وبمقدار ما تقربه من الله أو تبعده.

ومن هنـا، فـإن السـؤال الـذي ينبغي أن تطرحـه على نفسك ليس «هل أتحرك؟» ـ فالحركة قـدرك الـذي لا تنفـك عنه. السؤال هـو: «إلى أين تتحـرك روحي؟». هـل اتجاهـك يشبه اتجاه الوجود كله ـ نحو اللـه ـ أم أنـك تـدور في حلقـة مغلقة حول خوفك، أو شـهواتك، أو مـا يريـده النـاس منـك؟ الكون كله قال: ﴿**أَتَينا طائعين**﴾. وحدك ـ يا أيها الإنسـان ـ يمكنك أن تقول: أتيت طائعا، أو انحرفت.

ولأن الحركة بهذه المنزلة، ولأن اتجاهها هـو الـذي يحـدد المصير، ينبغي أن نفهم اتجاهـات هـذه الحركـة. مـتى تكـون صعودا يقرب من الله ويغلق الفجوات؟ ومتى تكـون هبوطـا يباعد ويوسع الشروخ؟ ومتى تكون دورانا في تيه لا ينهي ولا يقرب؟ ذلك ما يفتحه القسم القادم.

* * *

القسم الثاني

اتجاه الحركة لا كميتها

إذا كانت الحركة قدرا لا فكاك منه، فـإن السـؤال ينتقـل من «كم تتحـــرك؟» إلى «إلى أين؟». والنـــاس في هـــذا يختلفون اختلافـا عظيمـا. ليسـت العـبرة بمن قطـع مسـافة أطـول، بـل بمن سـار في الوجهـة الصـحيحة. وقـد يقطـع الإنسان عمره كلـه في سـعي حـثيث، ثم يكتشـف أنـه كـان

يجـري في الاتجـاه الخطـأ. تأمـل في هـذا التحـذير القـرآني البليغ:

﴿قُل هَل نُنَبِّئُكُم بالأَخسَرينَ أَعمالًا ۝ الذينَ ضَـلَّ سَـعيُهم في الحَيـاةِ الـدُّنيا وهم يَحسَـبونَ أَنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]

لاحـظ دقـة التعبـير: **﴿ضَلَّ سَـعيُهم﴾**. لم يقـل «بطـل عملهم»، ولا «قل جهدهم». السعي موجود، والجهد مبـذول، لكنـه ضـل الطريـق. والأخطـر من ضـلال السـعي، أنهم **﴿يَحسَبونَ أَنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا﴾** ـ أي يظنـون أنهم على خير. فالضلال هنـا مضـاعف: ضـلال في الاتجـاه، وغفلـة عن هذا الضلال. وهذا أخطر أنواع الحركة: حركة نشطة، مجـدة، لكنها تبعد بصاحبها عن غايته وهو يحسب أنه يقترب.

من هنـا نفهم أن حركـة الإنسـان لا تخـرج عن ثلاثـة اتجاهات.

أولها حركة الصعود: حركة تقرب صاحبها من الله، وتغلق الفجوات بين أبعاده الأربعـة، فـيزداد مـع كـل خطـوة توحـدا وبساطة. هي ليست بالضرورة الأكـثر ضـجيجا، ولا الأسـرع، لكنها الأصدق اتجاها. ومن سار فيها، تحول عمله إلى قـرب، وسعيه إلى ارتقاء.

وثانيهـا حركـة الهبـوط: حركـة تبعـد صـاحبها عن اللـه، وتوسـع الفجـوات في داخلـه، فـيزداد مـع كـل خطـوة تركبـا

وتشتتا. وقد تكون هذه الحركة عامرة بالنشاط، مثقلة بالإنجاز، لكنها في حقيقتها انحدار متصل. لأن الفعل لا يقاس بصورته، بل بالاتجاه الذي يأخذ صاحبه إليه.

وثالثها حركة التيه: حركة لا تصعد ولا تهبط، بل تدور في حلقة مغلقة. لا تقرب من الله، ولا تنهي إلى قرار. صاحبها يبذل ويكدح، لكنه يعود من حيث بدأ، كمن يمشي في صحراء بلا بوصلة، يقطع مسافات شاسعة وهو لم يبرح مكانه.

والذي يحدد اتجاه الحركة ليس الفعل في ظاهره، بل القلب الذي يصدر عنه الفعل. حين يكون القلب حاضرا متجها إلى الله، تصير أبسط الأفعال صعودا. وحين يكون القلب غافلا أو مشتتا، تنقلب الأفعال نفسها ـ مهما عظمت ـ إلى استنزاف يثبت الغفلة. ولهذا ضرب القرآن هذا المثل في المقابلة بين المشيتين:

﴿**أَفمَن يَمشي مُكِبًّا على وَجهه أَهدى أَمَّن يَمشي سَوِيًّا على صِراطٍ مُستَقيم**﴾ [الملك: ٢٢]

تأمل في الصورتين. ﴿**مُكِبًّا على وَجهه**﴾ ـ منكفئا، لا يرى إلا موضع قدميه، لا أفق أمامه ولا وجهة يقصدها. وهذا ليس انعدام حركة، بل حركة بلا رؤية. أما ﴿**يَمشي سَوِيًّا على صِراطٍ مُستَقيم**﴾ فهو الذي يرى وجهته، ويستقيم في سيره إليها. كلاهما يمشي، لكن الفرق في البصيرة التي تهدي المشي، لا في المشي نفسه.

وهذا المعنى لخصه الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في كلمة بالغة الدقة:

«العامِلُ على غَيرِ بَصيرَةٍ كالسائرِ على غَيرِ الطَّريق، لا تَزيدُه سُرعَةُ السَّيرِ إلا بُعدًا»

تأمل في هذا الميزان العجيب. السائر على غير الطريق، كلما أسرع، ازداد بعدا عن غايته. سرعته ـ التي يظنها فضيلة ـ تنقلب عليه نقمة. لأنها تضاعف خطأه، لا تصححه. والعبرة من ذلك أن الجهد المبذول في الاتجاه الخطأ ليس محايدا، بل ضار؛ فهو يرسخ البعد، ويعمق التيه. ولهذا قد يكون التوقف والمراجعة خيرا من المضي بسرعة في طريق لا يوصل.

ومن هنا يتبين لماذا اختلف سعي الناس مع أنهم جميعا يكدحون. قال تعالى:

﴿إِنَّ سَعيَكُم لشَتّى﴾ [الليل: ٤]

السعي شتى ـ متفرق مختلف ـ لا في كمه، بل في وجهته. منه ما يصعد بصاحبه إلى أعلى عليين، ومنه ما يهبط به إلى أسفل سافلين، ومنه ما يتركه معلقا في دائرة لا تنتهي. والكدح واحد في صورته، لكن مآلاته شتى بشتات الاتجاهات.

فإذا أدركت هذا، أدركت أن المهم ليس أن تزيد من حركتك، بل أن تصحح وجهتها. خطوة واحدة في الاتجاه

الصحيح خير من ألف خطوة في التيه. والتقدم الحقيقي ليس قطع المسافات، بل الاقتراب من الله ولو بخطوة.

لكن سؤالا يفرض نفسه هنا: إذا كان كثير من الناس يكدحون ويتعبون ولا يصلون، فكيف يتحرك الإنسان دون أن تستنزفه حركته؟ كيف يكون كدحه صعودا لا استنزافا، وقربا لا تبددا؟ ذلك ما يفتحه القسم القادم.

* * *

القسم الثالث

كيف لا تستنزفك الحركة

من أكثر ما يرهق الإنسان أنه يخلط بين الجهد والاستنزاف. يظن أن التعب دليل القرب، وأن كثرة العمل علامة الحركة الصاعدة. والحقيقة أن كثيرا من الناس يتحركون كثيرا ويتعبون كثيرا، ثم لا يجدون في أنفسهم إلا فراغا يزداد. لأن التعب وحده لا يدل على شيء؛ فقد يكون تعب صعود، وقد يكون تعب تيه.

والسر الذي يغفل عنه كثيرون: أن الإنسان لا يتعب من العمل، بل يتعب من فقدان المعنى. القلب الممتلئ بمعنى واضح قد يعمل طويلا دون أن ينهار، والقلب الفارغ من المعنى يتعب من خطوة واحدة. ولهذا تجد من يخدم من يحب لا يشعر بثقل الخدمة، ومن يعمل مكرها ينوء بأيسر

الأعمـال. المعـنى هـو الـذي يخفـف الحمـل، لا قلـة الحمـل نفسها. فالطاقة التي تحرك الإنسان ليست في عضلاته، بـل في المعنى الذي يملأ قلبه.

ومن هنا كان الفرق بين حركة تتصل بالله وحركة تنفصل عنه. الحركة المنفصـلة عن اللـه ـ مهمـا عظمت ـ تسـتنزف صاحبها، لأنها تستمد من طاقة محدودة سرعان ما تنفد. أمـا الحركـة المتصـلة باللـه، فتتغـذى من معـنى لا ينضـب، فلا تطفئ الـروح بـل تحييهـا. ولهـذا قـرن القـرآن المجاهـدة بالهداية، لكن بشرط دقيق:

﴿والذينَ جاهَدوا فينا لنَهدِيَنَّهم سُبُلَنا وإنَّ اللهَ لمَعَ المُحسِنين﴾ [العنكبوت: ٦٩]

تأمـل في كلمـة ﴿**فينـا**﴾. لم يقـل «والـذين جاهـدوا» فحسب، بـل قيـدها بـ﴿**فينا**﴾. فليسـت كـل مجاهـدة تثمـر هداية، بل المجاهدة التي تكون «في الله» ـ أي لأجلـه، وفي سبيله، وبه. هذا القيد هو الذي يميز الجهد المثمر من الجهـد المستنزف. الجهد «في الله» يفتح سـبلا، والجهـد في غـيره يغلقها مهما بذل فيه.

وثمرة هذا الاتصال أن السـكينة ترافـق الحركـة، لا تـأتي بعدها. كثـيرون ينتظـرون أن تنتهي أعمـالهم ليسـتريحوا، فلا يستريحون أبدا، لأن عملا ينتهي يخلفه عمل. أما من اتصـلت حركته باللـه، فإن السكينة تنزل عليه وهو في خضم العمل:

﴿هو الذي أَنزَلَ السَّكينَةَ في قُلوبِ المؤمنينَ ليَزدادوا إيمانًا مَع إيمانهم﴾
[الفتح: ٤]

السكينة هنا ليست توقفا عن الحركة، بل طمأنينة ترافق المتحرك. هي الرفيق الذي يخبرك أن تعبك ليس ضياعا، وأن خطواتك ـ وإن تعثرت ـ تمشي نحو الله لا نحو الفراغ. ولذلك كانت السكينة علامة على صحة الاتجاه؛ فمن وجدها في قلبه وهو يعمل، علم أن حركته صاعدة. ومن لم يجد إلا قلقا يزداد، فليراجع وجهته.

وحتى تكون الحركة صاعدة دون استنزاف، ينبغي أن تعطي كل بعد من أبعادك حقه. فلا ترهق الجسد حتى ينهار، ولا تهمل القلب حتى يقسو، ولا تترك الروح حتى تذبل، ولا تربك العقل حتى يتشتت. وقد أرشد الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) إلى هذا التوازن في وصية جامعة، فقال:

«اجتَهِدوا أن يَكون زَمانكم أَربَع ساعات: ساعةٌ لمُناجاته، وساعةٌ لأَمر المَعاش، وساعةٌ لمُعاشَرَة الإخوان الثِّقات الذينَ يُعَرِّفونكم عُيوبكم، وساعةٌ تَخلون فيها لِلَذّاتكم، وبهذه الساعَة تَقدرون على الثَّلاث الساعات»

تأمل في ختم الوصية: «وبهذه الساعَة تَقدرون على الثَّلاث الساعات». ساعة الراحة ـ التي قد يظنها المجتهد تفريطا ـ هي شرط القدرة على الساعات الأخرى. لأن البعد

المهمـل لا يسـكت، بـل يسـتنزف بقيـة الأبعـاد. فمن أرهـق جسده عطل روحه، ومن أهمل قلبه أربك عقله. التوازن بين الأبعاد ليس رفاهية، بل شرط للحركة الصـاعدة المسـتمرة. فالحركة الجوهرية ليست قهرا للنفس، بـل انسـياب واع في حضرة الله، توازن فيه بين أبعادك حتى تصل.

وقد رأينا في الفصل الخامس أن التوكل هو الذي يحمـل الإنسان حين يبلغ حد طاقته. وهو نفسه ما يقي الحركــة من الاستنزاف؛ لأن المتوكل لا يحمل ثقل النتائج، بل يبذل سعيه ويكل الأمر إلى الله، فيخف عنه ما كان يثقل سواه.

ثم إن للحركــة الصـاعدة سـرا أخـيرا: أن الإنسـان حين يتحرك في الاتجاه الذي يتحرك إليه الكون كلـه ـ نحـو اللـه ـ يدخل في انسجام مع الوجود. لم تعد حركته فردية معزولـة، بل صارت جزءا من حركـة كـبرى. وحين ينسـجم الجـزء مـع الكل، يجد العون من حيث لا يحتسب. لا لأن الكـون يخدمـه، بل لأنه كف عن مصادمة سننه، فصار يجري معها لا ضدها.

فإذا فهمت كيف تتحرك دون أن تستنزفك الحركــة، بقي السؤال الأعمق: ما الذي يجعـل هـذه الحركـة تحولـك فعلا؟ كيف تنتقل المعرفـة الـتي في رأسـك إلى كيـان يسـري في وجودك؟ كيف يصـير مـا تعرفـه مـا تكونـه؟ ذلـك مـا يفتحـه القسم القادم.

* * *

القسم الرابع

آلية تحول المعرفة إلى كيان

وصلنا الآن إلى السر الذي يفسر لماذا يعرف كثير من الناس الحق ولا يتحركون به. لقد رأينا أن الحركة قدر، وأن اتجاهها هو الفاصل، وأن المعنى يقيها من الاستنزاف. لكن يبقى سؤال أعمق: لماذا تستقر المعرفة في إنسان فتحوله، وتمر بآخر فلا تغير فيه شيئا؟

الجواب أن المعرفة لا تستقر في الإنسان كما تستقر المعلومات في الكتب. الكتاب يحمل المعلومة دون أن تغير فيه شيئا، لأنها تبقى خارجه، مركونة على ورقه. وقد ضرب القرآن هذا المثل في من حملوا العلم ولم ينتفعوا به:

﴿مَثَلُ الذينَ حُمِّلوا التَّوراةَ ثُمَّ لم يَحمِلوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحمِلُ أَسفارًا﴾ [الجمعة: ٥]

تأمل في دقة التعبير: ﴿**حُمِّلوا التَّوراةَ**﴾ أولا ـ أي عرفوها وحفظوها ـ ﴿**ثُمَّ لم يَحمِلوها**﴾ ـ أي لم تصر جزءا منهم، ولم تنفذ إلى كيانهم. فالحمار الذي يحمل على ظهره أسفارا ـ أي كتبا ـ لا ينتفع بما فيها، لأنها تبقى حملا فوقه، لا معنى يسري فيه. وهكذا الإنسان الذي يحمل المعرفة في ذهنه دون أن تنزل إلى كيانه: علم كثير، وأثر معدوم.

ولنسم هذا «تحول المعرفة إلى كيان»: أن تتلاشى المسافة بين من يعرف وما يعرفه، حتى يصير المعلوم

وصفا للعالم لا معلومة عنده. وهـذا المعـنى ليس غريبـا عن تراثنا الفلسفي. فمدرسـة الحكمـة المتعاليـة ـ الـتي أرسـى دعائمهـا صـدر المتـألهين الشـيرازي (الملا صـدرا) ـ بنت تصـورها للنفس على أنهـا «جسـمانية الحـدوث، روحانيـة البقاء»[16]: أي أنها تبدأ ضعيفة مشدودة إلى البـدن، ثم تشـتد وجودا وترتقي جوهرا بحركة سـماها «الحركـة الجوهريـة» ـ حركة في صميم الذات لا في أعراضها، تنتقل بها النفس من جـوهر أضـعف إلى جـوهر أقـوى. وعنـدهم أن النفس تشـتد بعلمهـا وعملهـا، حـتى تصـير صـفاتها المكتسـبة عين ذاتهـا، تحملها معها إلى الدار الآخرة. والذي يعنينا من هذا ـ بصـرف النظر عن دقائق المذهب الفلسفي ـ هو جوهر الفكرة الـتي نقررها في هذا الكتاب: أن الصفة لا تكشف كنزا مدفونا، بل تبنى وتشتد بالممارسة حتى تتحد بالكيان فتصير هويـة. ومـا يشير إليه الحكماء بـ«اتحاد العالم بمعلومه» ـ وإن قصدوا به ارتقاء النفس بالعلم ـ هو في جوهره ما نقصـده هنـا: تحـول المعرفة إلى سلوك وطبع، حتى يصير الإنسان ما عرفه.

ولنكن دقيقين في التمييز. ثمة فرق بين أن تقتنع بـالحق عقليا، وأن تتحد به وجوديا. الاقتناع العقلي فعل في الـذهن:

---

[16] الحكمة المتعالية مدرسة فلسفية أسسها صـدر الـدين الشـيرازي (الملا صـدرا، صـدر المتـألهين، ت ١٠٤٥هـ)، وعمـدتها كتابـه «الحكمـة المتعاليـة في الأسـفار العقليـة الأربعـة». ومن أصـولها أن النفس «جسـمانية الحـدوث روحانيـة البقـاء»، وأنهـا تشـتد وجـودا بـ«الحركـة الجوهريـة» ـ حركـة في صـميم الجـوهر لا في الأعـراض. ويـذكر هنـا للتأصيل، لا التزاما بكل تفاصيل المذهب.

تفهم الفكرة، وتسلم بصحتها، وتستطيع أن تدافع عنها. لكنك مع ذلك قد تخالفها في سلوكك. كم من إنسان يعرف أن الصدق خير، ثم يكذب حين يخاف. يعرف أن الحسد يهلك، ثم يحسد. المعرفة حاضرة، لكنها لم تنزل من الذهن إلى الكيان. أما الاتحاد الوجودي، فهو أن تصير الفكرة شيئا تكونه، لا شيئا تعرفه. حينها لا تصدق لأنك قررت أن تصدق، بل لأن الصدق صار طبيعتك التي لا تنفك عنها.

وأوضح شاهد على هذا الفرق ما كان من إبليس. لم يكن إبليس جاهلا بالله ـ بل كان من أعرف الخلق به. عرفه، وخاطبه، وعلم بوجوده ووحدانيته. ومع ذلك عصاه واستكبر. فلماذا لم تنفعه معرفته؟ لأن معرفته بقيت في ذهنه، ولم تتحد بكيانه. عرف الحق معرفة، لكنه لم يصر موضعا للحق. ولو كانت المعرفة وحدها تكفي، لكان إبليس في أعلى عليين.

ولهذا لم يجعل القرآن المدار على العلم وحده، بل قرنه دائما بالعمل. لم يقل «الذين علموا»، بل قال ﴿**الذينَ آمَنوا وعَملوا الصالحات**﴾. ولم يقل «اعرفوا الحق»، بل قال ﴿**اتَّبِعوا ما أُنزل إلَيكم**﴾. الاتباع هو الحركة التي تنزل المعرفة من الرأس إلى الكيان.

فكيف تتحول المعرفة إلى كيان؟ هي عملية تمر بمراحل، لا تقع دفعة واحدة.

أولاها مرحلة المعلومة الذهنية. هنا تدخل المعرفة إلى العقل كفكرة، يصدقها أو ينكرها، لكنها تبقى على سطحه، لا تمس جذره. كثيرون يتوقفون عند هذه المرحلة، فيحملون علما غزيرا لا يغير من حالهم شيئا.

وثانيها مرحلة الممارسة. حين يبدأ الإنسان يعمل بما عرف، ينتقل المعنى من الذهن إلى الفعل. والممارسة المتكررة تحول المعرفة من فكرة يستحضرها إلى عادة تجري منه بلا استحضار. وهنا قاعدة خطيرة: ما يمارس يطبع، وما يكرر يؤلف، وما يؤلف يدافع عنه ـ ولو كان باطلا.

وثالثها مرحلة الذوق. بعد طول الممارسة، يبدأ الإنسان يتذوق المعنى، لا يفكر فيه فحسب. يجد لذة في الصدق، ونفورا من الكذب، قبل أن يستحضر دليلا. هنا صار المعنى جزءا من ذائقته، لا مجرد قناعة في عقله. والذوق هو الجسر بين الفكرة والهوية.

ورابعها مرحلة التطبع، وهي الذروة. هنا لا يعود المعنى شيئا يملكه الإنسان، بل شيئا يكونه. لا يقول «أنا أعرف الصدق» ولا «أنا أمارس الصدق»، بل صار صادقا في كيانه، يصدر عنه الصدق كما يصدر الضوء عن الشمس، بلا تكلف ولا قرار. هنا تحولت المعرفة إلى كيان، وصار الإنسان موضعا للحق لا حاملا له.[17]

[17] يقابل هذا المعنى ـ في مستوى التشخيص ـ ما يعرف بالمرونة العصبية (neuroplasticity): إذ يعيد الدماغ تشكيل مساراته العصبية تبعا لما يتكرر من الفعل والفكر، فتقوى الوصلات التي تستعمل وتضعف

وحين يبلغ التطبع مداه الأقصى، يصير الاتحاد هوية راسخة لا تتبدل. لم يعد الحق ـ أو الباطل ـ شيئا يفعله الإنسان، بل صار شيئا هو إياه، لا ينفك عنه كما لا ينفك الإنسان عن نفسه. وقد يخبرنا الله أحيانا عن أناس بلغوا هذا الرسوخ في أحد الطرفين، إخبارا عن حال تحققت فيهم، لا إجبارا لهم عليها.

فمن أهل الحق، أخبرنا عن المطهرين الذين بلغ اتحادهم بالحق مبلغ العصمة، فقال في أهل البيت:

﴿**إِنَّما يُريد اللهُ ليُذهِبَ عنكُمُ الرِّجسَ أَهلَ البَيتِ ويُطَهِّرَكم تَطهيرًا**﴾ [الأحزاب: ٣٣]

وأخبرنا النبي (صلى الله عليه وآله) عن فاطمة (عليها السلام) أن «الله يَرضى لرضاها ويَغضَب لغَضَبها» ـ كما رأينا في الفصل السابق ـ لأن اتحادها بالحق بلغ حدا صار فيه رضاها حاكيا عن رضا الله. هؤلاء لم يجبروا على الطهر، بل بلغوه بصدق عبوديتهم حتى رسخ فيهم، فأخبر الله عن رسوخه.

وفي المقابل، أخبرنا عن أناس تمكنت منهم الضلالة حتى صارت هويتهم، فلم يعد فيهم موضع ينفذ إليه الحق. أخبر عن إبليس، وأخبر عن أبي لهب قبل موته:

المهملة، وهو ما تلخصه قاعدة هب (1949): «الخلايا التي تتنشط معا تترابط معا». أي أن ما يمارسه الإنسان يصير ـ مع التكرار ـ بنية في عصبه قبل أن يكون عادة في سلوكه. تذكر للتشخيص لا للاستدلال. انظر: D. O. Hebb, “The Organization of Behavior” (1949).

﴿تَبَّت يَدا أَبي لَهَبٍ وتَبّ﴾ [المسد: ١]

ولم يكن هـذا الإخبـار إجبـارا لأبي لهب على الكفـر ـ فالاختيار ظـل بيـده ـ بـل كشـفا عن اتحـاد بالباطـل بلـغ من الرسوخ حدا علم الله أنه لن يرجـع عنـه، فـأخبر عن الواقـع كمـا هـو، لا أنـه فرضـه. فكمـا يبلـغ الصـدق بصـاحبه مبلـغ العصمة، يبلغ الباطـل بصـاحبه مبلـغ الختم. وكلاهمـا صـنيعة اختيار وممارسة طويلة، لا قدر مفروض.

وهذا القانون ـ قانون الاتحاد ـ يعمل في الاتجاهين سواء. ولهذا حذر القرآن من حال يبلغها الإنسان بممارسته الباطل، فلا يعود الحق قادرا على النفوذ إلى قلبه:

﴿طَبَعَ اللهُ عَلَيها بكُفرهم فلا يُؤمنونَ إلا قَليلًا﴾ [النساء: ١٥٥]

تأمل في كلمة ﴿**طَبَع**﴾. هي من الطـابع الـذي يختم بـه، وهي نفسها أصل «التطبع». فالطبع على القلب ليس عقوبة مفاجئة ينزلها الله ابتداء، بل نتيجة مسار طويـل من التكـرار والاختيار والممارسة، انتهى بتحول المعنى الفاسـد إلى جـزء بنيوي من الهوية. الإنسان طبع على قلبه بكفره ـ كما تقـول الآيـة ﴿**بكُفـرهم**﴾ ـ ثم نسـب اللـه الطبـع إلى نفسـه لأنـه أجرى السنة، لا لأنه ابتدأ الإغلاق.

ومن هنا تدرك خطورة العبارة التي يرددها كثيرون: «أنـا أعرف أن هذا خطأ، لكنني أفعله». هذه العبارة ليست بريئة، لأنها تكشف أن المعرفة لم تعد تقـود، وأن الممارسـة بـدأت تسحب الكيان في اتجاه آخـر. ومـع الـزمن تنقلب المعادلـة: يصير الدفاع عن الخطأ أسـهل من مقاومتـه، ويصـير تـبريره أيسر من تركه، حتى يصير التخلي عنه تهديدا للهوية نفسها.

ولأن هذا الاتحاد يتشكل بالتفاصـيل الصـغيرة المتكـررة، كان كل فعل صغير ذا شأن. التفاصيل هي التي تصنع البنيـة، والبنية هي التي تحـدد المصـير. فلا تحقـرن معصـية صـغيرة تمارسها، فإنها تنحت في كيانك. ولا تسـتهن بطاعـة صـغيرة تداوم عليهـا، فإنهـا تبـني فيـك. لأن الإنسـان ـ في حقيقتـه ـ مجموع ما اتحد به، لا مجموع ما يعرفه.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن بلوغ الاتحاد بالحق ليس نهايـة المطاف. فالاتحاد قد ينقلب، والحق الذي بلغـه الإنسـان قـد ينزلق منه إن لم يصنه. فكيف يصـان هـذا الاتحـاد؟ ذلـك مـا يفتحه القسم القادم.

* * *

القسم الخامس

التزكية شرط الصيانة

انتهينا في القسم السابق إلى حقيقة مقلقة: أن الاتحاد قانون يعمل في الاتجاهين، وأن الإنسان قد يتحد بالباطل كما يتحد بالحق. لكن ثمة ما هو أدق من ذلك وأخطر: أن من بلغ الاتحاد بالحق ليس في مأمن من أن يفقده. فالاتحاد قد ينقلب. من ذاق الحق وعاشه، يمكن أن ينزلق منه تدريجيا دون أن يشعر، حتى يجد نفسه يوما خارجه، وهو لا يدري متى خرج.

وقد ضرب القرآن لهذا الانقلاب مثلا صادما، في رجل بلغ من المعرفة أعلاها ثم انسلخ منها:

﴿**واتلُ علَيهم نَبَأَ الذي آتَيناه آياتنا فانسَلَخَ منها فأَتبَعَه الشَّيطانُ فكانَ من الغاوين ۝ ولَو شِئنا لرَفَعناه بها ولَكنَّه أَخلَدَ إلى الأَرضِ واتَّبَع هَواه**﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]

تأمل في هذا المشهد. رجل ﴿**آتَيناه آياتنا**﴾ ـ أي بلغ من العلم بالله ما بلغ، حتى قيل إنه أوتي ما أوتي من أسماء الله. ثم ﴿**فانسَلَخَ منها**﴾ ـ والانسلاخ في اللغة خروج الحية من جلدها، فكأن الآيات كانت جلدا له، ثم خرج منها وتركها. ولاحظ السبب الذي ذكره الله: ﴿**أَخلَدَ إلى الأَرض واتَّبَع هَواه**﴾. لم ينسلخ لأن المعرفة فارقته، بل لأنه أهمل

صيانتها، فمال إلى هواه حتى انفصل عن الحق الذي كان فيه. وفي هذا المعنى ورد في الأثر: «العِلم عِلمان: عِلمٌ في القَلب، فذلك العِلم النافع، وعِلمٌ على اللِّسان، فذلك حُجَّة الله على ابن آدم». فعلم بلعم بقي على لسانه، ولم يستقر في قلبه، فلم يصنه من الانسلاخ.

والسر في ذلك أن الحق لا يحمي نفسه في الكيان الإنساني تلقائيا. ليس كالحجر يوضع فيبقى، بل كالنبت يحتاج إلى سقي دائم وإلا ذبل. وكما يحتاج الجسد إلى مناعة تحفظه من الأمراض، يحتاج الحق في داخلك إلى صيانة تحفظه من الانقلاب. وهذه الصيانة لها اسم في اللغة القرآنية: التزكية.

والتزكية ليست مجرد تطهير من الذنوب، بل تنمية ورعاية مستمرة. تأمل في القسم الذي أقسمه الله قبل أن يذكر الفلاح:

﴿قَد أَفلَحَ مَن زَكّاها ۝ وقَد خابَ مَن دَسّاها﴾ [الشمس: ٩-١٠]

لاحظ: ﴿**قَد أَفلَح مَن زَكّاها**﴾ ـ لم يقل «من عرفها» ولا «من علمها». الفلاح مقرون بالتزكية، لا بالمعرفة. لأن المعرفة وحدها لا تفلح، بل التزكية التي تحولها إلى كيان وتصونه. والتدسية في المقابل ـ ﴿**مَن دَسّاها**﴾ ـ هي إخفاء

النفس وقمعها تحت ركام المعاصي حتى تضمر. فالنفس إما أن تزكى فتنمو، وإما أن تدسى فتخبو. ولا ثالث بينهما.

وتتحقق هذه الصيانة على ثلاث طبقات.

أولاها تنقية الدوافع. فقد يطلب الإنسان الحق لا لذاته، بل ليخدم به صورته أمام الناس، أو ليشعر بالتفوق على غيره، أو ليكسب منزلة أو جاها. وهذا الحق المطلوب لغيره لا يثبت، لأنه قائم على دافع زائف. فإذا تغيرت المصلحة، تخلى عنه صاحبه. ولهذا كانت تنقية الدافع أول الصيانة: أن يطلب الإنسان الحق لأنه حق، لا لأنه نافع.

وثانيها ضبط الاستمرارية. فالحق لا يستقر في الكيان بفعل واحد، بل بالمداومة. والذكر، والعبادة، والمحاسبة، كلها وسائل تبقي الحق حاضرا حتى لا ينطفئ. ومن ظن أنه بلغ الحق مرة فاستغنى عن المداومة، فقد عرض اتحاده للانقلاب. لأن ما لا يتعهد بالرعاية يذبل، ولو كان في أصله راسخا.

وثالثها حماية البيئة الداخلية. فالإنسان لا يعيش في فراغ، بل في محيط يؤثر فيه دون أن يشعر. ما يراه، وما يسمعه، ومن يصاحبه، وما يألفه ـ كل ذلك يتسرب إلى داخله ويعيد تشكيله. ولأثر الصحبة في الكيان خاصة، ضرب النبي (صلى الله عليه وآله) مثلا بليغا، فقال ـ فيما رواه البخاري ومسلم:

«مَثَلُ الجَليسِ الصالحِ والجَليسِ السَّوءِ كَحامِلِ المِسكِ ونافِخِ الكِيرِ؛ فحامِلُ المِسكِ إمّا أن يُحذيَك، وإمّا أن تَبتاعَ منه، وإمّا أن تَجِدَ منه ريحًا طَيِّبَة، ونافِخُ الكِيرِ إمّا أن يُحرِقَ ثيابَك، وإمّا أن تَجِدَ منه ريحًا خَبيثَة»

تأمل في دقة المثل: مجالسة الصالح تنفعك ولو لم تقصد ـ بأدنى أحوالها تجد منه ريحا طيبة. ومجالسة السوء تضرك ولو لم تقصد ـ بأدنى أحوالها تجد منه ريحا خبيثة. فالبيئة لا تفرض عليك المعنى بالقوة، لكنها تسربه إليك بالمخالطة، حتى يصير جزءا منك دون قرار واع. ولهذا كان اختيار الصحبة، وتنقية ما يدخل القلب من صور ومعان، جزءا من صيانة الحق. فمن أحاط نفسه بما يناقض الحق، أوشك أن يفقده ولو كان حريصا عليه. وقد تكون الهجرة عن بيئة تفسد الكيان شرطا لبقاء الاتحاد، حين يعجز الإنسان عن تحصين نفسه وسطها.

ومن أهمل هذه الصيانة بطبقاتها، تعرض لأخطر ما يصيب صاحب الحق: أن ينقلب اتحاده، فيفقد ما بلغ ـ كما انسلخ بلعم من آياته. وهنا ينزل الطبع والختم الذي رأيناه في القسم السابق ـ لا كعقوبة مفاجئة، بل كنتيجة طبيعية لإهمال الرعاية، حتى يجف النبت الذي كان أخضر. ولهذا كان السقوط بعد المعرفة أخطر من السقوط قبلها؛ لأن الذي لم يعرف قد يعذر بجهله، أما الذي عرف وذاق ثم تخلى، فقد أدار ظهره لما تبين له.

ولأن العبرة بما يستقر في الكيان آخرا، لا بما يمر به حينا، كان مدار الأمر على الخاتمة. قال النبي (صلى الله عليه وآله) ـ فيما رواه البخاري ـ: «إنّما الأَعمالُ بالخَواتيم». فالعمل لا يحكم له بالقبول حتى يختم بخير، لأن الكيان قد ينقلب قبل النهاية. وهذا يؤكد أن صيانة الاتحاد ليست ترفا، بل هي التي تحفظ ما بلغه الإنسان حتى يلقى ربه وهو عليه.

لكن هذا القانون نفسه ـ كما يعمل ضد من أهمل ـ يعمل لصالح من أقبل. فكما ينسلخ صاحب المعرفة منها إن أهملها، يتحد صاحب الغفلة بالحق إن لامس قلبه. يروى أن بشرا الحافي كان في لهو ومعصية، فمر ببابه الإمام موسى الكاظم (عليه السلام)، فسأل جارية خرجت: «أصاحبُ هذا البَيت حُرٌّ أَم عَبد؟» قالت: بل حر. قال: «صَدَقتِ، لو كان عَبدًا لخاف سَيِّده». فلما بلغت بشرا الكلمة، هزته في أعماقه، فخرج حافيا تائبا، حتى صار من أعلام الزهد. كلمة واحدة نفذت إلى كيانه ففعلت ما لم تفعله سنون. لأن الكيان يبقى ـ ما دامت الحياة ـ قابلا للتحول في الاتجاهين: قابلا للانسلاخ إن أهمل، وقابلا للاتحاد إن لامسه الحق فصدق معه.

فإذا صين الاتحاد بهذه التزكية، استقر ورسخ، حتى يصير الحق هوية لا تنفك عن صاحبها. وعند هذا الحد، يتبدل وضع الإنسان من الحق تبدلا جوهريا. لم يعد يجاهد نفسه ليفعل

الحق، بل صار يفعله بطبعه. ولم يعد الانحراف عنده ممنوعا يكبحه بإرادته، بل صار غريبا عن كيانه ينفر منه بطبيعته. كالجسد السليم الذي لا يحتاج أن يقرر أن يكون متوازنا، بل يتوازن من تلقاء صحته، ويلفظ ما يضره دون أمر واع. هكذا يصير صاحب الحق: يصدر عنه الصدق والعدل والرحمة لا تكلفا، بل لأنها صارت طبيعته.

وهذا هو معنى التخلق بأخلاق الله. ليس تقليدا ظاهريا لصفات يحاكيها الإنسان، بل اكتساب وجودي لها بالمعايشة الطويلة، حتى تصير صفاته هو. فمن عاش الرحمة حتى اتحد بها، صار رحيما في كيانه، لا متكلفا للرحمة. ومن عاش العدل حتى رسخ فيه، صار عادلا بطبعه، لا مجاهدا نفسه على العدل. وهكذا تنتقل أخلاق الله إلى العبد، لا بالمحاكاة، بل بالاتحاد.

فإذا بلغ الإنسان هذا المقام ـ أن يصير الحق كيانه ـ فماذا يكون قد تحقق فيه؟ وما الذي يتبدل في علاقته بالله وبالعالم؟ ذلك ما تفتحه خاتمة هذا الفصل.

* * *

خاتمة الفصل

من المعرفة إلى الكينونة

قطعنا في هـذا الفصـل رحلـة طويلـة. بـدأنا من الحركـة بوصفها قـانون الوجـود، ثم رأينـا أن اتجاهها هـو الفاصـل لا كميتهـا، ثم كيـف لا تسـتنزف الإنسـان، ثم كيـف تتحـول المعرفـة بهـا إلى كيـان، وأخـيرا كيـف يصـان هـذا الكيـان بالتزكية. والآن، وقـد بلغنـا الغايـة، ينبغي أن نقـف لـنرى مـا الذي تحقق فعلا حين يصير الحق كيان الإنسان.

إن ما يحدث ليس إضافة معرفية جديـدة، بـل تحـول في نمط الوجود نفسه. الفـرق بين من يعـرف الحـق ومن صـار الحق كيانه، ليس فرقا في مقدار العلم، بل فرق في طبيعـة الكينونـة. الأول يحمـل الحـق، والثـاني يحملـه الحـق. الأول يملك معرفة، والثاني صارت المعرفة تملكـه. ولهـذا لم يعـد السؤال عند من بلغ هذا المقام: «هـل أعـرف الحـق؟»، بـل صار سؤالا أعمق: «هل أسـتطيع أن أعيش خارجـه؟». ومن بلغ هذا الحد، عرف أن ما اتحـد بكيانـه لا يغـادره إلا بتمـزق، كما لا يغادر الإنسان نفسه.

وهـذا التحـول هـو شـرط العبـور من رتبـة إلى رتبـة. فالإنسان الذي يحمل الحق معرفة، يظـل محتاجـا إلى رقيب من خارجـه يضـبطه ـ قـانون يخشـاه، أو سـلطة تراقبـه، أو عقوبة يتقيها. أما الذي صار الحق كيانـه، فقـد صـار ضـابطه

في داخلـه، لأن الحـق نفسـه جـزء من توازنـه. الأول يصـلح بالأوامر، والثاني يكفيـه أن يعـرف الوجهـة. الأول يحتـاج إلى من يأمره، والثاني يكفيه أن يـرى الحـق ليتجـه إليـه بطبعـه. وأكمل من جسد هذا المقام ـ بعـد رسـول اللـه (صـلى اللـه عليه وآله) ـ الإمام علي (عليه السلام)، الذي قال فيه النـبي (صلى الله عليه وآله): «علي مـع الحَـقّ والحَـقّ مـع علي» ـ رواه الحاكم في المستدرك وصححه، وأخرجـه أبـو يعلى في مسـنده. فلم يكن علي يتبـع الحـق اتبـاع من يطلبـه من خارجه، بل صار الحق يدور معه حيث دار، لأنـه اتحـد بكيانـه حـتى لم يعـد بينـه وبينـه فاصـل. وهـذا هـو غايـة مـا يبلغـه الإنسـان: أن يصـير الحـق فيـه طبعـا لا تكلفـا، فيصـدر عنـه الصواب من غير تكلف.

فإذا بلغ الإنسان هذا المقام، تبدلت علاقته بكل ما حوله. لم يعد ينظر إلى أوامر الله ونواهيه كقيـود تفـرض عليـه من خـارج، بـل كتعبـير عن حقيقتـه الـتي صـارها. ولم يعـد يـرى التكليف عبئا، بل امتدادا لما هو عليه. عنـدها يتحـول كـل مـا كان يبدو لغيره ثقلا إلى ما يشبه التنفس: لا يكلفه، لأنه صار طبيعته.

وهنا تغلـق الـدائرة الـتي فتحناهـا في أول الكتـاب. قلنـا حينها إنك في رحم ثان، تصنع فيه أعضاء روحك كما صـنعت أعضاء جسدك في الرحم الأول، وإن مهمتك أن تتكون حـتى تخرج بذات خالدة. والآن نعرف ما هذه الـذات في اكتمالهـا:

إنها الذات التي صار الحق كيانها. فالأعضاء الروحية التي تحدثنا عن نموها ـ الصدق، والصبر، والعدل، والرحمة ـ لا تكتمل بأن تعرفها، ولا بأن تمارسها حينا، بل بأن تتحد بها حتى تصير طبعك. ذلك هو الجنين حين يكتمل، والمسافر حين يبلغ، والكادح حين يلقى ربه بنفس قد صارت حقا خالصا.

غير أن هذا المقام ـ على علوه ـ لا يبلغه الإنسان بقوته وحدها. فقد رأينا منذ الفصل السادس أن الإرادة نفسها التي يتجه بها العبد إلى الله هي عطاء منه، وأن السائر إليه إنما يسير بعونه. وهنا ينفتح أفق جديد لم نكن قد طرقناه بعد: إذا كان الإنسان لا يبلغ كماله بقوته المجردة، فمن أين يأتيه المدد الذي يحمله؟ كيف يعين الله عبده على هذا الطريق؟

لقد دارت كل الفصول السابقة حول ما يصنعه الإنسان بنفسه: أبعاده، وإرادته، وصدقه، وحركته، واتحاده بالحق. لكن الإنسان لا يصنع نفسه في عزلة عن ربه. ثمة مدد إلهي يحيط بهذا كله، يفتح للوحي أن يكون نورا يفهم، وللشريعة أن تكون نظاما يصون، ولمعية الله أن تكون أثرا يحس. وذلك ما يفتحه الفصل القادم ـ المدد الإلهي: كيف يمد الله عبده الساعي إليه، فيتحول كدحه من جهد فردي معزول، إلى سير تحفه عناية من خلقه ليلقاه.

* * *

وقفة تأمل

قبـل أن تطـوي هـذا الفصـل، استحضـر معرفـة واحـدة تملكها عن نفسك أو عن ربك، تعرف أنهـا حـق، لكنهـا ظلت معلومة في رأسك ولم تصر بعد وصفا في كيانك. ثم اسـأل: ما الخطوة الصغيرة المتكررة التي لـو واظبت عليهـا لبـدأت هـذه المعرفـة تـنزل من لسـانك إلى قلبـك، ومن قلبـك إلى عملك، حتى تصير يوما طبعا لا تتكلفـه؟ فـالجوهر لا يتحـرك بالتمني، بل بالفعل الذي يكرر حتى يستقر.

الفصل الثامن — المدد الإلهي

✦

تمهيد

أن تسعى، ثم تحمل

ختمنا الفصل السابق عند عتبة دقيقة. رأينا الإنسان وقد بلغ أن يصير الحق كيانه، فلا يفعل الخير تكلفا، بل يصدر عنه طبعا. لكننا وقفنا عند سؤال لم نجب عنه: هذا المقام، على علوه، هل يبلغه الإنسان بقوته وحدها؟

كل ما مضى من هذا الكتاب دار حول ما يصنعه الإنسان بنفسه. عرفنا أصله الأخروي، وفريضة تزكيته، وأبعاده الأربعة، وقوانين الأضداد التي تصقله، وإرادته التي يختار بها، وصدقه الذي يوحده، وحركته التي تحول معرفته إلى كيان. رحلة كاملة، محورها الإنسان وهو يبني ذاته بيده.

غير أن في هذا التصوير نقصا، إن ترك وحده، انقلب وهما. لأنه يوحي بأن الإنسان جزيرة تصنع نفسها بنفسها، وأن بلوغه كماله ثمرة جهده المجرد. وهذا أخطر ما قد يصيب السالك: أن يظن أن سيره إلى الله إنما هو بحوله وقوته، فيدخله العجب من حيث أراد القرب.

والحقيقة أن الإنسان لا يصنع نفسه في عزلة عن ربه. بل إن الإرادة التي يختار بها عطاء من الله، والوجهة التي يقصدها هداية منه، والقوة التي يسعى بها مدد متصل. فما من خطوة يخطوها العبد نحو الله إلا والله هو الذي أقدره عليها. ولو وكل الإنسان إلى نفسه طرفة عين، لتوقفت حركته، وانطفأ سعيه.

وفي هذا المعنى يفتتح المؤمن كل صلاة بقوله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعبُدُ وإِيَّاكَ نَستَعين﴾ [الفاتحة: ٥]

تأمل في الجمع بين الشطرين، وفي تقديم العبادة على الاستعانة. «إياك نعبد» إقرار بالسعي: العبادة جهد يبذله العبد بإرادته. و«إياك نستعين» إقرار بأن هذا الجهد نفسه لا يتم إلا بعون من الله. وقد نبه المفسرون إلى أن تقديم العبادة على الاستعانة ليس عبثا، بل لأن العبد محتاج في عبادته كلها إلى عون الله؛ فإن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر وترك النواهي. فالعبد يبذل وسعه أولا، ثم يطلب المدد فيما وراء وسعه، فلا هو متكل يترك السعي، ولا هو مغرور يستغني عن العون. وهذا هو سر الطريق كله: أن تسعى كأن كل شيء بيدك، وأن تثق كأن كل شيء بيد الله.

وهذا المدد يأتي العبد من جهتين. جهة من خارجه: خريطة تهديه، ونظام يصونه، ونور يسبق خطوته ـ وهو

المدد التشـريعي، الـذي أودعـه اللـه في الـوحي والشـريعة. وجهة من داخل الواقع نفسه: معية تصحبه، وتوفيق يسـدده، وتيسير يخفف عنه، وعناية تدبر أمـره من حيث لا يحتسـب ـ وهـو المـدد التكويـني، الـذي يعمـل في الأقـدار والفـرص واللحظات.

المـدد الأول يقـول للإنسـان: هـذا هـو الطريـق. والثـاني يقول له: ولن تمشيه وحدك. الأول يضـيء الوجهـة، والثـاني يحمل الخطى. وكلاهما من مصدر واحـد: من خلـق الإنسـان وعلم أنه أضعف من أن يبلغ غايته بمجرد قوته.

وفي هذا الفصل ـ ختام رحلتنـا في تكـوين الـذات ـ نفتح هذين الوجهين. نبدأ بالمـدد التشـريعي: كيـف يكـون الـوحي خريطـة تقي من التيـه، والشـريعة نظـام صـيانة يحفـظ من الانهيار. ثم ننتقل إلى المدد التكويني: كيف تصير معيـة اللـه أثـرا يحس في الطريـق، يحمـل العبـد حين تنفـد أسـباب الأرض. فإذا اجتمع للإنسان سعيه ومدد ربه، عرف معـنى أن يمشي بقدميه، ولا يمشي وحده.

القسم الأول

المدد التشريعي: الخريطة والصيانة

حين يتأمـل الإنسـان طريقـه في الحيـاة، يكتشـف أن مشكلته الكبرى ليسـت في قلـة الخيـارات، بـل في كثرتهـا. كثرة الطرق التي يمكن أن يسـلكها، وكـثرة الأصـوات الـتي

تناديه، وكثرة الرغبات التي تجذبه في كل اتجاه. وهو ـ وحده بين المخلوقات ـ كائن يستطيع أن يختـار، وأن ينحـرف، وأن يتقدم، وأن يتراجع، كما رأينا في الفصل السابق. ولهذا فـإن أعظم ما يحتاجـه في رحلتـه ليس مزيـدا من القـوة، ولا من الـذكاء، ولا من التجربـة، بـل خريطـة تخـبره: من أين يبـدأ، وإلى أين يذهب، وكيف يسير، ومـا الـذي ينبغي أن يبنيـه في داخله قبل أن يبحث عنه في خارجه.

والإنسان بلا هذه الخريطة كمن يمشي في غابـة ملتفـة: يـرى طرقـا كثـيرة ولا يعـرف أيهـا يوصـل، ويسـمع أصـواتا متداخلة ولا يدري أيها الحق، فتتجاذبه أهـواؤه، ويطغى عليـه خوفه، ويستحيل داخلـه إلى تنـازع بين رغبـات متضـادة. أمـا حين يضع الوحي أمامه، فلا يختفي ضجيج العـالم من حولـه، لكن يهدأ ضجيج الـداخل. لأن الـوحي لا يخـبره «مـا يفعـل» فحسب، بل يخبره «لماذا يفعـل». وهـذا هـو الفـرق بين من يعيش في فوضى، ومن يعيش في معنى.

وهذه الخريطة هي الوحي. فالقرآن والسنة ليسا نصوصا جامدة وضعت لتقييد حريتـه، بـل همـا ـ في عمقهمـا ـ دليـل من خلقـه. الـدليل الـذي وضـعه العـالم بطبيعتـه، وبضـعفه، وبمواطن انكساره، وبقدرات فيه قد لا يعرفها هو عن نفسه. ومن أعلم بالمصنوع من صانعه؟

﴿أَلا يَعلَمُ مَن خَلَقَ وهو اللَّطيفُ الخَبيرُ﴾ [الملك: ١٤]

الحجة هنا عقلية قبل أن تكون نقلية. فإذا كان الصانع المحدود خبيرا بما صنع، عالما بدقائقه، فكيف يخفى على الخالق شأن من خلقه؟ «ألا يعلم من خلق» ـ أي كيف يخفى عليه خلقه الذي أوجده؟ والإنسان الذي يمشي في الحياة بعينه المحدودة، يملك ـ لو شاء ـ خريطة ممن يحيط بما لا تبلغه عينه. والمدد التشريعي ليس قوة خارقة تلقى عليه، بل نور يسبق الخطوة، يميز له المتشابهات، ويكشف الضباب عن موضع قدمه.

ولأن الخالق أعلم بصنعته، فقد علم أن الإنسان إذا ترك لنفسه بلا نظام يحكمه، انحدر بها لا إلى الراحة، بل إلى تعذيب ذاته. وهذه حقيقة يكشفها تأمل النفس البشرية: أن الذهن، إذا خلي وشأنه، مال إلى السلبية والاجترار. فالكثير من حركتنا الداخلية لا يصدر عن وعي مقصود، بل عن أنماط راسخة تعمل في الخفاء. وتقدر بعض الدراسات النفسية أن الجانب الأكبر من أفكارنا اليومية ينزع إلى السلبية، وأن أكثرها مكرر يعيد نفسه يوما بعد يوم ـ كأن النفس، حين تترك بلا توجيه، تدور في حلقة مغلقة من القلق والمخاوف.

وأثر هذا الإهمال لا يبقى في الباطن، بل يطفو على السطح في صورة اضطراب متزايد. فقد كشفت منظمة الصحة العالمية في تقاريرها الصادرة سنة ٢٠٢٥ أن ما يزيد على مليار إنسان حول العالم يعيشون باضطراب نفسي،

وأن القلـق والاكتئـاب أكثرهـا شـيوعا، حـتى صـارت هـذه الاضـطرابات ثـاني أكـبر أسـباب الإعاقـة طويلـة الأمـد بين البشـر.[18] والمفارقـة أن هـذا يتفـاقم مـع وفـرة في أسـباب الراحـة الماديـة لم تعرفهـا الأجيـال السـابقة؛ فكلمـا ازداد العالم تقدما في أسـباب الرفاهيـة، ازداد اتسـاع الفـراغ في الداخل. فالرفاهية المادية لم تغلـق الفجـوة في النفس، بـل كشفتها وعمقتها.

ومن هنا تتبين حكمة الشريعة في صورة أدق. فقـد رأينـا في فصـل «الفريضـة المغيبـة» أن تزكيـة النفس فريضـة الإنسـان الأولى، وأن النفس إمـا أن تـزكى فتفلح، وإمـا أن تـترك فتدسـى وتخبـو. والشـريعة هي الإطـار العملي الـذي تتحقق به تلـك التزكيـة: ليسـت قيـدا يكبح بـه الإنسـان، بـل برنامج يعيد تشكيله، كما يعيد المـدرب الخبـير بنـاء من يتبـع إرشاده. فإذا كان للجسد إرشادات إن أهملها اعتل، فللـروح والنفس برنامج إن أهمله الإنسان انحدر ـ وهو الشريعة.

ولأن الإنسان بنيـة دقيقـة مركبـة ـ بأبعـاده الأربعـة الـتي فصلناها ـ فإن الوحي لم يكتف بأن يكون خريطة تهـدي، بـل جاء نظام صيانة يحفظ. فكما أن لكل آلة دقيقة دليل صـيانة من صانعها، يبين كيـف تحفـظ من العطب، فالشـريعة دليـل صيانة الإنسان من خالقه. تحفظ القلب من القسوة، والعقل

[18] منظمـة الصـحة العالميـة (WHO)، تقريـرا «World Mental Health Today» و«Mental Health Atlas 2024»، الصادران في ٢ سبتمبر ٢٠٢٥.

من الانحـراف، والنفس من الجشـع، والجسـد من الإفـراط. ليست أوامرها أحمالا تثقله، بل عمليات ضـبط تبقيـه صـالحا للسير.

فالصلاة صيانة يومية للقلب، تعيد ضبطه قبل أن ينحرف انحرافـا بطيئـا لا يشـعر بـه. قـال تعـالى: ﴿**أَقِمِ الصَّـلاةَ لِذِكري**﴾ [طه: ١٤] ـ فالذكر ليس تكرارا لفظيـا، بـل إعـادة ضبط للوجهة كلما مالت. والصوم صـيانة من غلبـة الشـهوة، والزكاة صيانة من جشـع النفس. وكـل تكليـف في الشـريعة يحمي بعدا من أن يطغى على سواه، فتختل الذات.

ثم إن أخطر ما يتيه فيه الإنسان ليس جسده، بل عقلـه. لأن العقل يـرى بعين محـدودة عالمـا واسـعا، فيفسـر بـأداة نسبية حقائق مطلقة، ويغمره سـيل من الأفكـار المتناقضـة. وهنا يضع الوحي للعقـل ميزانـا يمنعـه أن يسـوي بين الحـق والباطل، وأن ينزلق إلى نسبية تبتلع كل شيء. قال تعالى:

﴿فماذا بَعدَ الحَقِّ إلا الضَّلال﴾ [يونس: ٣٢]

والضـلال في أصـل اللغـة ـ كمـا يـذكر المفسـرون ـ هـو الذهاب عن الطريـق، والعـدول عن سـمته. فالآيـة تقـرر أن الحق والضلال نقيضان لا يجتمعان؛ فمتى ثبت أن هـذا حـق، لزم أن مـا خالفـه ضـلال. ومن غـير هـذا المـيزان، تتسـاوى الطرق في عين التائه، ولو كانت متناقضة، فيحسب الباطـل

رأيا في مقابل رأي. والشريعة لا تصادر العقل، بل تحميه من أن ينقلب من أداة فهم إلى أداة تبرير لكل ما يهواه صاحبه.

وأخطر انحراف يقع فيه العقل أن يتخذ الإنسان هواه إلها، فيجعل رغبته هي الميزان الذي يزن به كل شيء:

﴿أَفرَأَيتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَه هَواه﴾ [الجاثية: ٢٣]

وهذا الاستبدال خفي، لأنه لا يعلن. لا يقول صاحبه: «جعلت هواي ربا»، لكنه عمليا يحكم رغبته فيما يأخذ ويدع، فيصير عبدا لتقلباته من حيث يحسب أنه حر. والشريعة تكسر هذا الاستبدال، فتعيد مركز الوجود إلى الله الواحد، فلا يبقى الإنسان أسيرا لرغبة متبدلة.

وكما تحفظ الشريعة الإنسان من التيه عن ربه ونفسه، تحفظه من التيه عن الكون. فالكون بلا وحي يقرأ قراءة مادية باردة، أو قراءة منحرفة. والوحي يعيد تعريفه: مجال سنن لا ساحة صدفة، ورسالة حكمة لا لعبة عبث ـ كما رأينا في فصلي سنن الوجود وسنن الاحتكاك، حين فهمنا الابتلاء تصميما لا عقوبة. فمن فهم السنن لم يعد يرى الألم عدوا، بل رسالة؛ ولا التغير فوضى، بل حركة ذات معنى.

بهذا تنكشف حقيقة في الشريعة كثيرا ما تقلب: أنها ليست عدسة تضيق الرؤية، بل العدسة التي تكشف

الحقيقة. فبدونها لا يـرى الإنسـان العـالم كمـا هـو، بـل كمـا تمليه عليه أهواؤه ومخاوفه. قال تعالى: ﴿**قُل هذه سَبيلي أَدعو إلى الله على بَصـيرَة**﴾ [يوسـف: ١٠٨]. والبصـيرة هنا ليست معرفة ذهنية، بل وضـوح وجـودي يجعـل الإنسـان يرى الله، ويرى نفسه، ويرى الطريق، في آن واحد.

فـإذا فهم الإنسـان الشـريعة على هـذا الوجـه، تبـدلت علاقته بها جذريا. لم يعد يراها قانون ضبط يراقبه، بـل دليـل عودة يهديه. وكثير ممن عاش بعيدا عن الوحي يشـعر ـ وإن ملك كل أسباب الراحـة ـ بفـراغ لا تملـؤه المتـع، ولا تسـكته الإنجازات، ولا تهدئه العلاقـات. كـأن الـروح تبحث عن نغمـة تعرفها، لكنها لم تعد تميز مصدرها. فحين يعـود إلى الـوحي، لا يعود إلى نصوص فحسب، بل يعود إلى صوت يطمئن قبل أن يـأمر، ويهـدي قبـل أن يضـغط، ويفتح قبـل أن يحاسـب. عندها يمشـي في «سـبل السـلام» الـتي وعـد اللـه بهـا من صدق في طلب رضاه:

﴿يَهدي به اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضوانَه سُبُلَ السَّلام﴾ [المائدة: ١٦]

و«سـبل السـلام» ـ كمـا يفسـرها أهـل العلم ـ طـرق السلامة الموصلة إلى دار السلام. وقيل: «السلام» هـو اللـه نفسه، فسبله دينـه الـذي شـرعه. ولاحـظ أن السـلام الـذي يمنحه الوحي ليس غياب الألم، بل غياب التيه. فالطريق إلى

الله ليس خاليا من الألم، لكنه خال من الضياع. قد يحزن السائر فيه، لكنه لا ينهار. وقد يتعثر، لكنه يعرف كيف يعود. وقد يتألم، لكنه يفهم لماذا.

وهذه هي الحقيقة التي يغفل عنها كثيرون: أن الحيرة أشد على الإنسان من الألم. فالإنسان يحتمل الألم إذا عرف معناه، لكنه لا يحتمل أن يتألم بلا معنى. والوحي يمنح المعنى حتى في أقسى اللحظات، فيحول الألم من جرح بلا غاية إلى عتبة تفهم لماذا تعبرها:

﴿فمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فلا يَضِلُّ ولا يَشقى﴾ [طه: ١٢٣]

تأمل في الجمع بين النفيين: «فلا يضل» في الطريق، «ولا يشقى» في القلب. فمن اتبع الهدى أمن من ضلال الوجهة، وأمن من شقاء المعنى، ولو مشى فوق الجراح.

وهنا يمنح الوحي الإنسان بوصلة مزدوجة. بوصلة خارجية هي النص ـ القرآن والسنة ـ وبوصلة داخلية هي نور يشعله الله في القلب حين يصدق الإنسان هذا النص ويعيش به. قال تعالى:

﴿اللهُ نورُ السَّماواتِ والأَرض﴾ [النور: ٣٥]

ثم قال في السياق نفسه:

﴿يَهدي اللهُ لنوره مَن يَشاء﴾ [النور: ٣٥]

وقد فسر المفسرون «مثل نـوره» بأنـه صـفته في قلب المؤمن، وأن «يهدي الله لنوره» هو نـور البصـيرة. فـالقرآن نور من الله، فإذا التقى بنور القلب الذي صدقه، صـار «نـور على نـور»؛ ورأى الإنسـان الطريـق بعين روحـه كمـا يـراه بعقله. وهنا تكتمل صورة المـدد التشـريعي: خريطـة تحفـظ الاتجاه، ونظام صيانة يمنع الانهيار، ونور يسـبق الخطـوة، ثم نور ثان يولد في القلب فيصدق الأول.

لكن الخريطـة ـ مهمـا دقت، ومهمـا أضـيء نورهـا في القلب ـ لا تمشي بالإنسان. إنها تريه الطريق، لكنها لا تحمل قدميه فيه. وحين يصدق الإنسان في السير عليهـا، يكتشـف مددا آخر، أعمق وألطـف: مـددا لا يعمـل في النصـوص، بـل في الواقع نفسه ـ في الأقدار، والفرص، واللحظـات الـتي لا يملك تفسيرها بعقله وحده. ذلك هـو المـدد التكويـني، الـذي يفتحه القسم القادم.

القسم الثاني

المدد التكويني: المعية

رأينا أن المدد التشريعي خريطة تريك الطريـق، لكنهـا لا تمشي بك. وهنا يأتي المدد الآخر، الأعمـق والأخفى: مـدد لا يأتي عبر الكلمات كما في الوحي، ولا عبر القوانين كمـا في الشـريعة، بـل يـأتي عـبر الوجـود نفسـه. مـدد يعمـل خلـف

المشهد، في اللحظة التي يضعف فيها الإنسان، وتضيق فيها الأسباب، ويعجز فيها العقل عن الإحاطة بما يجري. إنه ليس فكرة تشرح، بل حقيقة تحس؛ عون يرافقك حين لا يفهمك أحد، ويفتح لك حين تغلق الأبواب.

وأعظم صور هذا المدد هي المعية: أن يكون الله معك. وليست معية مكانية ـ فالله منزه عن المكان ـ بل قرب بالرعاية، والهداية، والعلم، والستر، والتيسير، واللطف. معية لا ترى بالعين، لكن آثارها تظهر في الواقع، كأن يدا خفية أمسكت بخيوط حياتك ورتبتها على نحو ما كنت لتقدر عليه لو اجتمعت لك قوى الأرض كلها.

وهذه المعية على درجتين. معية عامة تشمل الخلق كلهم، وهي معية العلم والإحاطة: لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه منك خافية. قال تعالى: ﴿**وهو مَعَكُم أَينَ ما كُنتُم**﴾ [الحديد: ٤]. ومعية خاصة لا ينالها كل أحد، بل من صفى قلبه واستقام على الطريق وصدق في طلب الله:

﴿إنّ اللهَ مع الذينَ اتَّقَوا والذينَ هم مُحسِنون﴾ [النحل: ١٢٨]

فهذه المعية ليست مراقبة فحسب، بل مساندة؛ وليست علما فحسب، بل عناية؛ وليست إحاطة مجردة، بل فتح ونصرة ولطف يجري في وقته. وهي ليست شعورا عابرا يمر في لحظة خشوع ثم يختفي، بل حال يستقر في القلب

حين يتخفف الإنسان من الاعتماد على نفسه، ويثق بالله دون شرط. عندها يشعر أن خطواته ليست وحدها، وأن ما يجري في حياته ـ مهما بدا مبعثرا ـ يصطف على نحو خفي يصب في مصلحته، وإن لم يخطط له. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**وهو يَتَوَلّى الصالحين**﴾ [الأعراف: ١٩٦] ـ فالتولي هنا ليس متابعة من بعيد، بل رعاية تقود، ولطف يدبر، وستر يحمي.

وهذه الولاية ليست موعودة في الآخرة فحسب، بل حاضرة في الدنيا قبلها. قال تعالى على لسان الملائكة لأولياء الله: ﴿**نَحنُ أَولياؤُكم في الحَياةِ الدنيا وفي الآخِرَة**﴾ [فصلت: ٣١]. فالمعية تعمل هنا، في خضم الحياة، لا تنتظر يوما آخر. بل إن الله جعل نصر المؤمن أمرا أوجبه على نفسه، فقال: ﴿**وكان حَقًّا علَينا نَصرُ المؤمنين**﴾ [الروم: ٤٧] ـ وهي صياغة لافتة، إذ يجعل العلي القدير نصر عبده الضعيف «حقا عليه»، لا تفضلا عابرا يمن به، بل عهدا ألزم به ذاته.

ومن هذه المعية يتشكل وجه المدد التكويني كله. فإنه يأتي العبد على درجات متصاعدة: معية تصحبه، ثم توفيق يسدده، ثم تيسير يخفف عنه، ثم تسخير يرتب له، ثم ـ حين لا يبقى شيء ـ كفاية تحمله. ولنتأمل هذه الدرجات واحدة واحدة.

أما التوفيق، فهو أن تتحرك أنت، فيتدخل الله فيما لا تستطيع أنت تحريكه. أن تبذل السبب، فيتولى الله ما وراءه. أن تعمل بوسعك، فيكملك الله بما هو فوق وسعك. ولهذا قال شعيب (عليه السلام): ﴿**وما توفيقي إلا بالله**﴾ [هود: ٨٨] ـ فلم ينسب الأثر إلى حكمته ولا خبرته، بل إلى اليد التي تعمل معه في الخفاء. والتوفيق لا يأتي لأن الإنسان قوي أو ذكي أو محنك، بل لأنه صادق؛ فالصدق بابه، والإخلاص مفتاحه.

وأبلغ ما يصور هذه الحقيقة قوله تعالى لنبيه يوم بدر، حين رمى قبضة من تراب في وجوه المشركين: ﴿**وما رَمَيتَ إذ رَمَيتَ ولكنّ اللهَ رَمى**﴾ [الأنفال: ١٧]. تأمل دقة الجمع والنفي في آن: أثبت له الرمي «إذ رميت»، ثم نفاه عنه «وما رميت». والمفسرون على أن الرمي ـ في صورته ـ فعل النبي، فقد قبض وقذف؛ أما الأثر ـ بلوغ القبضة عيون جيش بأكمله ـ فمن الله وحده. فالعبد يبذل صورة الفعل، والله يحدث فيه الأثر الذي يعجز عنه البشر. وهذا هو التوفيق في أصفى معانيه: حركة منك، وثمرة منه.

ومن علامات التوفيق أن يصير القرار الصعب أسهل، وأن يتضح الطريق بعد طول غموض، وأن تتجمع الأشياء المتفرقة في انسجام واحد، كأن الوجود يعيد ترتيب نفسه حول نية صادقة. ولا يظهر التوفيق في الفتح وحده، بل في المنع أحيانا: المنع الذي يحميك من خطوة غير محسوبة، أو

فرصة ظاهرها خير وباطنها ضر. فليس كل باب يفتح رحمة، ولا كل باب يغلق حرمانا. ولهذا قال تعالى: ﴿**وعَسى أن تَكرَهوا شَيئًا وهو خَيرٌ لكُم**﴾ [البقرة: ٢١٦] ـ فالخير لا يقاس بصورة الحدث، بل باتجاهه وحكمته.

وأما التيسير، فإن كان التوفيق أن يعمل الله معك، فالتيسير أن يعمل الله من حولك. أن تتحرك، ثم تتخفف عنك أثقال الطريق دون أن تعرف كيف. والتيسير ليس اختفاء الصعوبات، بل تغير علاقتك بها: لا يزيل الجبل من أمامك، لكنه يريك الممر بينه؛ ولا يمنع الألم، لكنه يمنعك أن تنهار تحته. ولهذا جاء الوعد القرآني بصياغة دقيقة:

﴿فسَنُيَسِّرُه لليُسرى﴾ [الليل: ٧]

تأمل: لم يقل «سنعطيه اليسر»، بل «نيسره لليسرى». والفرق جوهري: ليس الوعد بأن يصب عليه يسر من خارجه، بل بأن يعاد تشكيله هو ـ داخلا وخارجا ـ حتى يصير اليسر ممكنا في حقه، وتصير الخطوة التالية أخف مما كانت. فالتيسير استجابة تجري وفق سنة: حين يصفو الداخل، يصفو المسار؛ وحين يهدأ القلب، يلين الواقع. لأن القلب المضطرب يرى كل شيء عقبة، والقلب الحاضر يرى في العقبة رسالة.

وأما تسخير الأسباب ورفع الموانع، فهو أدق وجوه المدد. وأكثر ما يدهش الإنسان في رحلته ليس ما يصنعه

بجهده، بل ما يصنع لـه دون أن يفهم كيـف: فرصـة لم يسـع إليها فتأتيه، وخطر لم يره فيصرف عنه، وباب كان يتعلق بـه فيغلق، وبـاب لم يخطـر لـه فيفتح. والتسـخير ليس أن تلغى القوانين، بل أن ترتب لصالحك؛ ليس أن يدور الكون حولك، بل أن يوضع كل شيء في موضعه الصحيح بالنسبة لك. قال تعـالى: ﴿**وسَـخَّرَ لكُم مـا في السَّـماواتِ ومـا في الأَرضِ جَميعًا منه**﴾ [الجاثية: ١٣].

ومن لطائف هذا التسخير أن اللـه كثـيرا مـا يجريـه عـبر الأسباب العادية، لا عبر المعجـزات الصـاخبة. فالقـدر الإلهي يعمل في نسيج الحياة اليومية ـ في لقاء عابر، وقرار صغير، وباب يغلق أو يفتح ـ لا في خوارق تكسر السنن. وأوضـح مـا يصور هذا قصة موسى مع العبد الصالح في سـورة الكهـف. فحين أراد الله أن يحفظ سفينة مساكين من ملك يأخـذ كـل سفينة غصبا، لم يكن الحفظ بمعجزة تخفي السفينة، بل بأن خرقها العبد الصالح فبدت معيبة، فتركها الظـالم. وحين أراد أن يحفظ كنز غلامين يـتيمين تحت جـدار آيـل للسـقوط، لم يكن بأن يثبت الجدار من السماء، بل بأن أقامه العبد الصالح بيديه. تدبير كامل، يجري بأسباب أرضية ظاهرة، لكن وراءها عناية خفية. وكأن موسى (عليه السـلام) ـ صـاحب الشـريعة الظاهرة ـ يتعلم أن وراء الظاهر تـدبيرا لا يحيـط بـه، يجـري في الواقع نفسه. ولهذا، حتى حين أنزل اللـه الملائكـة مـددا يـوم بـدر، نبـه إلى أن السـبب الظـاهر ليس هـو الفاعـل الحقيقي: ﴿**ومـا جَعَلَـه اللـهُ إلا بُشـرى ولتَطمَئنّ بـه**

قُلوبُكم وما النَّصرُ إلا من عند الله﴾ [الأنفال: ١٠]. فالملائكة بشرى وطمأنينة، لا قوة مستقلة؛ والنصر في حقيقته من الله، وإن جرى عبر الأسباب.

ورفع الموانع وجه آخر للتسخير: فكما يقرب الله إليك ما تحتاج، يبعد عنك ما يؤذيك ولو حسبته خيرا. وغالبا لا يرى هذا اللطف إلا بعد حين، حتى إذا نظر الإنسان إلى الوراء، رأى كيف نجا مما لم يكن يراه خطرا، وكيف أعيد توجيهه دون أن يشعر. وعندها ينفتح له باب من الإدراك سماه القرآن هداية ثانية: ﴿**والذينَ اهتَدَوا زادَهم هُدًى**﴾ [محمد: ١٧]. فالهداية الأولى معرفة تتلقى، أما الثانية فنور يمنح لمن استقام ـ بوصلة داخلية تعمل حين تتعطل الخرائط، تجعلك تختار الباب الصحيح دون أن تحيط بكل ما وراءه. وهي عين «النور الثاني» الذي رأيناه في القسم الأول، حين يلتقي نور الوحي بنور القلب.

ثم تأتي الذروة: حين تنفد أسباب الأرض. فثمة لحظات لا يبقى للإنسان فيها شيء يستند إليه؛ تستنزف الأدوات، ويصمت العقل، وتخذل الحسابات. وفي تلك اللحظة لا يقع الانهيار الحقيقي، بل يقع التحول؛ لأن الإنسان عندها يتخلى ـ أخيرا ـ عن الوهم الأعمق: وهم الاكتفاء بالذات. ونفاد الأسباب ليس عقوبة، بل شرط انتقال: من الاعتماد على ما في اليد، إلى الاعتماد على من بيده كل شيء. قال تعالى: ﴿**إذ تَستَغيثونَ رَبَّكُم فاستَجابَ لكُم**﴾ [الأنفال: ٩] ـ

والاستغاثة هنا ليست دعاء باللسان فحسب، بل حال يبلغ فيها الإنسان نقطة الصدق القصوى: لم يبق عندي إلا أنت.

وقد تجسد هذا المعنى في أوضح صورة، يوم وقف موسى (عليه السلام) بقومه محاصرا بين جند فرعون والبحر. كانت كل أسباب الأرض منتهية: عدو مدجج خلفهم، وماء لا يعبر أمامهم، ولا مخرج في الحساب. عندها نطق الخوف في قلوب أتباعه:

﴿فلمّا تَراءى الجَمعانِ قال أَصحابُ موسى إنّا لَمُدرَكون﴾ [الشعراء: ٦١]

ولم تكن هذه عبارة يأس، بل توصيفا دقيقا لمنطق الأسباب حين يستنفد بالكامل ـ فقد رأوا، بحسب الظاهر، أن العدو مدركهم لا محالة. لكن موسى لم يجب من منطق الأسباب، بل من منطق المعية:

﴿قال كَلّا إنّ مَعيَ رَبّي سَيَهدين﴾ [الشعراء: ٦٢]

والمفسرون على أن معناها: سيدلني ربي على طريق النجاة. فموسى لم يكن يرى البحر فحسب، بل ما وراء البحر؛ ولم يكن واقفا في لحظة حصار، بل في لحظة انتقال. وفي تلك اللحظة بالذات ـ لا قبلها ولا بعدها، حين انتهت أسباب الأرض ولم يبق إلا المعية ـ جاء الأمر:

﴿**فأَوحَينـا إلى موسـى أَنِ اضـرِب بعَصـاكَ البَحـرَ**﴾ [الشـعراء: ٦٣]. فلم تخلـق معجـزة من فـراغ، بـل كشـف مسار كان موجودا ولم ير. البحر لم يلغ، بل انشـق. والواقـع لم يمح، بـل أعيـد ترتيبـه. والخطـر لم ينكـر، بـل تحـول إلى طريق.

وهكذا يعمل المدد التكويني: لا يأتي غالبا معجزة صاخبة، بل تغييرا في موضعك من الحـدث. لا يـزال البحـر، بـل يفتح فيه ممـر. ولا يلغى الخـوف دائمـا، بـل يسـقط سـلطانه. ولا تمحى الشـدة، بـل تمنح القـدرة على حملهـا. فهـو لا يغـير الوقائع أولا، بل يغير القلب الذي يواجهها، ثم تتبعـه الوقـائع. ولهذا قال تعالى: ﴿**إنّ رَبّي لَطيفٌ لما يَشـاء**﴾ [يوسـف: ١٠٠] ـ فاللطف ليس تغييرا دراميا، بل إزاحـة دقيقـة: حركـة صغيرة في الداخل تعيد تشكيل الخارج كله.

واللطـف في أصـله معـنى أوسـع من هـذا. فقـد عرفـه المتكلمون بأنه كل ما يقـرب العبـد إلى الطاعـة ويبعـده عن المعصـية، من غـير أن يبلـغ حـد الإلجـاء والإكـراه. فـاللطف يقرب ولا يقهر، يدعو ولا يجبر، يهيئ الأسباب ويبقي الاختيار. وبهذا المعنى يكون المدد كلـه ـ تشـريعيه وتكوينيـه ـ صـورة من صور اللطف: فالخريطة لطف، والمعية لطف، والتوفيق لطف، والتيسير لطـف، حـتى التسـخير الـذي يـرتب لـك مـا عجزت عنه. كلها أيـاد خفيـة تقربـك إلى اللـه دون أن تنـتزع منك حرية السير إليه.

وثمـرة هـذا اليقين طمأنينـة لا تـزول، لأن من أيقن أن المدد بيد الله، علم أن شيئا لن يصيبه إلا بإذنه. قـال تعـالى: ﴿**قُـل لن يُصـيبَنا إلا مـا كَتَبَ اللـهُ لنـا هـو مَولانـا**﴾ [التوبـة: ٥١]. فلا الأسـباب تجلب نفعـا لم يكتب، ولا فقـدها يدفع ضـرا قـدر. وحين يسـتقر هـذا في القلب، تسـقط عنـه أثقال كثيرة: قلق المستقبل، وخوف العجز، ووهم أن النجـاة بقوته وحدها.

وحين يختبر الإنسان هذا المدد، تتبدل علاقته بـالعجز. لم يعد يخشاه، بل يفهمه؛ لأن العجز لم يعد نهاية الطريـق، بـل بوابتـه الأصـدق: بوابـة الانتقـال من القـوة المحـدودة إلى المعيـة، ومن التخطيـط إلى التوكـل، ومن المكـابرة إلى التسليم الواعي. عندها يدرك الإنسان حقيقـة لم يكن يبلغهـا من قبل: أنه قد يمشي بقدميه، لكنـه لا يمشـي وحـده؛ وقـد يبذل جهده، لكنه لا ينجو بجهده وحده.

وهكذا تكتمل دائرة المدد التكويني: معية، ثم توفيـق، ثم تيسير، ثم تسخير، ثم رفـع موانـع، ثم ـ حين لا يبقى شـيء ـ كفاية:

﴿أَليسَ اللهُ بكافٍ عَبدَه﴾ [الزمر: ٣٦]

قال المفسرون: بلى، إن الله كاف عبده الذي قام بحـق العبودية وتوكـل عليـه؛ فمن ذا الـذي يخيفـه إذا كـان القـوي القاهر معه؟ فكل كبير مع الله صغير. وبهذا المعنى، لا تكون

نهاية الأسباب نهايـة الرحلـة، بـل بـدايتها الأعمـق. ولا يكـون العجز هزيمة، بل اصطفاء خفيا لمن صار مسـتعدا أن يحمـل النور دون وسائط.

خاتمة الفصل

لطف يهدي، ولطف يصحب

قطعنا في هذا الفصل وجهي المدد: مددا تشـريعيا يـأتي من خارج الإنسان ـ خريطـة تهديـه، ونظـام صـيانة يحفظـه، ونورا يسبق خطوته. ومددا تكوينيا يعمل في الواقـع نفسـه ـ معية تصحبه، وتوفيقا يسدده، وتيسيرا يخفف عنه، وتسـخيرا يرتب له، وكفاية تحمله حين تنفد الأسباب.

وقد يبدو الوجهان مختلفين: أحدهما نصوص تتلى، والآخر أقـدار تجـري. لكنهمـا في الحقيقـة ينبعـان من منبـع واحـد: لطـف اللـه بعبـده. فالمـدد التشـريعي لطـف يهـدي، يقـول للإنسان: هذا هو الطريق. والمـدد التكويـني لطـف يصـحب، يقول له: ولن تمشـيه وحـدك. وكلاهمـا ـ كمـا رأينـا ـ يقـرب دون أن يجبر، ويعين دون أن يقهـر. فـاللطف الواحـد يتجلى مرة في صورة كلمة تهدي، ومرة في صورة يد تحمل.

ولهذا كـان أعظم مـا يبلغـه العبـد في هـذا المقـام ليس القـوة، بـل إدراك أنـه محمـول. أن يعلم أن الخريطـة الـتي يهتدي بها عطاء، وأن المعيـة الـتي تصـحبه عطـاء، وأن كـل خطوة خطاها نحو الله إنما خطاها بعون الله. عنـدها يسـقط

عنه وهمان متقابلان: وهم الاستغناء، فلا يظن أنه يبلغ بقوته وحدها؛ ووهم العجز، فلا يظن أن المطلوب منه أن يبلغ وحده فيقعد. بين الوهمين يقف العبد المحمول: يسعى بكل ما أوتي، ويثق بأن وراء سعيه من يحمله.

وبهذا يكتمل جواب السؤال الذي فتحنا به الفصل: هل يبلغ الإنسان كماله بقوته وحدها؟ والجواب: لا. فلا الخريطة من صنعه، ولا المعية من كسبه، ولا حتى الإرادة التي يسعى بها محض اختياره المنقطع. إنه يسعى، نعم، لكنه في سعيه محمول. يمشي بقدميه، لكنه لا يمشي وحده. وذلك معنى أن يحملك من خلقك.

بل إن المدد يبلغ أعمق مما نظن: فحتى الإرادة التي تتجه بها إلى الله ـ كما رأينا في تمهيد هذا الفصل ـ ليست محض صنعك. قال تعالى: ﴿**وما تَشاؤونَ إلا أن يَشاءَ اللهُ**﴾ [الإنسان: ٣٠]. وليس معنى هذا إلغاء اختيارك ـ فاختيارك حقيقي، والفعل منسوب إليك حقا ـ بل معناه، كما يبين المفسرون، أن مشيئتك نفسها قائمة بمشيئة الله، لا منقطعة عنها. فأنت تختار، لكن قدرتك على الاختيار ذاتها عطاء منه. وهذا غاية ما يتواضع له العبد: أن يعلم أن سعيه عطاء، ووجهته عطاء، وحتى إرادته للسعي عطاء. فلا يبقى له ما يفخر به، إلا أن الله أكرمه بأن جعله أهلا لأن يمد.

* * *

وها قد بلغنا نهاية المسار. بدأنا من نداء الخلـود، وانتهينـا إلى عبـد يمشـي في الأرض محمـولا بعنايـة من خلقـه. وبين البدايــة والنهايــة، عبرنــا الفصــول كلهــا: الأصــل الأخــروي، والتزكية، والأبعاد الأربعة، وسنن الوجود والاحتكاك، وصـناعة الإرادة وحركة الجوهر، وأخيرا المـدد الـذي يحـف هـذا كلـه. ولم يبق إلا أن نرى كيف تجتمع هذه الخيوط في حال واحدة يعيشها الإنسان ـ لا فكرة يعرفها، بل وجودا يحيـاه. تلـك هي الحضرة، وذلك ما تفتحه خاتمة هذا الكتاب.

(((

وقفة تأمل

قبل أن تطوي هذا الفصل، استحضـر موضـعا واحـدا في حياتك استنفدت فيـه سـعيك حـتى بلغت آخـر مـا تملـك، ثم وقفت عاجزا كما وقف موسى والبحر أمامه والجمـع خلفـه. ثم اسأل نفسك بصدق: حين انفـرج مـا انفـرج، هـل نسـبت الفرج إلى حيلتك وحدها، أم رأيت اليد التي كانت تعمــل من حولك وأنت لا تراها؟ فمن أبصر أنه محمول، لم يعـد يخـاف لحظة نفاد الأسباب، لأنه يعلم أن وراءها من لا تنفد عنايته.

الخاتمة — العيش في الحضرة

✦

مدخل

حين يبلغ الإنسان نهاية هذه الرحلة، لا يصل إلى معرفة جديدة يضيفها إلى ما يعرف، ولا إلى مهارة يتقنها. يصل إلى حال. حال تجتمع فيها طبقات وعيه في نقطة واحدة، كما تجتمع خيوط الضوء في شعاع صاف لا ظل فيه. هذا الحال تسميه الروح: الحضرة.

والحضرة ليست مكانا، بل حضورا. ليست لحظة عابرة تمر في الصلاة ثم تنطفئ، بل طريقة وجود. ليست انسحابا من العالم إلى صومعة، بل دخولا إليه بعين أخرى. أن تعيش الدنيا وأنت تراها من نافذة الآخرة، وأن تمشي على الأرض وأنت تشعر بامتداد السماء في داخلك. فلا الدنيا تحجبك عن الله، ولا ذكر الله يقطعك عن الدنيا ـ بل يجتمع لك الأمران في وعي واحد.

القسم الأول

حين تجتمع الخيوط

وإذا عـدنا إلى المحـاور الـتي عبرناهـا في هـذا الكتـاب، أدركنا أنهـا لم تكن فصـولا متجـاورة يتلـو أحـدها الآخـر، بـل دوائر تلتقي عند مركز واحد: الإنسان في طريقه إلى الله.

بـدأنا من المقدمـة، حيث اسـتعدنا المقـام: أنـك خليفـة حملت أمانة أبتها الجبال. ثم جاء الأصل الأخروي ليعيد ضبط البوصلة، فبان أنك في رحم ثان، وأن الدنيا ممـر لا مـوطن. ثم كشـفت الفريضـة المغيبـة أن تزكيـة نفسـك فريضـتك الأولى، وأن الكدح إلى الله ليس وصفا لحالك، بـل تكليفـا لا تعفى منـه. ثم انكشـفت أبعـادك الأربعـة ـ الـروح، والقلب، والعقـل، والجسـد ـ وكيـف أن انسـجامها شـرط ارتقائـك، وتنافرها سبب سقوطك.

ثم ظهرت سنن الوجود: أن الأضداد والقدر ليست عبثـا، بل هندسة محكمة. ثم سنن الاحتكاك: أن ما يعيقك يكونـك ـ فالاحتكـاك الـذي تظنـه عـدوك هـو إزميـل نحتـك، والابتلاء تصميم لا عقوبة. ثم جاء مقام الاختيار، حيث صـناعة الإرادة: أن تختـار من تكـون بإرادتـك وصـدقك، فلا يبقى سـعيك عشوائيا، بل موجها. ثم حركة الجوهر: أن يصير الحق كيانك، فلا تفعل الخير تكلفا، بل يصدر عنك طبعا. وأخـيرا، انكشـف السر الذي لا تكتمل بدونه رحلة: المدد الإلهي ـ خريطـة من الـوحي، ورفقـة من السـماء، تحملـك حين تنفـد أسـبابك فيحملك من خلقك.

وعنـدما تجتمـع هـذه المحـاور في قلب واحـد، يتبـدل المنظور كلـه. لا تعـود الحيـاة سلسـلة أحـداث متنـاثرة، بـل حوارا مستمرا بين نيتـك وسـنن اللـه، بين سـعيك ومشـيئته، بين ما تريد ومـا يـراد لـك. تـرى أن مـا حسـبته ضـدك كـان يعيدك إلى نفسك. وأن الألم كان يفتح فيك طبقات ما كـانت لتفتح بغيره. وأن التأخير كان تهيئة. وأن القلوب التي جـاءت وذهبت كانت جزءا من النسج، لا من الفوضى. وتكتشـف أن ثباتك لم يأت من قوتك، بل من الصحبة الإلهية التي رافقتـك دون أن تراها.

هنا يصير العيش في الحضرة أسلوب حياة. أسلوب يرى المعنى خلف التفاصـيل، والرسـالة داخـل الحـدث، واللطـف في المنع كما في العطاء. تعيش وأنت موقن بأن الله معك ـ لا كشعار ترددده، بل كحقيقة وجودية ترافقك في كل خطوة. وتسمع أثر قوله تعالى:

﴿ونَحنُ أَقرَبُ إلَيهِ من حَبلِ الوَريد﴾ [ق: ١٦]

لا كآية تحفظ، بل كخبرة تعاش.

القسم الثاني

النفس المطمئنة: والدة الذات الخالدة

بعد هذه الرحلة، لا يعود الإنسان كما كـان. لا لأنـه عـرف أكثر، بل لأنه صار أوضح. رأى نفسه: نورهـا وظلهـا، ضـعفها وقوتها، خوفها ورغبتها. وكل من رأى نفسه بصدق، عاد إليها بسلام. وهذا السلام هو أول ملامح النفس المطمئنة.

والنفس المطمئنة لا تلغي الخوف، ولا تمحـو الحـزن، ولا تنكر الرغبة. لكنها تعيد ترتيبها جميعا داخل وعي يعرف كيف يحملهـا دون أن تسـتعبده. إنهـا نفس منسـجمة: مـع أصـلها الأخروي، ومع غايتهـا في الـدنيا، ومـع أبعادهـا الأربعـة، ومـع سنن الوجود، ومـع مـدد اللـه الـذي يصـحب السـائرين إليـه. ومن هذا الانسجام تولد الطمأنينة.

والطمأنينة ليست هدوءا خارجيا، بل نورا داخليـا. ليسـت غياب الألم، بل فهمه. ليست سـكونا، بـل حركـة في الاتجـاه الصحيح. ولهذا خوطبت هذه النفس بخطاب لا يشبه سواه:

﴿يا أَيَّتُها النَّفسُ المُطمَئنَّة ۝ ارجِعي إلى رَبِّكِ راضيَةً مَرضيَّة﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]

والرجوع هنا ليس انتقالا مكانيـا، بـل عـودة إلى الأصـل ـ كمـا يفسـرها أهـل العلم: ارجعي إلى ربـك كمـا بـدأت منـه. وهي حال يعيشها الإنسان قبل المـوت، لا بعـده فقـط؛ فمن اطمأن قلبـه إلى اللـه في دنيـاه، فقـد بـدأ رجوعـه قبـل أن يغادر.

ومع ولادة النفس المطمئنة، تولد النسخة الخالدة من الإنسان. نسخة لا تعيش برد الفعل، بل بالحضور. لا ترى الدنيا سجنا، بل معبرا. ولا ترى الناس تهديدا، بل رفقة اختبار. ولا ترى الفشل نهاية، بل مفصلا. ولا ترى النجاح ذروة، بل أمانة. هذه النسخة لا تعيش لتثبت نفسها، بل لتقترب من حقيقتها؛ ولا تعيش لتقنع الآخرين، بل لتقف صادقة أمام الله.

وهذه النسخة لا تولد فجأة، بل تبنى طبقة فوق طبقة: وعي، ثم صدق، ثم تجربة، ثم عودة. لكنها تصل. تصل حين تستقيم البوصلة، وتنسجم المحاور، ويصير الاتجاه واحدا. وحينها يولد «الإنسان الثاني»: الذي يرجو الله وحده، ويخشى الله وحده، ويسير إلى الله وحده.

القسم الثالث

العودة إلى الواحد

في نهاية كل رحلة صادقة، لا يعود الإنسان إلى حيث بدأ، بل يعود إلى من هو. يعود إلى الله. إلى الحقيقة التي نسيها حين انشغل بالعالم. فالإنسان لم يخلق ليقيم هنا، بل ليعود:

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: ٨]

والرجوع ليس حدثا مؤجلا ينتظر الموت، بل اتجاه يبدأ من لحظة الوعي. عودة ليست عودة جسد، بل عودة قلب:

من الغفلـة إلى الحضـور، ومن التشـتت إلى الوحـدة، ومن الضياع إلى الطريـق. كـل صـدق عشـته، وكـل ألم احتملتـه، وكل باب أغلقته للـه، كـان خطـوة في هـذا الرجـوع الكبـير: رجوع الروح إلى مركزها.

ومما يهون هذا الرجوع أن الذي تعود إليـه أرحم بـك من نفسك. فهو الذي جعل الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها، ووعد التائبين بأن يبدل سـيئاتهم حسـنات، وفتح بـاب العفـو لمن أسرف على نفسه ما لم ييأس من روحه. فـالعودة إلى الواحد ليست عودة إلى حساب صـارم يحصـي الـزلات، بـل إلى كرم يستقبل المقبل بأكثر مما يسـتحق. ومن عـرف أن منتهاه إلى هذا الكرم، هان عليه أن يقطع الطريق.

وعندما يعود الإنسان إلى الواحد، تتغير رؤيته لكل شيء. الدنيا تصير معـبرا لا عبئـا. والـزمن يصـير حـاملا لا مطـاردا. والموت يصير بداية لا نهاية. والله ـ الذي ظن أنه كـان يبحث عنه ـ يكتشف أنه كان معه طوال الوقت:

﴿هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والباطِنُ وهو بكلِّ شَيءٍ عَليم﴾ [الحديد: ٣]

هنا تكتمل الدائرة: تبـدأ من اللـه، وتعـود إلى اللـه. تولـد بنفخة، وتعود بنفخـة، وتعيش بينهمـا حيـاة كاملـة المعـنى. لا خـوف من مسـتقبل، ولا حسـرة على مـاض، ولا قلـق من حاضر:

﴿أَلا إنّ أَولياءَ اللهِ لا خَوفٌ علَيهِم ولا هُم يَحزَنون﴾ [يونس: ٦٢]

وهكذا تنتهي رحلة الذات الخالدة ـ لا كتابا أغلق، بل وعيا استيقظ. إن مشيت بهذا الوعي، فلن تمشي وحدك. وإن تعثرت، عرفت أن العودة ممكنة دائما، وأن الطريق لا يضيع من قلب صادق، وأن البيت الذي تبحث عنه لم يكن بعيدا ـ بل كان أقرب إليك من نبضك.

وهكذا تعود إلى الواحد. تعود إلى الحقيقة. تعود إلى نفسك. وتعود ـ في النهاية ـ إلى الله الذي كان معك منذ البداية. وهناك، لا تنتهي الرحلة... بل تستقر. تستقر حيث وعد الله عباده الصادقين أن يكون منتهاهم:

﴿إنّ المُتَّقينَ في جَنّاتٍ ونَهَر في مَقعَدِ صِدقٍ عِندَ مَليكٍ مُقتَدِر﴾ [القمر: ٥٤-٥٥]

مقعد صدق ـ فمن صدق في طريقه، صدق مستقره. وعند مليك مقتدر ـ فلا غاية بعد أن تكون «عنده». هنالك تنتهي الكلمات، ويبقى الحضور.

نبذة المؤلف

✦

عباس آل حميد

كاتبٌ عُمانيّ نذر قلمه لسؤالٍ واحدٍ لازَمه منـذ الصـبا: كيـف يتحـرّك الإنسـان نحـو خالقـه، فيصـير أقـرب وأصـدق وأكـثر اكتمالًا؟

نشــأ على حافّــة الحرمــان، فاختــار طريــق العلم على المنحة السهلة. درس العلوم الدينيـة والفلسـفة في حلقاتهـا التقليديــة، ثم احــترف الاســتراتيجيا والإدارة والتــدقيق في كبرى المؤسسات العالمية. أمضى أكـثر من عقـدين شـريكًا في بيـوت خـبرةٍ دوليـة مرموقـة، وكـان أوّل خليجيّ يُنتخب شريكًا على مستوى المجموعة في إحداها، قبل أن يقـود — على مدى نحو ثلاثة عقود — مشاريع تحـوّلٍ مؤسسـيّ عـبر القارات. وهو عضوٌ في مجلس الدولة بسلطنة عُمان، يحمل أرفع الشهادات المهنية في المحاسبة والإدارة والاستشارة (CPA, CMC, CMgr, CFE).

غير أنّ هذه المسيرة، على ثقلها، لم تكن غايته بل أداته. فقد اكتشف أنّ الطريقين اللـذين بـدَوا متباعـدين — الـرّوح والاستراتيجيا — طريقٌ واحد: أنّ الوجود كلّـه حركـةٌ مـدبَّرة نحو غاية، وأنّ الإنسان مـدعوٌّ ليعيش حياتـه بـوعي السـاعي إلى ربّه، بالدقّة نفسها التي تُدار بها أعظم المشاريع.

من هذا التقاطع وُلدت كتبه في الفكر الإسلامي وتطـوير الذات والاستراتيجيا، فلقيت إصغاءً من علماء ومختصّـين من

مدارس ومشاربَ شتّى، بل ومن أديانٍ أخرى. وهـذا الكتـاب ثمرةٌ من ثمارها.

لا يكتب ليُقنـع، بـل ليفتح بـاب التأمّـل؛ ولا يـزعم امتلاك الحقيقة، بل يقدّم قراءةً يستقي أصولها من القـرآن الكـريم — الأصـل الجـامع — في مسـائل قـلّ أن طُـرقت بوضـوح. ودعوته مفتوحةٌ لكلّ باحثٍ عن المعنى، أيًّا كان منطلقه.

الذات الخالدة

لتكون أنت

عباس آل حميد

ISBN 978-9992-2-155-9